جولة في

مكتبات الصحراء المغربية

د. محمد حجي

أسعدني الحظ في مطلع السنة الجارية 1983 بأن زرت صحبة الأخوين الأستاذين محمد إبراهيم الكتاني، ومحمد المنوني، أقاليمنا الصحراوية، في نطاق عمل لجنة التاليف والترجمة والنشر المتفرعة عن اللجنة الوطنية للثقافة، بحثا عن المخطوطات المغربية الصحراوية، ورغبة في التعرف والتعريف بالحياة الثقافية والاجتماعية والحضارية في تلك المناطق العزيزة التي طالما جثا عليها الاستعمار البغيض بكلكله وضرب حولها ستاراً من حديد.

كان أكثر مقامنا بالداخلة التي قضينا بها زهاء أسبوع في اتصال دائم مع علمائها وأدبائها، وزرنا عددا من بيوت الشرف والعلم والصلاح، فأوقفنا أهلها عن طيب خاطر وبكثير من الكرم والشمم على مذخراتهم العلمية

التي يحافظون عليها أشد المحافظة ويحرصون عليها أتم الحرص. وبذلك أمكننا الاطلاع على عدد غير قليل من مؤلفات الصحراويين وأشعارهم ومراسلاتهم ومنتسخاتهم. فجلنا ما وسعنا الوقت ونسخنا بالتصوير نصوصا يعسر نسخها باليد. وذلك ما نريد تقديم نبذة منه لقراء المناهل الكرام. بعد إعطائهم نظرة موجزة عن هذا الاقليم.

إقليم وادي الذهب :

يقع إقليم وادي الذهب جنوب خط العرض 24. بين إقليم بوجدور شمالا. وموريطانيا جنوبا وشرقا. والمحيط الأطلسي غربا. في مساحة تنيف على مائة ألف كيلومتر مربع. وتسكنه 27 قبيلة. منها قبيلة الركيبات (1). وقبيلة العروسيين (2) وقبيلة أولاد دليم (3) وقبيلة أيت

---

(1) الركيبات شرفاء حسنيون ينتسبون الى المولى عبد السلام بن مشيش دفين جبل العلم بين تطوان وشفشاون. وحفيد المولى ادريس باني فاس ودفينها. ويميز النسابون الصحراويون بين الرقيبات - بالقاف - القاطنين بجهة الشرق. والركيبات - بالجيم المعقودة - القاطنين بالسواحل الغربية.

وتحتوي الركيبات على الفخذات التالية : الجنحة. والبيهات. والقاسم ابراهيم وسلام. والعيشة. والفقرة ؛ كما تحتوي الركيبات على فخذات : اولاد الشيخ. والسواعد. واولاد موسى. واولاد داود. والمدنيين. والتهلات.

(2) العروسيون شرفاء حسينيون يرفعون نسبهم الى الحسين بن علي ابن ابي طالب. وهم فصيلتان : اولاد الخليفة. واولاد سيدي بومهدي. ومعلوم ان موطن العروسيين الأصلي ببلاد الهبط شمال المغرب.

(3) ام قرى اولاد دليم هي اوسرد في الجنوب الشرقي للداخلة. ومن قراهم كذلك العركوب. وام دريكة. وبير انزران. واميليلي. وبير كندوز. وتيشلة. وزوگ. والوينيت. وميجك. والكويرة. وفيهم خمس فخذات : اولاد لغليگة. واولاد تكدي. والسراحنة. واولاد بعمر. والوديكات.

الحسن (4) وقبيلة أولاد تيدرارين (5) وقبيلة أزركيين (6). ويشتغل أهل هذا الإقليم برعي الماشية من إبل وغنم وماعز. وبالفلاحة خاصة في منطقة تاورطة وتنكير اللتين تجهز فيهما مساحات سقوية مهمة. ويعمل عدد كثير منهم في التجارة. بحيث يعد سوق الداخلة من أهم أسواق الجنوب في الثياب والآلات الإيليكترونية وغيرها.

---

(4) في هذه القبيلة فصيلتان : اينجورن. والسيات يقطنون جميعا في السواحل الغربية.
(5) تشتمل على الفخذات التالية : ليدادسة. واهل الطالب علي. والعبوبات. واولاد موسى.
(6) فيها ثلاث فصائل : شتوكة. وايت سعيد. والكراح
اما سائر القبائل فهي :
- قبيلة آل محمد سالم التي نخصها بالحديث في هذا البحث.
- قبيلة ايت باعمران التي اصلها في ايفني.
- قبيلة فيلالة اهل سيدي بوبكر دفين ضاحية العيون.
- قبيلة اهل بارك الله المختصة في حفر الآبار.
- قبيلة السكارنة.
- قبيلة آل الشيخ ماء العينين العالم الصالح الشهير.
- قبيلة اولاد بوسبع.
- قبيلة ايت موسى وعلي.
- قبيلة مجاط التي اصلها من الاطلس المتوسط بمنطقة زاوية الدلاء.
- قبيلة يكوت
- قبيلة كنتة.
- قبيلة تندغة.
- قبيلة اذيقب.
- قبيلة امراكن.
- قبيلة المناصير.
- قبيلة الفيكات.
- قبيلة الشرفا : وفيهم اهل السيد. واهل مولاي الشريف. واهل تيشيت.
- قبيلة اولاد اللب.
- قبيلة مشظوفه.
- قبيلة الشماسيد.
- قبيلة عمني - بتفخيم الميم - اولاد غيلان.

المكتبات :

المكتبات متعددة في الصحراء. وكلها تقريبا في ملك الخواص. حتى مايوجد منها في بعض الزوايا يعتبر ملكا لأهل الزواية من أبناء الشيخ وحفدته. ومعظم الكتب والكراريس والأوراق فيها من تأليف علماء الصحراء وأدبائها. مكتوبة بخطوط صحراوية لاتختلف كثيرا عن خطوط بادية المغرب في الشمال. بل تماثلها تماما في النقط وعلامات الوقف وترتيب حروف الهجاء. وتتحد مع كتب حواضرنا العلمية من حيث الموضوع عقيدة أشعرية. وفقها مالكيا. وتصوفا سنيا جنيديا. ونحوا بصريا. وحسابا بالأرقام العربية الغبارية. وأدبا عربيا صميما.

ويظهر الطابع الثقافي المشترك بين شمال المغرب وجنوبه ظهورا جليا في الكتب الدراسية التي لاتكاد تختلف في مضارب الصحراء عنها في رحاب القرويين وابن يوسف ، **فالاجرومية**، **وألفية** ابن مالك. **ومرشد** ابن عاشر. ورسالة ابن أبي زيد. **ومختصر** خليل بشروحها وحواشيها هي هي هنا وهناك. اللهم إلا ماكان من بعض الشروح والتعاليق والأنظام المحلية الخاصة ، بل نجد في الصحراء إلحاحا على استعمال مؤلفات علماء شمال المغرب في التدريس لانجد له مثيلا في مساقط رؤوسهم بفاس أو تازا أو سلا أو غيرها.

ومن مميزات مكتبات الصحراء كذلك توزيع أجزاء الكتاب الواحد على مكتبات متعددة. وإن كان مثل هذا يوجد أحيانا في مكتبات الخواص بالحواضر. إلا أنه في الصحراء أكثر انتشارا وتكرارا. فمعظم الكتب المتعددة الأجزاء التي وقفنا عليها إنما اطلعنا على بعض أجزائها.

لأن الأجزاء الأخرى عند بعض حفدة المؤلف في أماكن قد يتعذر الوصول إليها بسبب طبيعة الارتحال والانتجاع السائدة في الصحراء. ومن حسن الحظ ـ مثلا ـ أننا اطلعنا على أجزاء من كتاب عند أحد حفدة مؤلفه في الداخلة. ثم عثرنا على الأجزاء الأخرى عند حفيد آخر له بالعيون. الأمر الذي يتطلب من وزارة الشؤون الثقافية القيام بعملية طويلة النفس تهدف إلى تجميع مخطوطات الصحراء وتنظيمها عن طريق التصوير والفهرسة.

ومن أهم المكتبات الصحراوية :

- مكتبة آل سالم المجلسيين بالداخلة والعيون.
- مكتبة اليعقوبيين بالداخلة.
- مكتبة آل الشيخ ماء العينين بالسمارة.
- مكتبة آل الليلي بالعيون وزاوية سيدي حمود بطرفاية.

نماذج من كتب علماء الصحراء وأدبائها :

هناك أسر علمية صحراوية كثيرة توارث أفرادها العلم والأدب أجيالا وأحقابا. ذكر بعضها أحمد بن الأمين الشنقيطي في كتابه **الوسيط**، ومحمد الامام بن الشيخ ماء العينين في **الجأش الربيط**، ووقفنا في زيارتنا الصحراوية على ما لا يوجد في الكتابين من أخبار العلماء والأدباء وآثارهم. الأمر الذي يدل على أن الحياة الفكرية في الصحراء مازالت مجهولة أو غامضة في معظمها. وأن ميدان الاكتشاف العلمي والتنقيب الأدبي مازال فسيحا أمام شبابنا الباحثين. وسنقتصر في

هذه المجالة على أسرة واحدة من الأسر العلمية التي لقينا أفرا منهم في هذه الرحلة، وهي أسرة آل سالم المجلسيين. فكان لنا معهم حوار وسمر (7) وقيدنا من مكتبتهم الغنية بأيدينا أو صورنا بالوسائل البسيطة الموجودة هناك كما ذكرنا.

ينتسب آل سالم المجلسيون إلى موطنهم الأول بعيون مدلس داخل الصحراء. وقد حرفت العامة الجيم دالا، لكنهم يفحصونها في كتابتهم وأشعارهم، فيدعون أنفسهم ويدعوهم الناس مجلسيين (8). ويرفعون نسبهم إلى إبراهيم الأموي الذي يقال إنه من ولد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز.

• وجد الأسرة الذي اشتهر بالتدريس والتأليف في العصور المتأخرة هو محمد بن محمد سالم (9) الذي كانت له مدرسة متنقلة على الطريقة الصحراوية (10) يسير في ركابه فيها طلبة كثيرون من مختلف جهات الصحراء. وألف عدة كتب اتسمت كلها بالعمق وطول النفس. منها :

- **الرِّيَّان في تفسير القرآن**، في سبعة أجزاء ضخام.

- **لوامع الدرر، في شرح المختصر**، أي مختصر خليل، في سبعة أجزاء ضخام كذلك.

---

(7) نخص بالذكر منهم الفقيه الاديب الشيخ احمد حبيب الله المجلسي وكيل جلالة الملك بالداخلة الذي افادنا كثيرا من محفوظاته الغزيرة وكتبه القيمة جزاه الله خيرا.

(8) عند احمد بن الامين في الوسيط (ص. 348) مدلش - بالشين المعجمة - وهو خلاف ما سمعناه مشافهة من القوم في عين المكان، ومدلس اقرب الى مجلس من مدلش بداهة.

(9) يرفعون نسبه هكذا : محمد بن محمد سالم بن محمد سعيد بن محمد بن أبي السيد ابن ابي بكر بن علي بن يمغدش (معناه : سالم) بن وديعة الله بن عبد الله بن احمد بن يفتا (معناه : الخيار) بن يدر (معناه : يعيش او يحيا) ابن ابراهيم الاموي.

(10) انظر احمد بن الامين، الوسيط، ص 517 وما بعدها.

وتوفي هذا العالم عام 1302 هـ. وقبره شهير في دومس على بعد نحو [illegible] كلم من أوَنْرَدْ الذي هو مركز الداخلة،وترك أربعة أولاد نجباء ساروا على نهجه في التدريس والتأليف ، أحمد، وعبد القادر، وحبيب الله، وعبد الله الملقب حمد الله. وقد أشار إليهم وإلى مؤلفات الشيخ والعلوم التي شارك فيها هو وأبناؤه. الشريف ولد سيدي أحمد الصبار المجلسي (11) في مرثيته الطويلة التي منها :

بعد الجمام أنيل عمراً ثانيـــــا	من قال حج لن يلوح كِتَابُـة
ما مات من أبقى اللوامع بعده	والنهر يجري تستهلّ سحابُـة
ولبحره الرَّيَانُ يكفي وحـــده	يشفي الغليلَ ذوي الغليل شرابُهُ
ولَحسْبُهُ الدر النظيم حلى ولـم	يُسبق إلى ماجاء فيه كتابُــــه
لاتنس وشي الأخضريِّ فإنه	حتى إذا عد الخصال حسابُـــه
ولحسْبُه أنجابُه شرفاً وقـــــد	أبدت لنا إنجابهُ أنجابُـــــــة
مَنْ مِثلُ أحمد في الخصال جميعها	والشطر في إيجازه إطنابُـــــه
من مثلُ عبد القادر الجيلاني إذ	حفظ الهدى والغيُّ عنْ ذِبابُة
أترى حبيب الله ذا مثل وقد	أحيى الليالي حين نام صِحابُه
من مثلُ عبد الله إذ أربا أتـــت	تناسب أو دارت به طلابُـــه
.... بهمَ كتابُ الله أتقن حفظُه	تجويدُه تاويلُه إعرابُــــــــه
والسيرةُ الغراء أحكم حفظهـــا	غزواته وبعوثُه أنسابُــــــــه
وكذا التصوف والحديث وقد أضا	علم النُهى أشكاله وحسابُـــــه
... عدلُ الأشجْ ونورُ آل محمـــد	لاحا عليه فما اختفت أنسابُـــة

(11) انظر المصدر السابق ص ١٥٨ - ١٥٩. وقد أملى علينا هذه المرثية الشيخ أحمد حبيب الله المجلسي من حفظه.

• وقد خلف الشيخ محمد بن محمد سالم في المدرسة المتنقلة ابنه عبد الله حمد الله، فتكاثر تلامذته وعظم الإقبال عليه. وبلغ عدد تلاميذه الراتبين 150 من أولاد بير، و120 من تنذغة، و105 من أهل تكونات، بالاضافة إلى عدد كثير من التلاميذ الغير الراتبين من مختلف قبائل الصحراء.

وظهر أثر تعليم هذا الشيخ في أبنائه وبناته، فكانوا جميعا فقهاء أدباء، ونذكر من بينهم :

• السيدة هَنْدُو بنت عبد الله حمد الله المجلسية، العالمة الصالحة التي اشتغلت ـ كأهلها ـ بالتدريس والتأليف. وقد حدثنا ولدها الشيخ أحمد حبيب الله أنه قرأ عليها القرآن الكريم حفظا وتجويداً، ومتون مختلف العلوم، ومختصر خليل. ومن تآليفها :

ـ الدر الأسنى، في أسماء الله الحسنى.

ـ نظم فروع الشيخ خليل، وهو رجز في نحو أربعمائة بيت.

ولها ألغاز فقهية منظومة كثيرة كانت تحاور بها إخوتها وأهلها الفقهاء. ونسخت بخطها كتاب ثمان الدرر الذي سنتحدث عنه بعد، وتعتبر هذه النسخة أحسن مخطوطات هذا الكتاب وأصحها وأوثقها، وهي محفوظة عند ولدها الشيخ بَنْبا المجلسي. وتوفيت هذه العالمة عام 1372، وقبرها شهير بروضة الجُبَشت في التخوم المغربية المجاورة لموريطانيا.

• واشتهر الأديب أحمد بن محمد بن محمد سالم المجلسي بأمداحه النبوية، ومنها ما يسمى :

ـ المديحيات الهاشميات، وهي أربع قصائد في كل واحدة منها خمسة وستون بيتا.

• لكن عالم الأسرة الكبير غير مدافع هو عبد القادر بن محمد بن محمد سالم المجلسي. وهو الذي سماه الشريف الصبار في المرثية السابقة عبد القادر الجيلاني. وربما كان ذلك اسمه الكامل وإنما اختصرته الألسنة تخفيفا. كان مشاركا في علوم القرآن والحديث. والتوحيد والفقه والأصول. والسير والأنساب. واللغة والنحو والبلاغة والمنطق والحساب. وألف كتبا عديدة منها :

- **ثمانُ الدُرر، في هتك أستار المختصر، في ستة أجزاء ضخام.**
- **شرح اضاءة الدَّجنّة، في عقائد أهل السُنّة، لأحمد المقري.**
- **نزهة الأفكار، في شرح قرة الأبصار.**
- **قرة العينين، في غزوات سيد الكونين.**

أدلة أخرى على أصالة مغربية الصحراء :

اشتمل كتاب ثُمان الدُرر على فصول محررة في غاية الأهمية بالنسبة للتاريخ السياسي والديني في المنطقة، تدل على سلامة تفكير مؤلفه الشيخ عبد القادر المجلسي وقوة يقينه وصدق وطنيته. فقد قامت ضجة دينية كبرى في الصحراء أثناء تكالب الأوربيين على المغرب أواخر القرن التاسع عشر، حيث أصاب جنوب البلاد ما أصاب شمالها من تضييق ومناورات وتدخل أجنبي. واختلفت آراء فقهاء الصحراء، وافترقوا إلى انهزاميين استسلاميين يدعون إلى الرضى بالأمر الواقع، ومقاومين صامدين يأمرون بمقاطعة الكفار وعدم الركون إليهم. وكان من الفريق الأول المدعو ابن بابا الذي أفتى بقبول حكم النصارى المسيطرين، والانفصال عن العرش المغربي المغلوب على أمره آنذاك. وقد تصدى للرد

عليه جماعة من الفقهاء الأحرار. ومنهم الشيخ عبد القادر المجلسي الذي ضمّن فتواه التقدية أحد فصول كتابة ثمان الدرر، ومما جاء فيها :

«... وتعيين الإمام واجب كتابا وسنة وإجماعا. وطاعته كطاعة رسول الله. ومعصيته كمعصية رسول الله. ومعصية الرسول هي معصية الله تعالى. ومعصية الله هي رأس الكفر. وهي ـ الإمامة ـ واجبة كتابا لقوله تعالى : يا أيها الذين امنوا (الآية) (12). وسنة لقوله : اسمع وأطع وإن كان عبدا حبشيا (13). وانعقد الإجماع على وجوبها. فلم يرد ناسخ فيها من حديث ولا آية. ولذلك بوب العلماء عليها مع التوحيد. لشابهتها لعقائد الإيمان.

فالحاصل أن نصب الإمام فرض مجمع على وجوبه. وشروطها ستة سأذكرها قريبا إن شاء الله. قادها الرسول صلى الله عليه وسلم. ثم صاحبه ثم الفاروق. ثم ذو النورين. ثم أبو السبطين. ثم خادم وحيه معاوية بعد أن سلمها له سيد شباب أهل الجنة مورد الحديث وريحانة جده صلى الله عليه و آله وسلم. ثم كانت ملكا عضدا. ويغفر الله للمسلمين. وبالاختصار عما بعد ذلك من الأزمنة. أحببت تبيين حقوق سلطاننا أمير المومنين الحسن ابن أمير المؤمنين محمد (14م) علينا. وأن ما جرعتنا النصارى من المضض وقطع الطريق لا يسوغ جواز العمل بغير أمره ونهيه. ومن رأى مع النصارى غير هذا فهو ـ والعياذ بالله تعالى ـ يرفل في غياهب جهله

(12) يريد ولا شك الآية [illegible] من سورة النساء : يا ايها الذين امنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم.

(13) حديث صحيح روي بصيغة الافراد وصيغة الجمع وقد اخرجه ابن ماجه في كتاب الجهاد عن انس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اسمعوا واطيعوا وان استعمل عليكم حبشي كان راسه زبيبة.

(14) يقصد الحسن الاول بن سيدي محمد بن عبد الرحمن.

وخسران عمره. وكيف لا وقد ضل سواء السبيل. ومن خرج عن بيعته ومازج النصارى بعقيرته فهو ممن نص العلماء على أن جهاده أحب إليهم من جهاد الروم. لأن أمير المومنين الحسن بن أمير المومنين محمد - أمد الله في حياته. وأولاه الأوفر من نصره وعنايته. وجعل أعاديه أحاديث ومزقهم كل ممزق - قد تسلسلت البيعة الشرعية في أسلافه الكرام. وغرست إمامتهم من منبعين عريقين أصيلين هما الشرف والدين. فلا يجوز اليوم لمن يومن بالله ورسوله الخروج عن طاعته. ولا التبرم عن إمرته. لا سيما في هذا الزمن الذي بلغت فيه شوكة النصارى الربا. وبلغ سيلهم الزبى. فيا خسارة من لم يجاهد لإعلاء كلمة الله تعالى تحت إمام عادل جاهد بنفسه...» وقد عاش الشيخ عبد القادر المجلسي 99 سنة ومات عام 1937. وقال في رثائه الشيخ عبد السلام ولد حرمة العلوي رجزا مطولا ذكر فيه كذلك تآليفه. منه :

... في يوم عيد النحر وقت الظهر — حدث أمرٌ أيُّ أمر إمْــــر

أقوت ربوعُ الفقــه والتوحيــد — والنحو واللغــة والتجويــد

وأربَعُ المنطــق والبيـــان — وأربعُ البديــع والمعانــي

وأقفرت مـعاهـدُ الحساب — وسيرة المختار والأنساب

وأربـع الحديث والتفسيــر — ودور حل المشكل العسيــر

وبادت الخلائـق الحســان — والبذل والإنفاق والإحسان

واشتبه الحرام بالحــلال — وأذن العالــمُ باختــلال

أن مات محيي الدين عبد القادر — مقيِّدُ الشوارد النـــوادر

شيخ الشيوخ العالم ابن العالم — نجل الرضى محمـد بن سالم

مؤلف الواضـح والمباحـث — مَنْ ماله في العلم مِنْ مُباحث

وسُلّم المقاصد والثمان — وكم حوى من درر ثمـــان

كشرحه لقرة الأبصار ناهيك شرحا نزهة الأفكار
وشرحه إضاءة الدُّجُنَّة أسكنه الله فسيح الجنة
وكم له من المؤلفات مختصرات ومطولات
عمر في طاعة ربه العلي بخدمة العلم وحسن العمل
عاش حميدا ومضى سعيدا عما نهاه ربه بعيدا
فلتبكه الأصحاب والأقارب ولتبكه الجيران والأجانب
وليبكه الجاهل والضعيف وليبكه التحرير والتصنيف
وليبكه العموم والخصوص ولتبكه الشروح والنصوص
وليبكه المعقول والمنقول ولتبكه الأبحاث والنقول
إن قليلا عَبْرَةً نهراقه فيه وجفنٌ مُسبِلٌ رقراقه
فرحمة الرب الكريم القادر على إمام العصر عبد القادر.

ونذكر هنا على سبيل التنظير أن للشيخ محمد العاقب بن مايابى الجكني كتابا بعنوان :

ـ **ذم موالاة الكفار ومدح الهجرة عن بلاد الكفر**، يضرب فيه على نفس وتر الشيخ عبد القادر المجلسي في فتواه السابقة المدمجة في ثمان الدرر، وله في هذا الكتاب لامية طويلة يحذر فيها قومه الصحراويين من الركون إلى النصارى والثقة بوعودهم فيقول :

... لا تشتروا دنيْةً بدينكم لم يرْضها غيرُ الدنيِّ الأرذل
ترجون أمْن الكافرين بعدما نفاه نصُّ المحكم المُنَـزَّل
تالله مالكافر عهدٌ ولا له أليةٌ إذا ما يأتلي
قد أخذ الله عليهم عهده أن يومنوا بالعربي المرسل
فنقضوا ميثاقه وأنتمْ ترجون منهمْ وفا السموأل

هيهات أن يومن كافر وهل ترجو سخالُ الضأنِ أمْنَ الْجَيْئلِ
ومنْ يثق بكافر فهْو لما في عقله ودينه منْ دخل
... الضَّيْغَمِ الضيغمِ يا من رام أن يسري في الليل البهيم الأليل
وعد النصارى كاذبٌ، وعدلهم جورٌ، وميزهم وخيم المأكل
وسلمهم حرب، وبذل مالهم تغلُّبٌ بالكيد والتحيل
والسمُّ في جوارهم وقربهم ومسلم بنارهم لا يصطلي
لا يلدغ المومن مرتين في جحر حديثٌ سار سير المثل
يا عجبا لحازم يخشى العصا ولا يبالي بالظُّبا والأسل
يظل لا ينال أمن يومه وهو يُرجّي الأمن في المستقبل
ومترف مخول مما يشا يرضى بأن يكون بعض الخول
وطامح إلى المقامات العلى في الدين يرضى بالمقام الأسفل

ثم يدعو قومه إلى التماسك والتعاضد والاحتكام إلى كتاب الله لحمل راية الجهاد بالنسبة للقادرين. والهجرة بالنسبة للعاجزين.

يا معشر الإسلام لا تسالموا فتنشبوا في كنّة المُحتبل
كونوا على العدو لله يدا وفي التنازع لزوم الفشل
ولا على المسكين إثم. إنما الإثم على كل عريف مقبل
عليكمْ القرآن وهو فارق كي لا نضل باتباع السبل
على القوي كُتب الجهاد لـ ـكنْ هجرةٌ على الضعيف الأعزل
وهو كفائيٌ أصالة وعيـ ـنيٌ لدى مجي العدو المقبل
وما بقوة السلاح عبرةٌ لا فرق بين صعدة ومنصل
لكلتمْ الدين إلى منْ دونكم من اللصوص بئس شين الوكل

إن الجهاد ذروة الإســــلام لا ... يبغي به باغي الهدى من بدل

هل تكرهون في الجهاد غير إحد ... ـدى حسنيين خَبْة أو نفـــل

كم فيكمْ من عـــدد وعُـــــدد ... في الحرب دأبا بيتها في شغل

من نكلٍ يصول فوق نـــكـــل ... وجحفل يسطو أمام جحفـــل

لو حاربوا العدا كما بينهـــمْ ... لَثُلَّ عرْش الكفر دون مهـــل

... وعدنا الله بنصره، ومـــا ... لكلمات الله مـن مـبـــدل

أمّا المُقام تحتهم فـــإنـــــــه ... بَسْلٌ بإجماع القـــرون الأول

أتتراءى نار مسلـــم وكـــــا ... فر ؟ نهى عن ذاك خيرُ مرسـل

ذلك بعض ما جاشت به أفئدة فقهاء الصحراء وأدبائها. وسطرته أقلامهم فسارت بذكره الركبان، تمسكاً بدينهم، وتشبثاً بمغربيتهم، ودفاعا عن وطنهم. وتلك أثارة منْ علم أسرة آل سالم المجلسيين. وما أكثر الأسر الصحراوية العالمة ! وما أعظم ما خلفوه من آثار مكتوبة ومحفوظة في الصدور !

الرباط ... د. محمد حجي

شفشاون وآثارها المعمارية عبر التاريخ

عبد العزيز ابن عبد الله

غمارة قلب منطقة شفشاون – تمتد ما بين نهر النكور شرقا وبلاد الهبط غربا مع قربها من بوغاز جبل طارق أي المجاز التقليدي منذ فجر التاريخ بين العدوتين الجنوبية والشمالية أي بين القارتين الإفريقية والأوربية الأمر الذي جعل منها مهبطا للفينيقيين والرومان وربما فريق من العمالقة وحتى أهل القوقاز ومدينة شفشاون نفسها قائمة على أنقاض مدينة Appiaum الرومانية (1) ولعل هنالك آثارا عتيقة ترجع لهذا العهد مثل قنطرتي تلمبوط (2) ومدشر (ماكو شرقي المدينة وقد كان (يوليان) الغماري واليا للمنطقة من قبل القوط بإسبانيا قبل

(1) المجلة الاسيوية ـ المجلد العاشر ص 152.

(2) راجع الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها للأستاذ عبد القادر العافية.

انطلاق الفتح الإسلامي على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد منذ 88 هـ ولا يزال مسجد ابن نصير قائما بين شفشاون وتطوان وكذلك مسجد الشرافات المنسوب لطارق بن زياد وقد انبثقت في نفس الفترة أيام الوليد بن عبد الملك عام 92 هـ مملكة نكور أو إمارة بني صالح بن منصور الحميري شرقي المنطقة قرب باديس. نعم غزا الإسلام منذ العقود الأولى للفتح قلوب صنهاجة وغمارة فاتجهت الجهود إلى بناء رباط في عهد الأمير اسعيد بن صالح (يحتوي على مسجد بمرافقه يستوحي تصميمه الهندسي من جامع (الأسكندرية) وكان الأسلوب المعماري بسيطا تبعا للفن الشرقي الإسلامي الذي كان لا يزال إذ ذاك في فجر انبثاقه. فجامع عمرو بن العاص (عامل مصر) مثلا خال من كل زخرفة وتنميق كالقربصة والنقشين الخشبي والمرمري وسائر العناصر المعمارية الدقيقة التي امتاز بها الفن العربي في العصور التالية.

ومن هذا الطراز مسجد (أغمات غيلانة) الذي أسس عام 85 هجرية والذي يظهر أنه أول مسجد بناه المسلمون بالمغرب بعد أن حولت المعابد التي بناها المشركون إلى مساجد وجعلت المنابر في مساجد الجماعات (3) وبدأت إفريقيا تتطور روحيا وفنيا على نسق الشرق الإسلامي.

وقد لاحظ الكاتب الفرنسي (جورج مارسي) وهو من كبار مؤرخي الفن الإسلامي أن بلاد المغرب أصبحت منذ القرن السابع الميلادي عبارة عن مرحلة في الطريق الكبرى التي تصل الهند بجبل (البرانس) باسبانيا والتي يطرقها علاوة على رسل الخلفاء وسفرائهم ثلة من الحجاج والطلبة

(3) المغرب لابن عذارى ج 1 ص 37.

والفنانين والتجار (4) فلا يسعنا والحالة هذه، أن نستهين بآثار عهد الإسلام المستديمة والمنبعثة بواسطة هذه المسالك ومن أبرز مظاهر هذا الإشعاع الفني انبثاق مساجد وجوامع تتسم بطابع عربي أصيل وتوجد خاصة بافريقية العناصر الأولية للفن إسلامي.

ولعل أول بوتقة انصهرت فيها مع الأيام مظاهر الفن المعماري الشرقي المغربي هي مدينة فاس التي أقامها المولى إدريس حوالي عام 192 هـ بالموضع المعروف بجراوة وقد أحاط عدوة الأندلس بسور فتح في جوانبه عدة أبواب وجهز المدينة بجامع للخطبة وهو (جامع الأشياخ)

وقد اتجه المرابطون خاصة نحو هندسة المساجد التي لم يعد يخلو منها ربض ولا زقاق لاسيما في فاس كما اهتموا ببناء القلاع على غرار الحصون الأصلية مع الاقتباس في آن واحد من الأندلس. وأول ما تجلى هذا الاقتباس في فاس حيث استقدم يوسف بن تاشفين من قرطبة جملة من صناع طوروا مساجد المدينة وسقاياتها وحماماتها وخاناتها كما استقدم علي بن يوسف المهندسين الأندلسيين لبناء قنطرة (تانسيفت).
انظر المصدر السابق ص 358 ـ 359، وقد أملى علينا هذه المرثية الشيخ احمد حبيب

ثم جاء الموحدون فاستطاعوا بفضل ما أبدعوه من روائع تبوؤ المقام السامي في تاريخ الفن الإسلامي لا سيما في عهد يوسف الذي عاش في إشبيلية حيث زينها بأروع البنايات والمؤسسات العمومية ثم جاء ولده يعقوب المنصور فكان أبدع بناء في تاريخ المغرب الفني وقد

تجلت هذه البدائع خاصة في إشبيلية والرباط ومراكش ومناراتها (خيرالدا وحسان والكتبية) وأصبحت مراكش ببناياتها وقصورها وحدائقها أشبه ببغداد في الشرق كما اشبهت مدينة فاس دمشق في روائها الفني وطبيعتها الخلابة.

ومن خواص الفن المريني النقش على الخشب والجبس والادهان البديعة والشماسيات الملونة والنحاس المموه وترصيع المنارات بالزليج.

أما في عهد السعديين الذي بدأ الفن المعماري يتحجر فيه نسبيا فإنه يمتاز (بقصر البديع) الذي وصفه (الافراني) بأنه يفوق بنايات بغداد روعة وجمالا ورغم هذا التحجر لا يمكن أن يعتبر هذا الفن سوى امتداد للفن المغربي الأندلسي مع مميزات جديدة حيث ان المنصور الذهبي استقدم الصناع والمهندسين من مختلف البلاد وحتى من أوربا.

ومن المآثر السعدية الباقية بعض مساجد مراكش (المواسين والقصبة وباب دكالة) وقبور السعديين الرائعة وجناحان في جامع القرويين.

وقد كفل العلويون امتداد هذه التقاليد الفنية فجهز مولاي رشيد مدينة فاس بالحصون على غرار بني مرين وأقام مدرسة الشراطين.

أما هندسة المساجد فقد كانت مزيجا من هندسة الدول السالفة.

ومن حيث هندسة البناء الدينية يظهر أن الفن المسيحي لم يترك أثرا يذكر في البلاد حيث ان المغرب نقل عن المشرق طريقته في الزخرفة التي تزدان بها مساجده ومختلف مؤسساته الدينية. وهي الطريقة الإسلامية التي أثارت إعجاب مهندسي الكنائس الرومانية في فرنسا وظهرت آثارها فيما شيدوه بها من معابد خلال القرون الوسطى.

نعم يقال إن ذلك الإشعاع الفني الإسلامي لم تتعد آثاره نطاق الجزئيات (ريكار) ولكن كم يكون فن القرون الوسطى المسيحي جافا وباهتا كما يقول الأستاذ ريكار نفسه - لو أنه خلا من هذه الجزئيات ومن روعة ألوانها وجمال خطوطها.

وبقدر ما كانت مجالي الفن الإسلامي بالريف وشمال المغرب محدودة رغم أوليتها وأصالتها بقدر ما أصبحت مدينة فاس حسب شهادات كبار الأثريين مظهر إعجاز في ميدان التكييف بالطابع الشرقي. ذلك أن الفن اتخذ مناهج جديدة منذ العصر الأموي في كل من الشرق الأدنى والمغرب العربي بفضل مرونة حساسية العرب ومداركهم الإبداعية. فهناك عوامل حدت العرب في الأندلس والمغرب وكذلك بمصر إلى الإستيحاء في زخارفهم من معطيات الهندسة وهذه العوامل هي إهمالهم للأشكال والصور المستمدة من الطبيعة وتعمقهم في دراسة الرياضيات وسعة مواهبهم وأذواقهم.

وكان لفاس أثرها القوي حتى في إفريقيا وبذلك أمس مهد علماء الإسلام بإفريقيا تابعا لمدرسة برابرة الغرب الإسلامي (4) ويرجع فضل هذه النهضة إلى المولى إدريس الثاني الذي أمد حاضرة العلم بأولى مؤسساتها.

وقد اقام المرابطون عددا كبيرا من المؤسسات الدينية في المغرب الأوسط (جوامع جزائر بني مزغنة وندرومة وتلمسان وكذلك في المغرب مدرسة الصابرين بفاس وبجامع القرويين قد اشمت في ربوعه منذ البداية اهتمامات التجهيز بكل المقومات التي تكفل له الاضطلاع

4) (الفن الإسلامي) جورج مارسي ج 2 ص 469.

بمأموريته كمركز للتوقيت ومخبر للتعديلات الفلكية لكل المملكة المغربية. ذلك أنه عندما تولى يحيى بن محمد بن إدريس ملك المغرب (عام 234 هـ) كثر الواردون على فاس فكان ممن قدم من القيروان محمد بن عبد الله الفهري الذي استقر مع ذويه في عدوة القرويين وخلف بعد موته بنتين هما: «فاطمة أم البنين ومريم» وتحصل لهما بالميراث مال كثير طيب ورغبتا أن تصرفاه في وجوه البر فعلمتا أن الناس قد احتاجوا لبناء جامع كبير في كل عدوة من فاس لضيق الجامعين القديمين (5) بالناس فشرعت (فاطمة) في بناء (جامع عدوة القرويين) و(مريم) في بناء (جامع الأندلس) (6).

وقد وقع الشروع في بناء جامع القرويين في رمضان 245 هـ ونصبت قبلته على غرار قبلة (جامع الشرفاء) الذي أسسه المولى إدريس. وكان يحتوي أول الأمر على أربعة بلاطات ابتداء من القبلة. ولكل بلاط إثنا عشر قوسا من الشرق إلى الغرب. وأقيم المحراب مكان (الثريا الكبرى). كما جعل في مؤخرته صحن صغير وصومعة واحتفظ بهذا

---

5) هذان الجامعان الاخيران هما نهاية في البساطة المطلقة وهما خاليان من كل كتابة تنم عن مؤسسهما (الهندسة المعمارية الاسلامية في المغرب مارسي ص 191).

6) أسست القرويين بعد بناء فاس بثلاثة ارباع قرن وقد اختلف في تاريخ بناء فاس. والفرد ليفي بروفنصال بحثا في الموضوع الملتبس فيه من مؤرخين كابن بكر الرازي المتوفي (عام 344 هـ) والذي يقول بأن باني فاس ادريس الأول الذي جاء الى المغرب (عام 172 هـ) ومات عام (175 هـ) وبنيت المدينة في نظره خلال هذه الفترة. ولا حظ ابن سعيد ان ادريس الاول لم يؤسس سوى عدوة الاندلس ونقل ابن الابار عن ابي الحسن النوفلي أن ادريس الثاني بنى عدوة القرويين عام 187 هـ يوجد في مكتبة باريس درهم سك بفاس عام 189 هـ اي قبل التاريخ المتداول لبناء المدينة.

الهندام المعماري إلى أن كثرت العمارات واتصل البناء في أرباض المدينة من سائر الجهات وجرى أمر زناتة بأرض المغرب (سنة 307 هـ) فأزيلت الخطبة من جامع الشرفاء لصغره وأقيمت بجامع القرويين لاتساعه وكبره وصنع له منبر من خشب الصنوبر.

وعندما دعت زناتة لعبد الرحمن الناصر ملك الأندلس وبايعه أهل فاس قام العامل (أحمد ابن أبي بكر الزناتي) بتوسيع المسجد منفقا عليه أخماس غنائم الروم» فزاد أربعة بلاطات من الغرب وخمسة من الشرق وثلاثة من الجنوب.

وفي عهد علي بن يوسف اشتريت دور كان أكثرها في ملك اليهود وزيدت في المسجد عشرة بلاطات من الصحن إلى القبلة والقبة بأعلى المحراب «بالجص المقربص الفاخر الصنعة» ورقش ذلك كله بورقة الذهب واللازورد وأصناف الأصبغة (7) وركب في الشماسات التي بجوانب القبلة أشكال متقنة من أنواع الزجاج وألوانه ثم غشيت أبواب الجامع بصفائح النحاس الأصفر بالعمل المحكم والشكل المتقن. (كل ذلك عام 533 هـ) وقد لاحظ (ابن أبي زرع) أن هذا الفن كان يبهت الناظرين فلما دخل (عبد المومن بن علي) (عام 540 هـ) خاف الفقهاء والأشياخ أن ينتقد ذلك النقش والزخرف لأن الموحدين نهجوا سياسة التقشف فغطى البناؤون النقش والتذهيب الذي فوق المحراب وحوله بالكاغد ثم لبسوا عليه بالجص وغسل عليه بالبياض (8).

---

(7) (الأنيس المطرب ج 1 ص 87).

(8) (الأنيس ج 1 ص 86).

وقد علق (جورج مارسي) على هذا الحدث فزعم أنه قصة ملفقة لتبرير البياض والفراغ الملحوظين في قبة المحراب (9) إلا أن الحفريات التي قامت بها (مصلحة الفنون الجميلة) منذ عام 1952 أكدت حكاية المؤرخ العربي، فقد كشف عن نقوش رائعة غير أنها لاتحتوي على أي توريق ذهبي، وقد لوحظ أن أصناف الأصبغة المشار إليها من طرف (القرطاس) هي الأزرق والأحمر والمغرة الصفراء، ومازالت الألوان متماسكة وفي رائق غضاضتها، ويظهر أن مزيج الأصباغ كان يحتوي على مح البيض الذهبي اللون وأن الدهان كان كامدا للتخفيف من بريق أشعة النور المنعكس من النوافذ.

فالمواد الأساسية للبناء كانت تشكل في القرن الثالث الهجري من الآجر والجص والطوب والطوابي فسور (جراوة) (10) مثلا بني بالطوب عام 257 هـ وكذلك (رقادة) بإفريقية عام 294 والبصرة الواقعة شمالي المغرب على بعد 18.5 كم شرقي سوق الأربعاء والمهدية عام 368 هـ هذا بينما استعمل البناؤون الجص والمرمر والآجر في جامع القرويين لدى تجديد بنائه على يد الأندلسي محمد بن حمدون (11).

---

(9) [illegible] (كتاب الفن الاسلامي طبعة 1926 [illegible] 1 ص 302 وقد أكد (مارسي) هذا الزعم في الكتاب الذي صنفه عام 1954 وهو «الهندسة المعمارية الإسلامية في الغرب» (ص [illegible]) الا أن الاستاذ طيراس أيد [illegible] ابن ابي زرع.

(10) تقع (جراوة) [illegible] الادريسي قرب مليلية على مسافة ستة اميال من البحر (مختصر النزهة ص 54).

(11) وبني اسواره (ابن الاشعث) عام 246 ، البيان لابن عذارى (ج 1 ص 485).

وقد أكد المؤرخ الفرنسي طيراس (12) لدى حديثه عن الفن المرابطي أن عليا بن يوسف بن تاشفين فاق والده بكثير في المؤسسات المعمارية، مع أن يوسف نفسه كان من كبار البناة والمؤسسين وقد اندثرت أعلام جميع ما أقامه من قصور ومساجد في مراكش باستثناء قبة البردعيين (قرب جامع ابن يوسف) ومسجد تلمسان (عدا منارته) ومعظم أروقة جامع القرويين الزاخر بروائع الفن الأندلسي المقتبس طبق الأصل من الفن الأندلسي بما كان ينطوي عليه في القرن الخامس الهجري من رقة ورشاقة وروعة زخرف.

وقد احتل الموحدون في تاريخ الفن الإسلامي مكانة مرموقة تفوق ما كان للمرابطين في هذا الحقل وذلك بالرغم من معارضة المهدي بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية، لبعض مظاهر هذا الفن كالموسيقى والسماع والزخارف والنقوش.

وكان ابن يوسف يقطن في (اشبيلية) التي زخرف معمارها بأبهى وأروع مما زين به حاضرة مراكش. أما ولده (يعقوب المنصور) فإن بدائعه الفنية تشهد بأنه أروع بناء في العصر الموحدي.

وبفضل الموحدين تجلى القرن السادس لبعض علماء الآثار كعصر بلغ فيه الفن الأوج في القسم الغربي من العالم الإسلامي (13).

وتبدو الهندسة المعمارية الموحدية في أجلى وأجل معالمها في مساجد مراكش وحسان (بالرباط) ومرصد الخالدة باشبيلية (14).

---

(12) تاريخ المغرب ج/ ص 252.

(13) مارسي ، الفن الإسلامي ج 1 ص 303.

(14) مقتطفات نشرها ليفي بروفنصال في مجلة هسبريس عام 1925، ص 65.

وقد أكد كل من (طيراس) و (باسي) أن (الكتبية) أجمل معبد أقامته الخلافة الإسلامية في المغرب. وأنه يعادل في جدة أسلوبه روائع (الجامع الكبير بقرطبة).

فجامع قرطبة رغم سعته، لا يتسم بنفس الطابع من التجانس والتناسق ومع ذلك فإن عددا كبيرا من رؤوس الأساطين في (الكتبية) هو من أصل أندلسي، فالأعمدة الأربعة التي تساند (قوس المحراب) من مخلفات (الفن الأموي) وتوجد أيضا في المسجد الموحدي بقصبة مراكش أعمدة أموية من الصعب وجودها ملتئمة في قرطبة نفسها.

أما (منبر الكتبية) ■ تحدث عنه (ابن مرزوق) في (مسنده) فأشار إلى ما أكده أهل الفن من جودة واتقان ترصيع (جامع قرطبة) ومسجد (الكتبية) في حين أن المشارقة لاعلم لهم بفن النقش على الخشب بدقة وأناقة. ويرجع تاريخ صنع هذا المنبر إلى (عبد المومن بن علي) (15).

ويرى كل من (طيراس وباسي) (16) أن هذا المنبر هو أجمل منبر في الغرب الإسلامي بل أبهى وأروع منبر في العالم الإسلامي أجمع ومازال قائم الذات إلى عصرنا هذا في (الكتبية) إلا أن بعض أجزائه تميل إلى التداعي.

وقد ازدهرت مظاهر الحضارة والعمران في عهد بني مرين الذين أصبحوا أقوى ملوك إفريقيا الشمالية (17) إذ بالرغم عن محتدهم الصحراوي فإنهم استطاعوا بفضل اتصالهم المزدوج بـ (بني نصر) ورثة

15/ الحلل، طبعة تونس 109.

16/ هسبريس مجلد 6 عام 1926، ص 169.

17/ راجع تاريخ افريقيا الشمالية لاندري جوليان

الحضارة الأندلسية. وبالموحدين ـ التكيف والانسياق في مجرى الحضارة تبعا للمقتضيات المدنية مع استمداد من معطيات الفكر الإسلامي والمجالي الطريفة في التجديد وقد تبلور اتجاههم في إقامة المدارس المحصنة والمساجد وقباب الأضرحة والفنادق المزخرفة والمدارس الفخمة التي أضفت على المغرب المريني طابعا خاصا من الروعة والبهاء والتي بدأت تتبلور فيها مجالي الازدواج بين الطابعين الأندلسي والمغربي في شكل جديد سمي بالفن الإسباني الموريسكي.

وبالرغم من التأثيرات الأندلسية التي وسمت هذا الفن فإنه اصطبغ بسمة خاصة إذ عوضا عما كان يذكي المهندس الأندلسي من رغبة في تحقيق التوازن بين القوى في المعالم المعمارية هدف المهندس المغربي إلى ضمان متانة الهيكل بالإضافة إلى ما كان يشعر به من حاجة إلى مزيد من الزخرفة والتنسيق وهذا هو الطابع العام الذي يتسم به مجموع الفن الإسلامي من تسطيرات ناتئة ومقربصات وتلوينات علاوة على روعة الهندام ورغما عما يتسم به هذا الفن المعماري الذي بلغ في العصر المريني أوج عنفوانه من إيغال في التوريق والتسطير والنقش مع قلة توازن بين الأجزاء وعدم جودة المواد فإن المجموع ظل ـ كما يصفه المؤرخ أندري جوليان ـ واضح المعالم متوازي النسب تتجانس نقوشه تجانسا رائعا ضمن الحيز الذي يملأه وهذا بالإضافة إلى ما انطوت عليه الألوان من دقة وجناس كاملين (18) وقد أشع الفن المريني شرقا وغربا بثروته التي لا تضاهى وروعته الطريفة الأصيلة فكان فنا أندلسيا مغربيا تتناسق عناصره في (العدوتين).

(18) تاريخ افريقيا الشمالية (ص 456).

وهذا التناسق الفني يرجع الفضل فيه إلى نشاط المهندس الأندلسي الذي كان تأثيره ملحوظا في مجموع المآثر المعمارية.

وكان للفنانين والمنتجين المغاربة صيت رائع وحظوة لا بأس بها حتى في الشرق غير أن درجة النضج التي بلغها هذا الفن كانت تنطوي على عناصر انهياره فقد استنفد كثيرا من قواه منذ عهد أبي الحسن وحال قيام الفتن دون تحقيق أعمال عمرانية كبرى بعد ذلك.

واذا كان الفن قد استطاع الصمود في نهاية العهد المريني فما ذلك إلا بفضل العناصر الأندلسية التي هاجرت إلى المغرب، بحيث أصبح المغاربة منذ عهد الوطاسيين عالة، في كثير من الفنون والحرف، على الأندلس (19) ومع ذلك فإن الفن المغربي الذي نشطت مقوماته العمرانية ظل محتفظا بجودته النادرة رغما عن انعدام الفخامة في مجاليه. ذلك أن وفرة الزخرفة وثراءها وروعتها انتظمت في إطار من الوضوح والدقة لاغبار عليه.

وفي هذه الأثناء بينما كان الوطاسيون في طفرتهم الأولى ضد بني مرين انبثقت كرد فعل لتهاون الوطاسيين في الذب عن حوزة هذا المجال الحيوي بين العدوتين - إمارة علي بن راشد منذ 901 هـ / 1495 م ولعل لجهادها دورا في تحرير بلاد الهبط وعاصمتها القصر الكبير APPIDUM NOVRIM منذ 956 هـ / 1549 وكذلك أصيلا في العام التالي ولم تحل أنذاك مواصلة الصراع ضد المغير

(19) كوندار ج 2 ص 461.

البرتغالي دون تنشيط العمران بإقامة قصبة بدور سكنها وقصر حاكمها وسجنها ومظاهر الإمارة على النسق المغربي الأندلسي.

وقد استمد بنو راشد تخطيطات العمران من روائع الفن المريني المغربي الأندلسي كما اقتبسوا مواد العمران من منطقتهم الثرية بالحجر الجيري الصلب الذي ساعد على تحصين قلعة أنشئت خصيصا كمركز لتحرير سبتة التي اتخذ منها العدو منذ عام 818هـ / 1415 م منطلقا لمد شبكة نفوذه على مجموع الشمال والواقع أن تخطيط المدينة بدأ عام 876 هـ / 1491 م على يد المجاهد الحسن بن محمد العلمي المعروف بأبي جمعة في عدوة وادي شفشاون واستكمل عمرانها من طرف ابن عمه علي بن موسى بن راشد في العدوة الأخرى فجاءت كفاس **متناسقة الحضارة في عداد مدائن المغرب** (20). قد تعززت قصبتها وأبراجها وتحصيناتها العسكرية بأبنية امتدت مع هجرة الأندلسيين إليها خاصة في العدوة الجديدة وقد امتزج التزاوج بين أبهة دار الإمارة والجامع الكبير منذ اللحظة الأولى على أن الشبه بفاس لاينحصر في المحيط الجبلي ووفرة المياه وانقسام الحضرة إلى عدوتين فحسب، بل إن نشاط الصناع والتجار نما بسرعة في أحياء سكنية ما لبثت أن اتسمت بعد بضعة عقود بتقسيمات برز من خلالها الطابع الاقتصادي والحضاري معا، فقامت حومة الأندلسيين تغطي حوالي ثلث سكان الحاضرة ولعل أبرز وجوه الشبه بين فاس وشفشاون هو هجرات الأندلسيين إليهما منذ نشأتهما الواحدة في القرن الثالث الهجري بعد وقعة الربض (ثمانمائة

---

(20) مرآة المحاسن لمحمد العربي الفاسي ـ الطبعة الحجرية بفاس ص 168.

عائلة) والثانية أواخر القرن التاسع الهجري فكانت الجالية الأندلسية مع اشراف جبل العلم أولى الفئات التي عمرت المدينة منذ عام 875 هـ عقبتها بعد نيف وعقد من السنين موجة أخرى انحدرت من غرناطة عام 888 هـ بعد أن مرت بتطوان وكانت لعلي بن راشد في غرناطة جولات وصولات في محاربة النصارى بجانب إخوانه الأندلسيين الذين التحقوا به لمواصلة الكفاح من أقرب حصن بالعدوة الجنوبية وهو شفشاون وكان المفروض أن تغرق الحاضرة الجديدة في تخطيط عسكري رصين ولكن روح الغرناطيين والعلميين الوثابة لم تنس الجانب الحضاري العمراني والاقتصادي ضمانا لنوع من الاكتفاء الذاتي في المنطقة وقد ظلت الوشيجة موصولة بين شفشاون وفاس حيث تواكب أقرباء الغرناطيين في حركة مكوكية ثلاثية مع تطوان وكانت عاصمة المولى إدريس موئل الأسر الشفشاونية العلمية بلورها بفاس الأمير مولاي إبراهيم بن علي بن راشد الذي توفي بها عام 947 هـ وقام أخوه معززا بأفواج جديدة من الأندلسيين كان لها ضلع أقوى في توسيع الأحياء والمرافق العمرانية (21).

وقد برز هذا الهيكل المعماري الرصين كوصلة بين الآثار الإسلامية في الهندسة المعمارية المغربية الأندلسية تواكبت عطاءاتها طوال قرن من الزمن (876 هـ - 969 هـ) في العهد الراشدي ثم ترعرعت عطاءاتها في عهد الشرفاء من السعديين وخاصة العلويين الذين أقاموا معالم تترك للخبراء الأثريين تشخيص معالمها في نطاق البنية المقارنة مع العصور السالفة.

(21) الحياة السياسية للأستاذ عبد القادر العافية نقلا عن تقييد لمحمد الصادق بن ريسون.

كما ركزت وحدتها البنيوية في ثالوث حضاري غرناطي فاسي شفشاون كان من مجاليها وجود أسر أندلسية بالمناطق الثلاث كقرية بنعبد الله جنوبي الأندلس ووادي بنعبد الله في شفشاون وفريق ضخم من بني أولاد بنعبد الله بفاس.

الرباط　　　　　　　　　**عبد العزيز بنعبد الله**

التوهم في اللغة

محمد ابن تاويت

كثيرا ما نصادف في المعاجم اللغوية القديمة، تخريجات في المفردات والجمل، تحمل على قاعدة «التوهم» فما هذا التوهم ؟

الحقيقة أنهم لا يلتزمون فيه حدودا معينة ثابتة. فقد يطلق ويراد به الخطأ، وقد يفسر بالغلط، وقد يعني التخيل. وإن كان لا تنكره قواعد البلاغة، في المجاز عموما، أو التشبيه مثلا :

قال عمرو بن كلثوم :

علينا البيض واليلب اليماني   وأسياف يقمن وينحنينا

فقال ابن السكيت : سمعه بعض العرب، فظن أن اليلب أجود الحديد، فقال :

ومحور أخلص من ماء اليلب

ثم قال : أي ابن السكيت : وهو خطأ، إنما قاله على التوهم.

وقال ابن دريد ، حمله على الغلط، لأن اليلب، ليس الحديد.

وهكذا نجد هذين العالمين، أحدهما يسمي الغلط، بالتوهم، والآخر يسمي الخطأ به.

وقال آخر ، وقفت على الربع أسائله

فقال السيوطي فيه ، هو أكمل عقلا من أن يسائل رسما، يعلم أنه لا يسمع ولا يعقل، لكنه تفجع لما رأى السكن رحلوا، وتوهم أنه يسائل الربع، أين انتأوا ؟

هكذا جعل هذا المجاز من قبيل التوهم، بعد أن قال في مزهره ، من سنن العرب، التوهم والإيهام، وهو أن يتوهم أحدهم شيئا، ثم يجعل ذلك كالحق... يريد كالحقيقة، التي تقابل المجاز. فيكون منه قول امرئ القيس ،

ألا أيها الليل الطويل الا انجلـــي ... بصبح وما الاصباح منك بأمثـــل
فيالك من ليل كأن نجومــــه ... بكل مغار الفتل شدت بيذبـــل

وقول الإسلامي ،

ترفع أيها القمر المنير ... ترفع هل ترى حجرا يسير

وقول الشاعرة الجزعة على صاحبها ،

فياشجر الخابور مالك مورقا ... كأنك لم تجزع على ابن طريف

وقول ذي الرمة ،

وقفت على ربع لمية ناقتي ... فما زلت أبكي حوله وأسائله

والمسألة لا تكون إلا بين متكلمين.

إلى غير ذلك من مائات وآلاف الاستعمالات، في العربية قديمها وحديثها، وفي غير العربية قديمها وحديثها، مما لا يستحق عندها أية وقفة مطلقة، لا منا ولا من غيرنا. ولا نظن أن أحداً وقفها عند قول شيكسبير :

Oh, pardon me,
Thou bleeding piece of earth

أما الخطأ فقد وقع فيه الشعراء وغيرهم، منذ الجاهلية، وفي مقدمة هؤلاء امرؤ القيس، وفي معلقته كذلك التي يقول فيها :

إذا ما الثريا في السماء تعرضت   تعرض أثناء الوشاح المفصل

فإن الثريا لا تتعرض، كما قالوا، وقد ساق القاضي الجرجاني في مقدمة كتابه «الوساطة» عشرات الأمثلة التي أخطأ فيها الجاهليون، كما فعل الآمدي في كتابه «الموازنة».

ولاشك أن المشترك بين الضدين، فيه حظ كثير من هذه الأخطاء التي ولدت هذا الاشتراك، بين الضد وضده، وألف فيها ابن الأنباري كتابه المعروف «بالأضداد»، وهو شيء لا نستبعده ولا نستغربه، فعامية مصر تستعمل فعل «راح» بمعنى ذهب، وعاميتنا كانت تستعمله بمعنى رجع أو عاد، وهو الاستعمال العربي الصحيح، ثم صارت عاميتنا، بل حتى فصحانا تقلد الاستعمال المصري الخاطئ قال النابغة :

«وصدر أراح الليل عازب همه   تضاعف فيه الحزن من كل جانب»

فالعزوب يقابل الرواح، ومنه عندنا «المراح» و«العزيب»، فلو كان قد قيض لمن يسجل هذا الاستعمال، لجعله من قبيل المشترك بين الضدين، وإن كان منبثقا من الخطأ، كما رأينا.

وأما الغلط، فهو من الكثرة في الاستعمال، لدرجة أن خصص له النحو، نوعا من البدل، سمي ببدل الغلط، أي يرفع الغلط به. والفرق بين الغلط وبين الخطأ، أن هذا يقصد إليه، والغلط لا يقصد إليه. ولهذا يستعمله الفرس بمعنى التدحرج، في «غلطيدن ـ غلط».

لنترك التوهم، الذي هو خطأ أو غلط صرف، ونتعرض لتوهم آخر يكون من روافد اللغة، ومما يستباح لنا اعتماده في الاستعمال، من ذلك :

تمكن، وتمسكن، وتمخرف.

فتمكن من الكون، ودخلت عليه ميم الظرفية، فكان منه المكان، ثم المكانة، فالمكنة، وجاء الوصف، بمكين، وتمكن من الموضع، استطاع أن يكون به ويحل فيه، محله، ثم أطلق على كل ما يتحقق فيه التملك والتسيطر والتغلب.

ولم يتحقق هذا النمو للمحل الذي هو ظرف لحل، أو مصدر له، كما في القرآن، لأنه لم يكن بذلك الإطلاق الموجود في الكون ومشتقه.

وكل ما قلناه، يمكن تطبيقه في «تمسكن» فأصله من السكون، ومنه المسكن، المحل الذي يسكن فيه، ومن هذا السكون جاءت هذه المسكنة، التي فيها الخلود إلى الأرض والرضوخ للأمر، واتصف بها الشخص، فكان المسكين، وهو أضعف من الفقير، أو العكس، على الخلاف

الوارد في الفقه، والتفسير، عند قوله تعالى ، «إنما الصدقات للفقراء والمساكين» وفي مختصر خليل، «فصل» ومصرفها فقير ومسكين وهو أحوج.

وأخيرا، التمخرق، من المخرقة، وهذه من خرق العادة، فالميم كذلك زائدة، لكنها لما لازمت، اشتق من الكلمة التي تحتويها، كما هي، فتوهم كون الميم أصلية، لا يحول دون الاستعمال، لهذه الكلمات، كما سبق الاستعمال فيها، نقول التوهم، ولكنه شق طريقه فاتبع ويشبه هذا في لزوم الميم الزائدة قولنا في العامية «ماجي» اسم فاعل من المجيء، بثبوت الميم الزائدة فيه، على توهم أنه مثل «ماشي» الذي ميمه أصلية، فقالوا ماشي ماجي، ومن ذلك «تخذ» من الاتخاذ.

فالأصل في هذا افتعال من أخذ ولما حصل الإبدال وزيادة التاء، وقع الإدغام في هذا الافتعال، ثم توهموا التاء أصلية، فقالوا تخذ فعلا ثلاثيا، فقال الليث ، تخذت مالا كسبته، ولا أحد يمكنه أن يعترض على الليث، وعلى كل من يستعمل تخذ هذه، وليدة التوهم .

وجاء في المثل «كل مجر مسر» فاستعمل مسر من السرور، كأنه من أسر، وهذا غير موجود، ولكن نعتمد المثل فنقول ، «مسر» ولا نقول «أسر» الذي ادعى به التوهم، خالق «مسر» المتقدم ذكره، كما قال ابن سيده، وزاد في هذا المكس، بنحو ،

وبلد يفضي على المنعوت ❊ يفضي كأعضاء الروى المثبوت

فكان المشبوت اسم مفعول من «شبت»، مع أن هذا لازم غير متعد. وكان حقه أن يكون مثبتا من أثبت الرباعي. فهنا عكس مسر من سر كما تقدم. وقالت العرب قطا جؤني، نسبة إلى الجون، همزوا الواو توهما، أن حركة الجيم ملقاة على الواو. فهي متحركة بالضم. والقاعدة أن الواو المضمومة لك أن تهمزها، ولم يكن في واقع الأمر، إلقاء حركة الجيم على الواو، حتى تهمز، إلا توهما، فصح لنا أن نهمزها كذلك هنا. وقرأ ابن كثير في هذا الهمز «على سؤقه» بالواو مهموزة. كأن حركة السين ألقيت عليها، فخضعت للقاعدة السالفة الذكر. وقرأ أبو عمرو «عادا لؤلى» بدل الأولى، وذلك بإلقاء ضمة اللام على الواو، ثم همزها بعد، كما يدعى بذلك التوهم.

ومن التوهم في الاعراب قراءة «وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم» بكسر أرجل. توهما انها مدخولة للباء، التي دخلت على «رؤوسكم» مدعين ان المسح يطلق على الغسل، فيكون من قبيل المشترك. ونصف القراء على هذا. ونصفهم على النصب، الذي خضع له الوجوه والأيدي، كما أرى.

فيكون «وامسحوا» مقحما بين المعطوفات. وذلك مثل الضمائر التي قد تعود على غير أقرب مذكور مثل : «ولقد مننا على موسى... وأتيناهما الكتاب المستبين» أي موسى وهرون.

وقال المصباح، عطف على محل الباء، لأن التقدير وامسحوا بعض رؤوسكم، فعطف على المقدر، على توهم وجوده، ثم قال : والعطف على

المعنى، ويسمى العطف على التوهم، كثير في كلام العرب، وقد أفاض الكلام في هذا، ونقل فيه عن الأزهري، فيما يخص الآية المذكورة .

ومن هذا قوله تعالى ، «لاتسألوا عن أشياء» بقراءة فتح الهمزة كأن الكلمة ممنوعة من الصرف، وهذا توهم فيه أن الألف هنا مثلها في صحراء وبيضاء، ونحوهما مما فيه ألف التأنيث الممدودة، مفردا، أو جمعا مثل أنصباء، وألف التأنيث هذه منحصرة في قول الخلاصة ،

لمدها فعلاء افعـــــــــلاء   مثلث العين وفعلـــــــــلاء
ثم فعالا فعللا فاعـــــــولا   وفاعلاء فعليا مفعـــــــولا
ومطلق العين فعالا وكــــــذا   مطلق فاء فعلاء أخـــــذا

فهذا التوهم يعمل به، كما عملت به القراءة القرآنية، ولا حرج، فإن القرآن، بلسان عربي مبين، يستعمل ما استعمل العرب في قديم لغتهم، وصار على ذلك العمل، وليس مطلوبا منه أن يخطئهم في استعمالهم، ولا أن يغلطهم فيه، فهو يستعمل ما استعمل كما استعمل.

ومن الغريب أن هذا التوهم أفضى أخيرا إلى توهم أفظع وأخطر، ولا وجه له، فصارت إذاعة طنجة الدولية تمنع من الصرف كل ماهو على زنة أفعال، حتى ولو لم يكن فيه همزة بعد الألف، كما هي في أنباء

وأكفاء وأصداء وأرزاء وأنداء وأعداء، بل عمموا حتى بنحو أقوال وأحوال وأصحاب وأخيار وأشرار، وانتقلت العدوى إلى الإذاعة الوطنية بالرباط، فصرنا نسمع من بعضهم هذا اللحن الفاحش، بل صرت أخشى على نفسي، لأن الاستعمال له عدوى، كعدوى الأمراض الفتاكة بالناس...

ولعل من قبيل التوهم، استعمال فعل «راء» إلى جانب «رأى»، فلا شك أن أحدهما هو الأصل. قال الشاعر :

وكل خليل «راءني» فهو قائل   من أجلك ، هذا هامة اليوم أوغد

ثم قال الشاعر الجراوي :

لو «راء» موسى ما فعلت وطارق   زريا بما لهما من الآثار

ثم قال محمد بن سعيد السوسي في نظمه المقنع :

لكن سر الله في صدق الطلب   كم «ريء» في أصحابه من العجب

وقد حاول بعضهم، مثل الراغب - في المفردات - الذي ساق البيت الأول - ثم اليوسي، في الأمثال - حيث ورد بيتان بهذا - أن يجعلوا «رأى» هو الأصل. ولكن لا حجة لهم في ذلك، فقد يكون العكس.

وفي القرآن، نجد الاستعمالين، معا، فنحو «ألم يروا» من قبيل الأول، ونحو «أراني» من قبيل الثاني وإلا لكان الأول «يرأوا» كما نقول من «نأى» ، «ألم ينأوا».

ولابن مالك منظومة في أفعال الأمر على حرف واحد، ورد فيها هذا البيت :

وإن هم لم يروا رأيي أقول لهم   «ر» الرأي مني مرياه روْء ريْ رئن

فاستعمل «يرواه من «رأى» ثم أتى بالأفعال من «راه» من حيث لم يشعر باختلاف المصدرين... على أن أوزان العروض الشعرية، قد يكون لها دخل في أحد الاستعمالين، كما نجد في الأغنية :

إن عشا عشت وإن عشتُ عشا

فحق «عشا» ـ مرتين في الشطرة ـ أن تكون «عاش» بدليل «عشْتَ» الواردة مرتين كذلك.

تطوان ابن تاويت

الدراسات العربية والإسلامية في إسبانيا الحديثة(*)

قاسم الزهيري

بالنظر إلى الدور الهام الذي لعبته الأندلس في نقل الحضارة العربية إلى الغرب في العصر الوسيط، توجد جذور متأصلة للدراسات العربية والاسلامية في إسبانيا الحديثة تتجلى في بعض ما تنتجه جامعاتها، خاصة جامعة غرناطة باعتبارها جسرا متقدما وآخر معقل حضاري عربي سقط في الأندلس بعد ما تركت هذه الحضارة آثارا باقية في مجالات المعمار واللغة والأدب والموسيقى والفن. ويرجع تاريخ هذه

(*) ستحتضن بلدية مرتدة بالإقليم الأندلسي الاسباني في بداية أبريل القادم لقاء للكتاب العرب والاسبان.

ومن بين المشاركين في هذا الملتقى الذي ينظم تحت شعار «الابداع الأدبي» الكاتب وعالم الإجتماع المغربي عبد الكبير الخطيبي والشاعر الفلسطيني محمود درويش والشاعر السوري اللبناني أدونيس والكاتب الإسباني خوان كويتسولو والشعراء خوسي فالانتي وخوسي ميخيل أولان.

وقد يكون من المناسب اعطاء نظرة وجيزة عن الدراسات العربية والاسلامية في اسبانيا المعاصرة.

الدراسات إلى أقدم العصور، بيد أنها لم تكرس بصفة رسمية إلا منذ سنة 1847 بإنشاء أول كرسي لتعليم اللغة العربية. وقد تعاقب على هذا الكرسي لحد الآن أزيد من عشرة أساتذة. وما انفكت الدراسات العربية والإسلامية في نمو وتقدم منذ نحو قرن ونصف.

لقد أنشىء أول كرسي للحضارة العربية والأنظمة الإسلامية سنة 1932 في غرناطة، استتبعها انشاء كراسي لتاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية واللغة والأدب العربي سنة 1941 في جامعة هذه المدينة وجامعتي مدريد وأليكانطي. كما أحدث فرع للدراسات العربية والإسلامية في دائرة قسم اللغات السامية. ويتوفر على التدريس هناك أزيد من عشرين أستاذا من ضمنهم ثلاثة أساتذة كرسي. وبالإضافة إلى هذا وذاك أنشئت مدرسة للأبحاث العربية في غرناطة. وكانت الغاية المتوخاة من إنشائها إحكام الإتصال بين إسبانيا الحديثة والعالم العربي. وتقوم هذه المؤسسة بنشاط ثقافي واسع سنتعرض إلى بعض جوانبه في حديثنا عن مايبذل من مجهود عام في مجال الدراسات الإسلامية. مما أتيح لنا أن نطلع عليه من خلال حضورنا في الندوة التي نظمتها اليونيسكو بغرناطة لبرمجة التبادل بين الثقافة العربية والثقافات الأخرى.

إن الكتب التي تصدر عن العالم العربي والعالم الإسلامي باللغة الإسبانية - ومعظمها في إسبانيا - تبلغ أربعمائة في السنة، في الدين والتاريخ والجغرافية والآداب وغيرها. ونظرا لوفرة الكتب التي صدرت في العقدين الأخيرين، ويعتبران فترة مليئة بالنشاط الثقافي، تعاني الأوساط الجامعية بإسبانيا صعوبات في إنجاز فهرس كامل لها لما يكلفه

المشروع من جهاز مكتبي ونفقات مطبعية. وقد بلغ عدد الكتب التي نشرها المعهد الإسباني - العربي للثقافة بمفرده زهاء سبعين مؤلفا منذ سنتين في شتى الأغراض. ولهذا المعهد مجلة بعنوان «أوراق» تصدر بالإسبانية والعربية. وتشتمل على بحوث ودراسات علمية رصينة.

تعنى المعاهد الإسبانية التي ألمحنا إليها فيما تعنى به تأهيل الباحثين في مجالي اللغة العربية والحضارة الإسلامية بشكل خاص وفي الإشراف على رسائل الماجستير والدكتورة فيهما. ولا يتسع المقام لسرد أسماء الحاصلين على الشهادتين وعناوين رسائلهم. فيكفي أن نذكر أن عدد رسائل الدكتورة المقدمة من سنة 1952 إلى 1980 بلغ خمس عشرة رسالة ، خمس منها قدمها باحثون عرب. أما رسائل الماجستير فبلغت ستين في تلك الفترة ، خمس عشرة منها قدمها طلبة عرب.

إن الدراسات العربية والإسلامية في إسبانيا بوجه عام وفي جامعة غرناطة بوجه خاص تعاني صعوبات مادية ترجع إلى اضطرار الجامعة لتوظيف ▬ كبير من الأساتذة لقليل من الطلبة. وقلة المراجع العربية والإسلامية، والإفتقار إلى المصادر والنشرات التخصصية التي تعين الطلاب على تحضير الماجستير والدكتورة. لهذا فإن ميزانية الجامعة تنوء بعبء ثقيل من جراء المحافظة على مستوى الدراسات الإسلامية والعربية. والمراجع الضرورية، خاصة منها التي تصدر عن دور النشر الأمريكية والأوروبية مكلفة للغاية. والصعوبات في اقتنائها تؤثر بشكل سلبي على سير الدراسات الإسلامية وتأهيل الطلاب. أما المراجع العربية فنادرا ماتتلقاها الكليات التي تعنى بها في إسبانيا، أو تتلقاها متأخرة.

لقد انتهزنا فرصة اللقاء الذي نظمته «اليونيسكو» منذ ثلاث سنوات في غرناطة فتحدثنا في هذه القضايا مع ثلاثة من ألمع الأساتذة الإسبانيين الذين يعنون بالثقافة العربية تدريسا وبحثا ونشرا. وهم، الأستاذ بوش فيلا مدير دائرة تاريخ الإسلام في جامعة غرناطة والأستاذ اوطراي مدير المعهد الإسباني - العربي للثقافة بمدريد والأستاذ دى ابالزا أستاذ الثقافة العربية والإسلام بجامعة اليكانطى. فشكوا لنا متاعبهم المادية في العناية بالبحوث والدراسات العربية والإسلامية ومازلنا نتلقى أخبار معاناتهم حينا بعد حين. وقد لفتنا النظر إلى هذه الحالة في حديث نشرناه بجريدة «المدينة» في المملكة العربية السعودية.

ومما يثلج الصدر أن الملحق الأسبوعي لهذه الجريدة، «التراث» نشر في العدد الثالث عشر خبرا مؤداه أن وزارة التعليم العالي في السعودية «قررت تقديم الدعم المالي والأدبي للأقسام المختلفة بالجامعات الإسبانية المعنية باللغة العربية وآدابها وعلومها وتاريخ الحضارة الإسلامية لكي تتمكن من مواجهة شتى أنواع المصاعب والمشاق التي تعترض سبيلها وتقوم بتأدية مهامها وأهدافها بشكل فعال».

وجاء هذا الدعم استجابة للنداء الذي وجه في أعقاب انعقاد ندوة غرناطة التي أشرنا إليها.

لقد شارك في هذه الندوة مالا يقل عن عشرين خبيرا يمثلون إفريقيا وأوروبا وآسيا وأمريكا الجنوبية. وكلهم يهتمون بتعاون الثقافات ولهم اتصال وثيق بالثقافة العربية. واسترعى انتباهنا بالخصوص اهتمام

الأوساط العلمية في أقطار أمريكا اللاتينية والمهاجر العربية هناك بالثقافة العربية والإسلامية. وقد مثل هذه الأقطار أساتذة مبرزون أسهموا ببحوث قيمة كانت محور مداولات في منتهى الفائدة. وقد تحدثوا جميعا عن الطرق والوسائل العلمية والتقنية لتنسيق التبادل ما بين الثقافة العربية والثقافات الأخرى. وكانوا يتحدثون حديث الموقنين بفائدة هذا التبادل الثقافي خاصة وهم ينطلقون من انجازات حققوها في هذا المضمار.

وكان اجتماع غرناطة الأول من سلسلة اجتماعات متشابهة لاعداد خطة عشرية تستهدف ربط علاقات تبادل وتلاقح بين الثقافة العربية والثقافات الأخرى ـ خاصة الثقافة الأيبيرية ـ تمشيا مع أهداف اليونيسكو الرامية إلى تحقيق السلام والوئام بين البشر على اختلاف ألسنته وألوانه والاحترام المتبادل لطرق تفكيره وأنماط حياته.

إن لقاء غرناطة جاء منسجما مع ما تقوم به الجامعات الإسبانية من بحوث ودراسات عربية وإسلامية ومكملا للجهود الثقافية التي قام بها أكابر المستشرقين الإسبانيين من أمثال ميجيل اسين بالاثيوس وارتيجا أي جاست وغارسيا غومث وكونزاليس بالنسيا. وما قام به الباحثون العرب من أمثال الأساتذة محمد المختار العبادي ومحمد عبد الله عنان وحسين مؤنس والطاهر أحمد مكي وكثير ممن لا يتسع هذا المقام لذكرهم. والجدير بالاشارة في هذا الصدد أن المفكر الفرنسي الكبير روجي غارودي الذي مافتئ يدعو إلى «حوار الحضارات» في كتابه الذي يحمل هذا العنوان وكتابه «نداء إلى الأحياء» ومؤلفاته الأخرى عن الإسلام

جاد في انشاء مركز إسلامي بغرناطة بعد ماشرح الله صدره للعقيدة السمحة.

فالمؤمل أن تواصل هذه اليهود وتتوثق الصلات بين الجهات الثقافية العربية والإسلامية على إختلافها مع الجهات الإسبانية المعناة بحضارة العرب والإسلام وتدعمها حتى تستعيد الأندلس دور الريادة الذي قامت به طوال سبعة قرون خلت.

الرباط　　　　　　　　قاسم الزهيري

لمحة عن
المصادر العربية القديمة لدراسة الصوت

عبد العلي الودغيري

مدخـــل :

إذا نحن استثنينا المؤلفات التي وضعها علماء التجويد، والتي تدور كل مباحثها حول موضوعين رئيسيين هما : مخارج الحروف، وصفاتها في العربية، فإننا لانجد ـ حسب علمنا ـ أحدا من العرب قد ألف كتابا متخصصا في هذا الفرع الهام من فروع علم اللغة وهو علم الأصوات، اللهم ما كان من رسالة ابن سينا المسماة (أسباب حدوث الحروف) وهي واقعة في صفحات قليلة، ومن كتاب ابن جني المسمى (سر صناعة الأعراب) الذي يمكن وصف جل مباحثه بأنها تدور حول دراسة الصوت، وما عدا ذلك فإن على الدارس اللغوي الحديث أن يعود إلى كتب النحاة والصرفيين والقراء والمعجميين والبلاغيين وفقهاء اللغة وغيرهم إذا أراد أن يتعرف على جهود العرب القدامى في هذا الموضوع.

على أنه من الثابت الأكيد أن الاهتمام بدراسة الأصوات قد نشأ عند العرب مرتبطا بالدراسات القرآنية منذ القرن الأول الهجري، وربما كانت محاولة أبي الأسود الدؤلي (ت 69 هـ) لوضع علامات الشكل على ألفاظ المصحف هي أول خطوة خطاها العرب في هذا الاتجاه. قال الداني (ت 544 هـ) في كتابه (المحكم في نقط المصاحف) إن أبا الأسود قد اختار رجلا من عبد القيس فقال له : «خذ المصحف وصبغا يخالف لون المداد، (1) فإذا فتحت شفتي فانقط واحدة فوق الحرف وإذا ضممتها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف (2) وإذا كسرتها فاجعل النقطة في أسفله، فإن أتبعت شيئا من هذه الحركات غنة (3) فانقط نقطتين. فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره، ثم وضع «المختصر» المنسوب إليه في ذلك».

تلك كانت أول محاولة صوتية تهدف إلى ضبط طريقة نطق الحروف بوضع علامات تدل على الحركات القصيرة، وكانت هذه العلامات عبارة عن نقط (4) ذات لون مخالف للون المداد الذي تكتب به

---

(1) أي المداد الذي كتب به القرآن.
(2) أي الجانب الأيسر من الحرف.
(3) التنوين.
(4) لعل العربية قد تأثرت في ذلك بالسريانية التي كانت تعبر عن هذه الحركات القصيرة بالنقط تماما مثلما فعل أبو الأسود (انظر الكتابة العربية والسامية للدكتور رمزي بعلبكي ص ١٤٤). وقد زعم بعضهم أن أبا الأسود كان على معرفة بالسريانية وإن لم تثبت ذلك أدلة (انظر أبو الأسود الدؤلي للدكتور فتحي الدجني ص ٤٠) ومنهم من اعتقد أن نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر ربما كانا من أصل سرياني، وهناك أيضا ما يستأنس به في هذا المجال وهو وجود تشابه بين العربية والسريانية في تسمية الصوائت (الفتح - الرفع - الكسر) (انظر الكتابة العربية والسريانية ص ٢٨٣).

الحروف. ثم جاءت بعد ذلك محاولة أخرى لوضع علامات تدل على الاعجام (النقط) قام بها نصر بن عاصم الليثي أو يحيى بن يعمر - على خلاف في الموضوع - وكلاهما من تلاميذ أبي الأسود. وكل ذلك تم خلال القرن الأول للهجرة.

وحين أتى القرن الثاني قام الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175 هـ) بتطوير الخطوة الأولى التي حاولها أبو الأسود بأن وضع للحركات الصوتية القصيرة علامات جديدة مأخوذة من صور الحروف. فالفتحة ألف مضجعة فوق الحرف، والضمة واو صغيرة الصورة في أعلاه، والكسرة ياء مردودة تحته. ولم يكتف الخليل بذلك. بل وضع للصوت الشديد علامة خاصة لم تكن معروفة من قبل، وهي عبارة عن حرف (ش) المأخوذ من أول كلمة (شديد). كما وضع علامة للصوت الخفيف وهي عبارة عن حرف (خ) المأخوذ من أول كلمة خفيف. والصوت الخفيف - كما يعرفه الداني - هو المختلف فيه بالتشديد والتخفيف والذي يخاف أن يشدده من لا معرفة له (5). وقد تحولت هذه العلامة عند الأندلسيين فيما بعد إلى جرة أو مطة تشبه ألفا مضجعة (6). غير أن أهل المدينة من القراء كانوا يضعون للصوت الخفيف علامة أخرى هي عبارة عن دارة حمراء تكتب فوق الحرف وهي نفس العلامة التي كانوا يضعونها على الصوت الساكن. قال الداني رواية عن قالون : «في مصاحف أهل المدينة ما كان من حرف مخفف فعليه دارة حمراء. وإن كان حرفا مسكنا

---

(5) المحكم في نقط المصاحف للداني ص 51.

(6) نفسه ص : 51 - 52.

فكذلك أيضاء (7). ويعتقد أحد الدارسين المحدثين أن علامة السكون المعمول بها اليوم إنما هي تطور لحرف الخاء الذي وضعه الخليل (8). أما أبو عمرو الداني فيذهب إلى أن هذه الدارة الدالة على السكون والخفة أخذت من الصفر المستعمل في الحساب. يقول : «وهذه الدارة التي تجعل على الحروف الزوائد وعلى الحروف المخففة هي الصفر اللطيف الذي يجعله أهل الحساب على العدد المعدوم في حساب القبار دلالة على عدمه لعدم الحرف الزائد في النطق وعدم التشديد في الحرف المخفف سواء. فمن الصفر أخذت الدارة وهو أصلها» (9).

على أن بعض أهل العربية كان يستعمل علامة أخرى بدل تلك الدارة وبدل حرف الخاء الذي استعمله الخليل وهي عبارة عن حرف (هـ) المأخوذة من هاء الوقف التي يلزم فيه تسكين المتحرك (10).

وكما خولف الخليل في علامة الخفة والسكون خولف كذلك في علامته التي وضعها رمزا للشدة فكان بعضهم يضع حرف (د) بدل حرف (ش) الخليلي (11).

ومما وضعه الخليل كذلك تلك العلامة الدالة على الهمز (12) وهي عبارة عن رأس العين (ء) التي يوضع فوق حرف من حروف المد

(7) نفس المصدر ص : 51.
(8) فصول في فقه اللغة لرمضان عبد التواب ص : 198.
(9) المحكم ص : 159 - 160.
(10) نفسه ص : 52.
(11) نفسه ص : 50.
(12) نفسه ص : 6.

الثلاثة (و ـ ا ـ ي) أما قبل ذلك فكانت الهمزة ترسم في صورة ألف (13) (مثل ـ سال ـ قرا ـ في سأل وقرأ) ولما كان الحجازيون يسهلون الهمزة ولا يحققونها مثل لهجة تميم، فقد كان من الضروري أن تحول في مثل : (سئل ـ ويؤمن) إلى ياء أو واو (أي ـ سيل ويومن) ولذلك قال ابن جني : «اعلم أن الألف التي في أول حروف المعجم هي صورة الهمزة، وإنما كتبت الهمزة واوا مرة وياء أخرى على مذهب أهل الحجاز في التخفيف. ولو أريد تحقيقها ألبتة لوجب أن تكتب ألفا على كل حال» (14). وهكذا وضع الخليل حلا لهذه المعضلة التي كان يشكو منها الخط العربي. فأضيف بذلك رمز جديد إلى لائحة الأبجدية الصوتية العربية. أما لماذا اختير رأس العين للدلالة على مكان الهمزة فيفسره الداني بأن موضع الهمزة من الكلمة «يمتحن بالعين، فحيثما استقرت العين فهو موضع الهمزة، وقد اختيرت لتؤدي هذه الوظيفة دون سواها من حروف الحلق لأن ذلك ـ كما يقول ـ كان : «لمعنى في العين أوجب لها التخصيص وهو كونها أكثر حروف المعجم ورودا في المنطق وتكررا في اللفظ. فجعلت للامتحان لخفتها وقرب تناولها ولتناسب وكيد أيضا بينها وبين الهمزة. وهو اجتماعهما دون غيرهما من حروف الحلق في الجهر الذي هو الاعلان. والشدة التي هي ارتفاع الصوت بالحرف. وكون العين أول حرف من المخرج الثاني من الحلق كما أن الهمزة أول حرف من المخرج الأول منه» (15).

---

(13) سر صناعة الاعراب ، 1 / 46. وهذا ما جعل الكثيرين يسمون الالف همزة والهمزة الف.

(14) نفسه ، 1 / 46.

(15) المحكم ص ، 146 ـ 147.

ونحن قد تعمدنا أن نسوق هنا كلام الداني في محاولة تفسير السبب الذي من أجله اختار الخليل بن أحمد صورة العين ليرمز بها إلى الهمزة (16). لنحاول أن نربط بين هذا الاختيار وبين اختياره اسم (العين) ليكون علما على معجمه الكبير الذي يعد أول معجم شامل ألف في اللغة العربية. وقد كان مرتبا حسب مخارج الصوت كما هو معروف. فنحن نتساءل لماذا لم يطلق الخليل اسم (الهمزة) مثلا ـ وهي عنده كما عند تلميذه سيبويه أول صوت يخرج من أقصى الحلق ـ أو اسم (الحاء) أو (الهاء). وهما كذلك من حروف الحلق ؟ فهل كان ذلك السبب أيضا كامنا فيما قاله الداني ؟ وهو أن حرف العين يمتاز بكونه أكثر الحروف دورانا في العربية (17) ثم يزيد على هذه الميزة التي ينفرد بها دون سائر الحروف شيئين آخرين يشترك فيهما مع الهمزة المرشحة بدورها لتحتل هذه المكانة التي احتلتها العين. وأعني بهما ـ ماقاله صاحب المحكم ـ سابقا :

1 ـ اجتماع العين مع الهمزة في الجهر والشدة دون سائر الحروف.

2 ـ كون العين أول حرف من المخرج الثاني للحلق. والهمزة أول حرف من المخرج الأول منه. وهذا يعني أنهما متقاربان مخرجا.

---

(16) يذهب الدكتور كمال محمد بشر الى ان لفظ (الهمزة) جاء متأخرا وان عرف في عصر الخليل او قبله بقليل. واما قبل هذه المرحلة فان الهمزة كان يعبر عنها بلفظ (نبر) فهو يرى ان اللفظ الاخير هو اسبق وجودا من الاول (دراسات في علم اللغة ـ ق 1 ص : 61 ـ 62).

(17) أثبتت احصائيات الدكتور علي حلمي موسى ان اكثر الحروف ترددا في الجذور الثلاثية والرباعية العربية هو حرف الراء. انظر كتابه : (احصائيات جذور [illegible] لسان العرب باستخدام الكمبيوتر) الكويت 1972 على ان الداني نفسه ذكر في موضع اخر من كتابه ان الالف هي اكثر الحروف ترددا في العربية (ص 28) نافيا بذلك رايه السابق.

والواقع أن سبب اختيار الخليل اسم (العين) ليكون عنوان كتابه المذكور هو بكل بساطة أن حرف العين كان عنده ـ من حيث الكتابة لا من حيث النطق ـ هو أول رمز موضوع في قائمة الرموز الكتابية للحروف الحلقية تتلوها في الترتيب، الحاء، فالهاء، فالخاء، فالغين. والحروف الحلقية هي الحروف التي تتصدر الأبجدية العربية حسب الترتيب الصوتي الذي كان الخليل أيضا هو أول من فكر فيه وطبقه. فهو قد سمى كتابه باسم أول حرف من حروف العربية وبأول باب من أبواب هذا الكتاب. أما الهمزة فقد استبعدها لأنها في نظره، في الهواء، لم يكن لها حيز تنسب إليه، (18) أي ليست لها صورة مستقرة لأنها كانت ترسم على الألف أو غيره من حروف العلة الثلاثة. وذلك ما ذهب إليه المبرد (19) أيضا. هذا مع اعترافه أن مخرجها من أقصى الحلق أي قبل العين (20). وهذا معناه أن الخليل وغيره من القدماء كانوا يخلطون بين مستويين لا بد من التفريق بينهما في نظر الدرس اللغوي الحديث، مستوى النطق ومستوى الكتابة (21). فالهمزة لما كانت تفتقر إلى حيز خاص بها في الرسم، استبعدها الخليل، ولكنه نسي أنها تنطق ولذلك لا ينبغي إهمالها. ونحن لا يهمنا هنا ما إذا كان الرجل قد أصاب أو أخطأ بقدرما يهمنا إثبات واقع نلمسه من خلال الطريقة التي سلكها في كتابه العين.

(18) العين ، 1 / 59 تحقيق درويش.
(19) دراسات في علم اللغة ق 1 ص ، 90 كمال محمد بشر.
(20) لأنها أول حرف من المخرج الأول من الحلق كما ذكر الداني فيما سبق. وانظر كتاب العين ج 1 ص ، 92 ـ 93.
(21) كمال محمد بشر ، دراسات في علم اللغة العام ق 1 ص ، 91.

وهذا التعليل نفسه هو الذي يمكن أن نجعله سببا لاختياره حرف العين رسما للهمزة التي كان القراء يرمزون لها بنقطة صفراء كما هي طريقة أهل المدينة، أو نقطة حمراء كما هي طريقة أهل العراق (22). فقد استعار لهذه الهمزة صورة أول حرف من الأبجدية الصوتية (المكتوبة لا المنطوقة)، وكأنه بذلك لم يرد أن يخترع رمزا جديدا من شأنه أن يدخل تغيرا جذريا على هذه الأبجدية بإضافة شكل غريب على ما تعارف عليه الناس، لأنها ـ أي الأبجدية العربية ـ كانت قد شاعت وانتشر استعمالها. ولكنه مع ذلك ومهما كان الأمر قد أضاف إلى عدد الرموز العربية رمزا لم يكن قبله، فأصبح عددها تسعة وعشرين بدل ثمانية وعشرين فقط.

والمهم في كل هذا هو أن نربط بين حلقتين من تفكير الخليل وندخلهما في منظومة واحدة، ونقصد بالحلقة الأولى اختياره لرأس حرف العين رمزا للهمزة، ونقصد بالحلقة الثانية اختياره حرف العين ليكون علما على معجمه الذي ألفه حسب الترتيب الصوتي، ذلك أن الحلقتين معا يجمعهما منطلق واحد وينتظمان في منظومة واحدة.

ولن نتعرض هنا إلى ما صنعه الخليل في كتابه (العين)، ولا إلى دراسته الصوتية التي بنى عليها ذلك المعجم، ومع ذلك فلابد من القول هنا إن بناء هذا المعجم على هذه الطريقة الصوتية، إنما جاء ثمرة للجهود التي بذلها العرب منذ عصر أبي الأسود. وسنعود لهذه النقطة في موضع لاحق.

---

(22) المحكم ص : 147.

ولنعد الآن إلى فكرة حركات الشكل أو الصوائت القصيرة كما تسمى اليوم في اصطلاح الصوتيين، وهي الفكرة التي خطا فيها أبو الأسود الدؤلي خطوته الأولى فجاء الخليل ليطورها إلى شكلها الحالي، لنرى أن هذا الأخير ربما كان بذلك قد تنبه إلى شيء خطير وهو أن الفتحة والكسرة والضمة إنما هي أبعاض من ألف المد وواوه ويائه. فلذلك رمز لها بألف قصيرة، وواو قصيرة، وياء قصيرة. وهذا ما نجد ابن جني يصرح به فيما بعد فيقول: «اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين وهي الألف والياء والواو. فكما أن هذه الحروف ثلاثة فكذلك الحركات ثلاث، وهي الفتحة والكسرة والضمة. فالفتحة بعض الالف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو» (23). فلقد كان عمل الخليل إذن هو الذي أوحى إلى ابن جني وغيره من اللغويين العرب أن يقولوا مثل هذا الكلام. وهذا ما يعززه البحث اللغوي الحديث الذي يذهب إلى أن الفرق بين الحركات القصيرة (حركات الشكل) والحركات الطويلة (حروف المد واللين) إنما هو فرق في الكمية والزمن فقط (24) وهكذا فإن الفرق بين كلمة (يدعو) وكلمة (لم يدْعُ) هو فرق في كمية الصوت وزمنه، وليس لأن الكلمة الثانية قد حذف منها حرف علة بسبب أداة الجزم. كما أن الفرق بين (ضَرَبَ) و (ضارَبَ) هو فرق كذلك في كمية الصوت وليس لأن الكلمة الثانية مزيدة بحرف كما ذهب النحاة العرب. وهذا ما لم ينتبه إليه القدامى من لغويينا العرب، كما لم ينتبهوا حين وضعوا قواعد العروض إلى أن هناك فرقا صوتيا بين (لَمْ) و (لا) وما

(23) سر الصناعة 1 : 19.

(24) فصول في فقه اللغة لعبد التواب ص : 365.

أشبههما إذ اعتبروا اللفظين معا مؤلفين من حركة وسكون. أي أنهما متساويان في كمية الصوت، مع أن صوت اللفظ الثاني هو أطول مسافة وزمنا من الأول (25). وعلى كل حال، لقد وضع الخليل - حين طور حركات الشكل إلى ما هي عليه اليوم - يده على أول الخيط الذي كان على العرب بعده أن يمسكوه حتى يصلوا إلى نهايته. ولكنهم وقفوا عند مرحلة معينة.

على أننا إذا نظرنا إلى هذا الصنيع الذي أقدم عليه أبو الأسود ثم الخليل، من زاوية أخرى، فسنجدهما بلاشك قد وصلا بالخط العربي إلى مرحلة جديدة لم يكن يعرفها من قبل. ذلك أن الباحثين في تاريخ الكتابة العربية والسامية قد أثبتوا أن اللغة العربية كانت في بداية الأمر، شأنها في ذلك شأن أخواتها الساميات، لاتكتب إلا الأصوات الصامتة، consonnes بمراعاة أصول الكلمة في الاشتقاق دون غيرها (26). وعند النطق فقط تضاف الصوائت، ثم تطورت بعد ذلك إلى مرحلة ثانية استعملت فيها الصوائت الطويلة (حروف المد واللين) في نظام الكتابة إلى جانب الصوامت (27). أما الصوائت القصيرة فلم تستعمل في هذه المرحلة أيضا. وقد جاء الإسلام فوجد الكتابة العربية ما تزال في بداية الطريق من هذه المرحلة الثانية ولم يتم استيعابها نهائيا. وهنا ما يفسر في نظر هؤلاء الباحثين وجود كلمات في المصحف العثماني تكتب خالية من حروف المد مثل (اسمعيل - السموت ... الخ). وإلى اليوم ما يزال الخط العربي يحتفظ برواسب المرحلة الأولى، إذ ما نزال

---

(25) نفسه ص : 464.

(26) نمثل لذلك بلفظ (كاتب) الذي كانت ترسمه على هذا النحو (KTB) عاريا من حركات الشكل والف المد.

(27) فاصبح بالامكان رسم (كاتب) على هذا النحو : Kātb —

نكتب (الله ـ هذا ـ هذه ـ أولئك ـ لكن..) بدون مد. أما المرحلة الثالثة التي تطور إليها الخط العربي فهي التي كتب تاريخها أبو الأسود والخليل بن أحمد حين أدخلا علامات جديدة تدل على الحركات القصيرة. ولكن العربية بعد ذلك سرعان ما تخلت عن حركات الشكل لتعود إلى الوراء (28) أي إلى مرحلة ما قبل ظهور الصوائت القصيرة. وهو شيء لايحتاج في إثباته إلى أكثر من إلقاء نظرة على المخطوطات العربية عبر العصور، وإلى المطبوعات الحديثة. فهي في جملتها قد تخلت عن حركات الشكل إلا عند الضرورة. وهذا من جملة الأسباب القوية التي دعت إلى التفكير في إصلاح الخط العربي وادخال هذه الصوائت في بنية الكلمة بحيث لاتبقى أشبه شيء بالقبعات الزائدة.

وشيء آخر صنعه الخليل بن أحمد ـ في جملة ماصنعه لضبط أصوات العربية وطريقة نطقها ـ هو العلامة الدالة على موضع الرَّوْم والاشمام في بعض الأصوات (29). ذكر ذلك أبو عمرو الداني ولكنه لم يفسر لنا شكل هذا الرمز الجديد. أما القراء فكانَ لهم رمز خاص هو عبارة عن نقطة بلون معين توضع في مكان الروم أو الاشمام (30).

---

(28) انظر في كل هذا: (الكتابة العربية والسامية) للدكتور رمزي بعلبكي، الفصل العاشر.

(29) المحكم: ص 6.

(30) يفسر ابن الجزري (الروم) بانه عند القراء النطق ببعض الحركة وعند النحاة النطق بالحركة بصوت خفي وهو بذلك لا يختلف عن الاختلاس والاخفاء.

واما (الاشمام) فهو عبارة عن الاشارة الى الحركة من غير تصويت اي انه اقل من الروم. وذكر ان الكوفيين ربما عكسوا الامر فاطلقوا على الاشمام روما، وعلى الروم اشماما. وقد رد على الجوهري الذي ذهب في صحاحه الى كون الاشمام هو اشمام الحرف الضمة او الكسرة بان ذلك غير معروف عند القراء، (انظر النشر في القراءات العشر: 121/2).

هذه هي أول قضية شغلت أذهان العرب خلال مرحلة تأسيس الدراسة الصوتية، وهي خطوة أساسية لما ترتب عليها من قضايا أخرى، ولذلك تتبعنا خيوطها منذ أبي الأسود الدؤلي إلى أن اكتملت على يد الخليل بن أحمد، على أنه ينبغي ألا يفهم القارىء أن هذه الخطوة المتمثلة في :

ـ ضبط قائمة الأصوات الأساسية Phonèmes الخاصة بالعربية الفصحى (وهي لائحة الابجدية الصوتية) ضبطا نهائيا بزيادة صوت الهمزة.

ـ وضع علامات الاعجام التي ترفع اللبس الحادث من الرسم المتشابه لكثير من الحروف.

ـ وضع علامات كتابية خاصة بالمصوتات القصيرة (وهي علامات الشكل).

ـ وضع علامات كتابية أخرى خاصة ببعض التغيرات الصوتية الطارئة على الأصوات الأساسية (مثل الروم والاشمام والامالة .. الخ).

كانت وحدها تمثل حصيلة ما توصل إليه العرب خلال هذه المرحلة الممتدة على طول قرنين من الزمان، بل لابد من القول إنها كانت فقط خطوة أولى تلتها بعد ذلك خطوات، وقضية تبعتها قضايا أخرى، ومجموع ذلك كله هو حصيلة هذه المرحلة الهامة التي تركت بصماتها المنهجية واضحة على مراحل الدراسة الصوتية التي عرفها العرب بعد القرن الثاني. ففي القرنين الأولين، وإلى جانب ما سبق، كانت كثير

من القضايا قد تبلورت في أذهان العرب ودراساتهم، نذكر منها على سبيل المثال :

ـ اكتشاف الجهاز الصوتي ـ ولو بكيفية غير تامة ـ الذي على أساسه تم ترتيب أصوات العربية حسب مخارجها وصفاتها.

ـ التنبه إلى وجود أصوات جزئية (صويتات) ، (Allophones) إلى جانب الأصوات الأساسية، على حد ما هو موجود في كتاب سيبويه (ت 180 هـ) وهو كتاب يعتبر تلخيصا لجهود العرب خلال القرنين الأولين.

ـ التنبه إلى كثير من القوانين الصوتية التي هي بمثابة استنتاجات مستنبطة من ملاحظات النحاة لما يطرأ على الأصوات العربية من تغيرات نتيجة تركيب بعضها مع بعض، وهي القوانين الخاصة بالادغام، والقلب، والابدال، وغيرها. واشتغال النحاة بهذه المسائل هو الذي أدى ـ منذ المرحلة الأولى ـ إلى خلطهم بين المستوى الصوتي والمستوى التركيبي ؛

وضع المصطلحات الخاصة بهذه القوانين، وهي مصطلحات أسهم في وضعها وتداولها النحاة والقراء والمشتغلون بالاداء (التجويد).

ـ الاستفادة من ترتيب الحروف حسب المخارج في ترتيب مداخل أول معجم عربي شامل، وتعتبر قائمة الخليل بن أحمد هي أقدم القوائم التي وصلت إلينا في ترتيب هذه الحروف.

فإذا طويت هذه المرحلة التأسيسية، جاءت خطوات أخرى تقدم خلالها البحث الصوتي حاولت كثير من العلوم الاستفادة منه. وهذا ما يبرر قيام هذه الدراسة التي غايتها تعريف الباحث الحديث بالمصادر المتعددة التخصصات التي من خلالها جميعها يستطيع الالمام بجهود العرب في الموضوع، وتقويم هذه الجهود في كليتها. ونحن في محاولتنا للتعرف على طبيعة هذه المباحث عند كل فئة من العلماء سنكتفي بالإشارة إلى المظان، والتمثيل لكل فئة بأشهر المؤلفات وأهمها. أما غير المظان من المصادر، فلن نتعرض لها لقلة الفائدة التي تجنى منها أولا، ولصعوبة استقصائها ثانيا.

كتـــاب ابـن جنـــي

في اعتقادي أن كتاب (سر صناعة الاعراب) الذي ألفه عبقري العربية أبو الفتح عثمان بن جني (ت 392 هـ) (31) هو أقدم كتاب وصل إلينا من مصادرنا القديمة المتخصصة في دراسة الصوت (32) رغم أن صاحبه قد جاء فيه باستطرادات كثيرة أفضت به إلى مباحث نحوية

---

(31) طبع الجزء الاول منه بمصر سنة 1954 بتحقيق مصطفى السقا وزملائه.

(32) في كتاب (المزهر) للسيوطي ورد النقل مرات عن كتاب منسوب لابن السكيت (يعقوب ابن اسحاق ■ 243 هـ) بعنوان : (كتاب الاصوات). الا اننا لا نعرف موضوعه على وجه التحديد : هل هو من قبيل الدراسات الصوتية ام من قبيل الدراسات المعجمية ؟ والظاهر من النصوص القصيرة التي استشهد بها السيوطي ان الكتاب من نوع الرسائل اللغوية المؤلفة حسب الموضوعات، وان ابن السكيت قد جمع فيه الالفاظ العربية التي تقال في تسمية سائر الاصوات الانسانية والحيوانية وغيرها وكل ما يندرج تحت ذلك من اسماء وافعال وصفات.

وصرفية. إذ لم تكن هذه الاستطرادات تمثل الهدف من تأليف الكتاب بل هي من مباحثه الثانوية. وهذا ما يقرره أيضا محققو الكتاب بما نصه ، «وقفنا مترددين حينا في هذا الكتاب ، إلى أي فن من فنون العربية ننسبه ؟ ولم يتجل لنا وجه الحق فيه إلا بعد نظر وتأمل، حتى استطعنا أن نقرر أن هذا الكتاب دراسة صوتية لغوية لحروف المباني التسعة والعشرين التي بوب لها كتابه، وأن كل ما عدا هذا من مباحث النحو دخيل على موضوعه».

أما ابن جني فهو يذكر بدوره صنيعه في كتابه فيقول ، «... أن أضع كتابا يشتمل على جميع أحكام حروف المعجم وأحوال كل حرف منها وكيف مواقعه في كلام العرب، وأن أتقى القول في ذلك (...) وأذكر أحوال هذه الحروف في مخارجها ومدارجها، وانقسام أصنافها، وأحكام مجهورها ومهموسها، وشديدها ورخوها، وصحيحها ومعتلها، ومطبقها ومنفتحها، وساكنها ومتحركها، ومضغوطها ومهتوتها، ومنحرفها ومشربها، ومستويها ومكررها، ومستعليها ومنخفضها، إلى غير ذلك من أجناسها، وأذكر فرق ما بين الحركة والحرف، وأين محل الحركة من الحرف ، هل هي قبله أو معه أو بعده ؟ وأذكر أيضا الحروف التي هي فروع مستحسنة، والحروف التي هي فروع مستقبحة، والحركات التي هي فروع متولدة عن الحركات، كتفرع الحروف عن الحروف، وأذكر أيضا ما كان من الحروف في حال سكونه له مخرج ما، فإذا حرك أقلقته الحركة، وأزالته عن محله في حال سكونه، وأذكر أيضا أحوال هذه الحروف في أشكالها، والغرض في وضع واضعها، وكيف ألفاظها مادامت أصواتا مقطعة ثم كيف ألفاظها إذا صارت أسماء معربة، وما الذي يتوالى فيه إعلاله بعد

نقله مما يبقى بعد ذلك من الصحة على قديم حاله. وما يمكن تركبه ومجاورته من هذه الحروف، وما لا يمكن ذلك فيه وما يحسن وما يقبح فيه ما ذكرنا. ثم أفرد فيما بعد لكل حرف منها بابا أغترق فيه ذكر أحواله وتصرفه في الكلام من أصليته وزيادته، وصحته وعلته، وقلبه إلى غيره، وقلب غيره إليه...)) فهذا التوضيح الذي قدمه المؤلف هو خير ما يلخص موضوع الكتاب وطبيعته ويعرف بمدى تعمقه في دراسة الصوت. ونحن يمكن أن نقسم موضوعاته إلى قسمين :

القسم الأول : تعرض فيه، إلى ذكر الأصول العامة للاصوات العربية، ففرق بين الصوت والحرف، ووصف الجهاز الصوتي ومخارج الحروف وصفا دقيقا يكاد يكون تشريحيا. وبين الصفات العامة لهذه الحروف وما تنقسم إليه من أقسام. وما يعرض للصوت في بنية الكلمة من تغير يؤدي إلى إعلاله أو إبداله أو إدغامه أو نقله أو حذفه. وكيف تكون فصاحة اللفظ المفرد راجعة إلى طريقة خاصة في تأليف الأصوات بعضها مع بعض وغير ذلك من الأمور الجزئية الأخرى.

القسم الثاني : وفيه بسط القول عن خصائص وأحوال كل حرف من حروف العربية التسعة والعشرين، مركزا على صفاتها العامة ثم أحوالها الخاصة. وفيه يتعرض إلى نصيب هذا الحرف أو ذلك من تغيرات تقتضيها القوانين الصوتية، القمينة بالبحث والتأمل في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة.

والواقع أن ابن جنى قد استخدم في هذا الكتاب ما نعرفه عنه من تعمق في البحث وامتلاك لاسرار العربية ارتفعا به كثيرا عن مستوى

المحاولات الأولية والمختصرة التي كتبها سابقوه في هذا المجال. والتي نجدها موزعة بين كتب النحو والبلاغة والقراءة وغيرها. ونظرا لأن نتائج دراسته هذه لم يعالجها العرب القدامى بعده بالتفصيل والنقد والشرح والبحث مثلما عالجوا غيرها من الدراسات. فقد ظلت حتى عصرنا الحاضر تمثل قمة ما وصل إليه تراثنا في مجال البحوث الصوتية. ولو لم يقف العرب عند حدودها لكانوا قد بلغوا في أمرها شأوا بعيدا. ولما كان هذا المصدر معروفا مشهورا بين دارسي العربية. بحيث استفاد منه كل من تعرض لجهود القدامى في مجال الصوت. وخصه بعضهم بدراسات مفردة. لم نجد داعيا لأن نقول فيه أكثر مما قلناه.

كتــــاب ابن سينـــا

بعد ابن جني نجد رسالة صغيرة طبعت بإيران سنة 1333 هـ في 25 صفحة من القطع الصغير بعنوان : (مخارج الحروف أو أسباب حدوث الحروف) وهي من تأليف الطبيب والفيلسوف المشهور أبي علي بن سينا (ت 428 هـ) ولكنها على صغرها ذات قيمة فريدة. إذ نهج فيها صاحبها نهجا جديدا في التأليف. وذكر أمورا لا يمكن صدورها إلا عن طبيب مثله اشتغل بالتشريح، وفيلسوف شغلته كثير من الأسئلة عن طبيعة الصوت. وكيف يحدث. وكيف يتألف الكلام. فحاول أن يجيب عنها من خلال هذه الرسالة التي قسمها إلى فصول ستة وهي :

1 ـ في سبب حدوث الصوت

2 ـ في سبب حدوث الحرف

3 ـ في تشريح الحنجرة واللسان.
4 ـ في الأسباب الجزئية لحرف (1) حرف من حروف العرب.
5 ـ في الحروف الشبيهة بهذه الحروف.
6 ـ في أن هذه الحروف قد تسمع من حركات غير نطقية.

ففي الفصل الأول يرى أن الصوت سببه «تموج الهواء دفعة بسرعة وبقوة من أي سبب كان». وهذا التموج نفسه له سبب إما أن يكون هو القرع وإما أن يكون هو القلع. ويقصد بالأول : «تقريب جرم إلى جرم مقاوم له لمزاحمته تقريبا تتبعه مماسة عنيفة لسرعة حركة التقريب وقوتها» ويقصد بالثاني : «تبعيد جرم ما عن جرم أخر مماس له منطبق أحدهما على الاخر. تبعيدا ينقلع عن مماسته انقلاعا عنيفا لسرعة الحركة في التبعيد. وهذا يتبعه صوت من غير أن يكون هناك قرع» ويلخص هذه العملية كلها بقوله : «فإذن العلة القريبة كما أظن هي التموج. وللتموج علتان : قرع وقلع» ثم بعد أن عرف كيف ينتج الصوت بصفة عامة أجاب عن كيف يحدث السمع ؟ فقال : «ثم ذلك الموج يتأدى إلى الهواء الراكد في الصماخ فيموجه فيحس به العصبة المفروشة في سطحه».

وفي الفصل الثاني : يعرفنا بمعنى الحرف والفرق بينه وبين الصوت وكيفية حدوثه فيقول :

«وأما حال التموج من جهة الهيئات التي يستفيدها من المخارج والمحابس في مسلكه فيفعل الحرف.

(1) أي لكل حرف حرف.

والحرف هيئة للصوت عارضة له يتميز بها عن صوت أخر مثله في الحدة والثقل تميزا في المسموع.

والحروف بعضها في الحقيقة مفردة، وحدوثها عن حبسات تامة للصوت أو للهواء الفاعل للصوت، يتبعها إطلاق دفعة. وبعضها مركبة وحدوثها عن حبسات غير تامة لكن مع إطلاقات».

وأما الفصل الثالث، فقد تعرض فيه لتشريح الجهاز الصوتي الذي يراه مكونا من عضوين فقط هما، الحنجرة واللسان. ولم يتعرض بطبيعة الحال إلى القصبة الهوائية والحلق والخيشوم والحنكين الأعلى والأسفل وما سواها من الأعضاء الأخرى التي تكون هذا الجهاز (34). - وإن كان بكيفية عرضية قد أشار إلى بعضها، كالحنك والحجاب، وعضل الصدر، والفم، والحلقوم، والأسنان والشفة - ولكنه في وصفه للحنجرة واللسان لم يكن بعيدا عن الوصف الذي يقدمه العلم الحديث. فالحنجرة عنده تتكون من ثلاثة غضاريف هذه أسماؤها،

1 - الغضروف الدرقي أو الترسي وفي الفرنسية Le Tyroïde.

2 - الغضروف المسمى، (عديم الاسم) وفي الفرنسية Le cricoïde.

3 - الطر جهالي أو الغضروف المكبي (لأنه يشبه عنده قصعة مكبوبة)وهو المسمى في الفرنسية Les Arythénoïdes وهو) يحدث من زائدتين).

وكل غضروف من هذه الغضاريف عرف ابن سينا بموضعه من الحنجرة وبالداعي إلى تسميته بذلك الاسم، والواقع أن عدد هذه

(34) قارن ذلك بما سنذكره عن وصف السكاكي في مفتاح العلوم لجهاز الصوت.

الغضاريف. والوصف الذي قدمه ابن سينا لها يتفقان تماما مع الوصف التشريحي الحديث (35) مع أنه لم يكن معتمدا على آلات أو كاشفات ضوئية مما نتوفر عليه اليوم.

وقد وصف بعد ذلك عملية إحداث الصوت نتيجة الادوار التي تقوم بها هذه الغضاريف (Cartilages) بمساعدة عضلات أخرى صغيرة يذكر ابن سينا أن عددها ست ، أربع أساسية واثنتان مساعدتان. إلا أنه لا يطلق عليها أي اسم. وبالمقارنة مع الوصف الحديث لجهاز الصوت. نجد ذلك ينطبق على العضلات التي تسمى اليوم بالحبال الصوتية Les cordes vocales التي تتكون ـ عند المحدثين ـ من أربع عضلات فقط ، اثنتان أساسيتان. واثنتان تسميان الحبلين الصوتيين الزائفين.

ذلك هو وصف الحنجرة. أما اللسان فيتكون عند ابن سينا من ثماني عضلات بينما هي عند المحدثين قد لا تزيد عن سبع عضلات أساسية في عملية النطق. وإن كان مجموع ما يتركب منه اللسان إجمالا سبع عشرة عضلة (36).

وأما الفصل الرابع ، فأهم ما فيه أنه يقسم الحروف العربية إلى قسمين ، حروف «صامتة» وأخرى «مصوتة» وهو تقسيم سبق به كل الدراسات الصوتية الحديثة لأنه لا يختلف عنها في شيء. فـ (المصوتات) عنده هي الالف والواو والياء بالإضافة إلى الحركات الثلاث وهي الفتحة

(٣٥) قارن بكتاب : Elèments de phonétiques – L. Bondy – Editions. J.B. Baillière Paris 1977.

(٣٦) المرجع السابق ص : ٢٤.

التي يسميها (الالف الصغرى) والضمة التي يسميها (الواو الصغرى) والكسرة التي يسميها (الياء الصغرى)، وكل ذلك في مقابل ما يسمى اليوم Voyelles وباقي الحروف الصحيحة يسميها (صامتة) في مقابل ما يعرف اليوم بـ: Consonnes وقد سبقت الاشارة في مدخل هذا البحث إلى أن النظرية التي تجعل من الحركات أبعاض الحروف، أي لا تفترق عنها إلا في كمية الصوت، هي نظرية عرفها العرب منذ عصر الخليل بن أحمد، وجاء ابن جني فعززها ورسخها، وها نحن نلقاها مرة أخرى عند ابن سينا كاملة ناضجة، ونلقى بجانبها مصطلحي (صامت) و(مصوت) اللذين كنا نحسبها مصطلحين حديثين، ومفهومين جديدين.

وفي هذا الفصل أيضا تحدث ابن سينا عن كل حرف في العربية فبين مخرجه من الجهاز الصوتي والطريقة العلمية التي يحدث بها، فيختلف حديثه في ذلك اختلافا جذريا عن الكلام السطحي الذي نجده عند النحاة أو القراء وهم يصفون مخارج الحروف فيكتفون بتعيين موضع انحباس الصوت في الجهاز دون تفصيل ولا تدقيق، فيقولون مثلا إن الباء مخرجها من بين الشفتين، والعين مخرجها من وسط الحلق... الخ أما ابن سينا فيتحدث في ذلك حديثا علميا دقيقا فيقول مثلا :

«وأما العين فإن الحبس (37) فيها غير تام إلا أنه قوي ومندفع إلى أدخل موضع في الحلق عند انفتاح الحنجرة وأرطبه وألزجه رطوبة، ويكون الاندفاع فيه مستقيما يقلقل تلك الرطوبة ويزعزعها إلى جهاتها بالسواء من غير أن تذعن الرطوبة للتشظي والتشذب، حتى يحدث من

(37) يقصد حبس الهواء.

خلال أجزائها أصوات حادة كثيرة تخالط النغمة فتخشنها التخشين الذي يكون في الخاء والعين. ويكون فيها فتح الطرجهالي مطلقا وفتح الذي لا اسم له وسطا».

والفصل الخامس من رسالته يخصص لذكر الأصوات (الحروف) غير الفصيحة التي تسمع في لغة الفرس ولغة العامة في عصره، مثل الكاف التي بين الكاف والقاف، والشين الصادية والزائية، والراء الغينية واللامية والطائية، والفاء البائية، وغير ذلك من الأصوات التي تظهر في نطق الناس تحريفا للفصحى أو تشبها بالفارسية أو غيرها من لغات الاقوام المسلمة. والتنبيه إلى هذا النوع من الأصوات سنجد شبيها به عند عصريه ابن سنان الخفاجي الذي توفي بعده بسنوات قليلة.

في كل هذه الفصول السابقة كان ابن سينا يتحدث عن الأصوات التي يحدثها الإنسان. ولذلك فقد خصص الفصل السادس والأخير للحديث عن الأصوات بصفة عامة وكيف تحدث في الطبيعة. فالهاء مثلا صوت قد نسمعه من اندفاع الهواء بقوة في نفس الهواء... والقاف عن انشقاق الاجسام وخصوصا ذوات رطوبات لطيفة. ...والفاء عن حفيف الاشجار وما أشبهها...».

وقد تعمدت في الحقيقة أن أطيل الوقوف عند هذه الرسالة لسببين على الاقل :

أولهما كونها لم تنل بعد حظها من التعريف والدرس مع أنها مضى على طبعها زمن طويل، وهي أحرى بدراسة مستقلة أو رسالة جامعية تبرز أهميتها.

وثانيهما ، أني رأيت من المعاصرين من ينكر على العرب معرفتهم بكثير من الأمور التي عرفوها وعرفها ابن سينا على الخصوص. ومن هؤلاء الباحث السوري الدكتور جعفر دك الباب الذي ينكر في مقال له نشر بمجلة (اللسان العربي) مجلد ١٩ بعنوان : (الصوامت والصوائت في العربية) أن يكون العرب قد عرفوا تقسيم الأصوات إلى صوامت وصوائت لأنه في نظره تقسيم حديث، وأن يكونوا قد عرفوا تشريح الجهاز الصوتي. وبالتالي أن يكونوا قد عرفوا الحبال الصوتية لأنهم في نظره وحسب عبارته كانوا يجهلون هذه الحبال جهلا تاما. ولذلك تعمدت الوقوف عند ▬ والأمور بقصد التنبيه.

كتـــب التجويـــــد

التجويد لغة هو التحسين. وعلم التجويد هو العلم الذي يبحث بواسطة دراسة الأصوات ومخارجها وصفاتها في كيفية تحسين تلاوة القرآن العظيم تلاوة يحافظ بها على أداء كل أصواته أداء جيدا بإخراجها من مخارجها الصحيحة وإعطائها ما تستحقه من الاظهار والإخفاء والتشديد والتخفيف والتفخيم والترقيق والمد والادغام والامالة... وغير ذلك من الأمور التي تعرف بمراجعة كتب هذا الفن. ومما أورده القدماء في التعريف بهذا العلم. قول الحسن بن قاسم المرادي المعروف بابن أم قاسم المصري مولدا والمغربي دارا في شرحه لواضحة الجعبري ما نصه :

«والتجويد هو إحكام القراءة وإتقانها ويقال في تعريفه : هو إعطاء كل حرف حقه مخرجا وصفة. وقال بعضهم : تجويد القراءة هو تصحيح

الحروف وتقويمها وإخراجها من مخارجها وترتيبها مراتبها وردها إلى أصولها وإلحاقها بنظائرها. وقد اتضح بذلك أن تجويد القراءة يتوقف على أربعة أمور، أحدها معرفة مخارج الحروف والثاني معرفة صفاتها. والثالث معرفة ما يتجدد لها بسبب التركيب من الأحكام. الرابع رياضة اللسان وكثرة التكرار. وأصل ذلك كله وأساسه. تلقيه من أولي الاتقان. وأخذه عن العلماء بهذا الشأن» (38).

ومن هذا يتبين، أن الدراسة الصوتية هي صلب هذا العلم وعموده الفقري، وأن العلاقة بينه وبين القراءات القرآنية هي علاقة الأم بالابن. فقد نشأ التجويد في أحضان القراءات وعنها تفرع لأنه صار يهتم فقط بكيفية أداء اللفظ.

ولما كان هذا العلم مرتبطا بالذكر الحكيم أشد ارتباط، فقد عمل المسلمون منذ القديم على إعطائه ما يلزمه من العناية وجعلوا منه مادة ضرورية ينكب الصبيان على تعلمها منذ حداثة أسنانهم. ومن هنا أيضا كثرت بين أيدي هؤلاء المتعلمين الرسائل المبسطة، والمنظومات السهلة المختصرة التي تساعدهم على الالمام بمخارج الأصوات وصفاتها وكل ما يتعلق بأحوالها. واستمر التأليف في الموضوع طوال العصور دون انقطاع إلى اليوم. إلا أنه لما كانت غاية هذا العلم مقصورة على تمكين مرتل القرآن من القدر الذي يكفيه لحسن الاداء، فقد جاءت جل مؤلفاته مختصرة، ولم يتوسع فيها البحث فيخرج عن الحدود والموضوعات التي لخصها المرادي في نصه السابق. وهي تنقسم إلى جانب نظري وهو

(38) شرح الواضحة في تجويد الفاتحة ص [illegible].

دراسة المخارج والصفات لحروف وأصوات العربية وما ينشأ من تركيب هذه الأصوات، وجانب عملي تطبيقي - وهو المهم - وهو مرياضة اللسان وكثرة التكرار، مما يؤدي إلى النطق السليم، وتجنب العادات النطقية السيئة التي تشيعها العاميات المحلية. ذلك أن الناظر في أحوال لهجاتنا العربية القديمة منها والحديثة، سيجد كثيرا من أصواتها قد التبس بعضها ببعض، كالتباس الثاء بالتاء، والذال بالدال، والسين بالشين، والصاد بالسين، والظاء بالضاد، والضاد بالدال، والتاء بالطاء... وكما هو الشأن في إبدال القاف همزة، والراء غينا، وهلم جرا. هذا فضلا عن إدغام بعض الأصوات في بعض، وعدم التمييز بين مواطن يجب فيها ترقيق الصوت وأخرى يجب فيها تفخيمه، وهذا ما يحدث عادة في صوتي اللام والراء. ولذلك انصرف علماء التجويد إلى تصحيح ذلك كله وضبطه بالقواعد وتوضيحه بالامثلة والتمارين. وكثيرا ما ألفوا في هذه الأمور الجزئية مقالات ورسائل خاصة نذكر منها على سبيل المثال :

- الفرق بين الضاد والظاء (39) لأبي عمرو الداني (ت 444 هـ).

- كتاب الحروف الخمسة (وهي السين والشين والصاد والضاد والظاء والذال) لأبي محمد عبد الله البطليوسي (ت 521 هـ).

- ملخص كتاب الاعتقاد في الفرق بين الظاء والضاد لأبي حيان الأندلسي (ت 745 هـ).

- بغية المرتاد لتصحيح الضاد لعلي بن محمد الخزرجي (ت 1004 هـ) (40).

---

(39) منه نسخة مخطوطة بخزانة علال الفاسي رقم 674 (مجموع).

(40) منه نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط رقم 1426 د.

ـ بغية المراد في بيان مخرج الضاد من كلام الجهابذة النقاد لأبي زيد عبد الرحمان بن القاضي المكناسي (ت 1082 هـ) (41).

ـ الفرق بين الراء والغين لأبي سعيد محمد بن علي الجاواني العراقي (ت 561 هـ) (42).

ـ تحقيق في حرف الجيم لحامد بن محمد بن محنض الديماني الشنجيطي (ت 1136 هـ) (مطبوع بالرباط)، وموضوع الرسالة طريف وجدير بالاهتمام لأنه يدرس مسألة الجيم المعقودة التي تنطق على شكل . (g) وفيها يقول إن هذا النطق دخل على الجيم العربية الفصيحة عن طريق بعض المقرئين السودان المهاجرين إلى المشرق.

ـ كتاب الإدغام الكبير للداني.

ـ الأنوار المتوقدة في الرد على الجيم المنعقدة لمحمد بن الحبيب ابن أيد الأمين الجكاني من القرن الثاني عشر وعليها تعليق للشيخ محمد البدالي (ت 1166 هـ) مطبوع بآخر رسالة الديماني المذكورة قبل.

ـ كتاب الامالات له.

ـ تقييد في تفسير الغنة لأبي العلاء إدريس الودغيري البكراوي (ت 1257 هـ).

أما مؤلفات التجويد العامة فقائمتها طويلة نكتفي هنا بذكر المشهور منها في المشرق والمغرب :

---

(41) منه نسخ مخطوطة بالخزانة الملكية بالرباط.

(42) انظر كشف الظنون 2 : 1256.

ـ المنظومة الرائية لموسى بن عبيد الله الخاقاني البغدادي (ت 325 هـ) شرحها أبو عمرو الداني، وهي التي يعتقد ابن الجزري أنها أول ما عرف من التأليف في التجويد (43).

ـ كتاب مخارج الحروف لأبي علي الحسن بن داود الكوفي النقار (أو النقاد) (44) (ت 352 هـ).

ـ الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة لمكي بن أبي طالب القيسي قارىء الأندلس المشهور المتوفي سنة 437 هـ وهو كتاب مطبوع.

ـ التحديد في الاتقان والتجويد، لأبي عمرو الداني (ت 444 هـ).

ـ الواضحة في تجويد الفاتحة لإبراهيم بن عمر الجعبري (ت 732 هـ) وهي التي شرحها الحسن بن قاسم المرادي (45) (ت 749 هـ).

ـ تأليف في مخارج الحروف لأبي عبد الله محمد بن محمد الكناني القيجاطي من أهل غرناطة (46).

ـ التمهيد في علم التجويد لمحمد بن محمد الدمشقي المعروف بابن الجزري صاحب : (النشر في القراءات العشر)، (وغاية النهاية في طبقات القراء) (ت 833 هـ). وله أيضا الارجوزة المشهورة بالمقدمة الجزرية مطبوعة في (مجموع مهمات المتون).

---

(43) انظر كشف الظنون 1 / 1547.

(44) في فهرست ابن النديم ص 49 : (النقاد) وفي هدية العارفين للبغدادي 1 / 270 : (النقار) بالراء.

(45) طبع هذا الشرح بتحقيق الدكتور عبد الهادي الفضلي ـ دار القلم، بيروت، بدون تاريخ.

(46) انظر برنامج المجاري ص 104 تحقيق (ابو الاجفان) ـ دار الغرب الاسلامي ـ بيروت.

ـ القول المألوف في مخارج الحروف منظومة مطبوعة في مجموع مهمات المتون وهي لعلي بن سعيد البيسوسي (ت 1184 هـ).

ـ أزاهر الحدائق في علم مخارج الحروف والصفات والحقائق لأبي العلاء إدريس الودغيري المذكور سابقا (47).

ـ هداية الصبيان في تجويد القرآن. منظومة مطبوعة في مجموع المتون وهي لسعيد بن سعد بن نبهان الحضرمي من علماء القرن الرابع عشر الهجري.

إن دراسة كتب التجويد بنوعيها ، الشامل والجزئي، ومقارنتها بما وصلت إليه الدراسات الصوتية الحديثة أمر لابد أن يخرج منه المرء بنتائج مفيدة منها ما سبق إليه القدامى من آراء واجتهادات حققوها بوسائلهم العادية دون الاستعانة بالالات التي يستعين بها الدارس الحديث، وما بذلوه من جهود في وضع المصطلحات الخاصة بهذا العلم وهي مصطلحات كثيرة تحتاج لدراسة مفردة معززة بالمقارنات. وعلى العموم فما يزال هذا العلم بكرا لم ينل حظا قليلا أو كثيرا من أصحاب الدرس الصوتي الحديث.

وأختم الحديث عن هذا الموضوع بنظرة في منظومة أبي العلاء الودغيري الآنف الذكر ـ إمام القراء المغاربة في عصره ـ وهي المعروفة (بأزاهر الحدائق في علم مخارج الحروف والصفات والحقائق). وهي رجزية تقع في 107 بيت أولها مقدمة في التعريف بفضل علم التجويد وغايته. وبعدها ثلاثة أبواب :

(47) منها نسخ خطية عديدة بخزائن المغرب.

1 ـ الأول في مخارج الحروف وعددها ستة عشر مرتبة حسب تدرج الجهاز الصوتي. فهو يذكر هذه المخارج ويوزع أصوات العربية عليها بادئا بقوله :

مخارج الحروف ستـــة عشــر ثلاثة في الحلق منها تعتبـــر
للفم عشرة وأنف بالبيـــــان لواحد واثنين حاز الشفتـــان

2 ـ والثاني في صفات الحروف. وفيه يذكر كل حرف من حروف العربية بادئا بالالف وما تلاه إلى نهاية الأبجدية. وكل حرف يذكر ماله من الصفات مثل قوله :

والبا بجهر ذلـق وقلقلـــة مع انفتاح شدة مستفلــــة
والتا بهمس واستفــال وانفتاح نطع وصمت شدة دع الطمـــاح
والثاء رخو لثوي منفتـــح همس والانسفال مصمت يصح

ويتبع ذكر الصفات بذكر أضدادها في كل حرف :

وذي الصفات بعضها لبعـــض ضد. فلا توردهما من حـــوض
فالجهر ضد الهمـس دون لغو كذاك الانسفال ضد العلـــو
والانفتاح ضده الاطبـــاق ومصمت قل ضده الاذلاق
والارتخاء ضـد الاشتـــداد فكن نبيلا ضابـــط الفؤاد

ثم يخصص فصلا آخر ـ داخل الباب نفسه ـ لذكر أقوى هذه الصفات فيقول :

فالجهـر والشـدة والصفيـــر أطل والاستعلاء والتكريـــر
أطبق تفش وانحـراف. قلقلـة وغنـة قويــــة مفصلــــة

3 ـ الباب الثالث في حقائق هذه الصفات أي في تعريف وشرح معناها :

فالجهر : الاعـلان والانحصـــار   لنفـس في النطـق والاكثـار

* * *

حقيقة الشـدة فهي الانحبـــاس   عن اشتداد صوت حرف في القياس
والارتخا : انطلاق صوت الحرف   أي امتداده بلفظ يشفـسي

وهكذا يمضي في تعريف هذه المصطلحات واحدا تلو الاخر فيذكر معنى : الهمس، والاطباق، والانفتاح، والعلو، والاستفال والقلقلة، والصفير، والمد، واللين، والانحراف، والتكرير والهوي (صفة الحرف الهاوي) والاستطالة، والتفشي، والغنة.

كتـب القـراءات

علم القراءات هو أحد العلوم النقلية التي تعتمد على الرواية والتلقي ولا دخل للرأي فيها أو الاجتهاد، وموضوعها هو معرفة الطريقة الصحيحة المضبوطة لقراءة كتاب الله دون لحن أو خطأ، والعلم بأوجه الاختلاف في رواية ألفاظه، وذلك كله من أجل المحافظة على الصورة الأصلية التي على صفتها نزل هذا الكتاب وتلي في عهد الرسول عليه السلام وذلك تصديقا لقوله تعالى : «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» ويستفاد من تعريف ابن الجزري الذي يقول فيه : «القراءات علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها معزوا لناقله» (48) أن هذا العلم يبحث في

(48) نقلا عن كتاب : «القراءات القرآنية تاريخ وتعريف» للدكتور عبد الهادي الفضلي ص : 55.

ميدانين : 1) تلقين الطريقة الصحيحة المضبوطة للتلفظ بكلمات القرآن على الوجه الذي كان يتلفظ به الرسول وأصحابه، وهي طريقة موروثة ينقلها الخلف عن السلف بالمشافهة والسماع، وفي هذا القسم يدخل علم التجويد الذي أصبح فيما بعد له قواعده المستقلة والخاصة به. 2) معرفة المتواتر من القراءات وما شذ منها وما اتفقوا أو اختلفوا فيه إعرابا ولفظا.

وقد ظلت كتب القراءات فترة طويلة لا تمتد إليها يد اللغويين المحدثين بالدرس والبحث، اعتقادا منهم أن لاصلة لموضوعها بعلم اللغة عموما، وعلم الصوت على الخصوص، والواقع عكس ذلك، إذ اتضح لهم قيمتها فيما بعد، وما لها من علاقة بدراسة كثير من المستويات اللغوية من نحو ومفردات وصوت ولهجات.

أما أوائل اللغويين، من أمثال أبي الأسود وتلاميذه، والخليل وتلاميذه، فقد تبين لنا مما سبق، أنهم انطلقوا في دراساتهم من معالجة النص القرآني.

وقد كان القرن الثاني للهجرة يمثل بداية ازدهار التأليف في هذا العلم، وذلك في موازاة الازدهار الذي عرفته هذه الفترة وما بعدها في مختلف فنون المعرفة عند العرب. وقد احتفظ لنا ابن النديم في كتابه المشهور : (الفهرست) بقائمة أسماء المؤلفين الذين كتبوا في القراءات منذ البدء إلى عصره وهو القرن الرابع الهجري. فكان ممن أتى على ذكرهم : أبو عمرو بن العلاء (ت 154 هـ) وأبو عبيد القاسم بن سلام (224 هـ) وخلف بن هشام البزار (229 هـ) وابن سعدان الضرير (ت 231 هـ) وكل واحد من هؤلاء ترك كتابا بعنوان (القراءات). ونظرا لضياع أكثر هذه المؤلفات فإننا لانستطيع تحديد طبيعة موضوعاتها بكل دقة.

والجدير بالذكر بعد هذا أنه بالامكان تصنيف المؤلفات التي كتبت في هذا الفن ابتداء من مرحلة التأليف الأولى إلى العصور المتأخرة، إلى الانواع التالية :

1 ـ المصاحف ونقطها وضبطها

2 ـ القراءات المشهورة

3 ـ القراءات الشاذة

4 ـ الاحتجاج للقراءات

5 ـ طبقات القراء

وباستثناء هذا الصنف الأخير الذي يهتم فقط بالتعريف بالقراء وتآليفهم، فإن سائر الأصناف الأربعة الباقية بإمكان الدارس أن يجد فيها ما يعرفه بجهود القدامى في ميدان الصوتيات. ونحن نلقي نظرة موجزة في كل صنف على حدة .

أ ـ ففي الموضوع الأول نجد أبا الأسود الدؤلي (69 هـ) هو أول من نسب إليه كتاب يلخص طريقته التي ابتكرها في نقط المصحف وضبطه ويسمى (المختصر) وقد مر ذكره.

ثم ألف في هذا الموضوع بعده كل من الخليل بن أحمد (175 هـ) وأبي بكر الانباري (327 هـ) وغيرهما، على أن أشهر مؤلفات هذا النوع، هو كتاب أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني الاندلسي المغربي (ت 444 هـ) المعروف بكتاب (المحكم في نقط المصاحف) (49)، والذي

(49) طبع في دمشق سنة [illegible] بتحقيق د. عزت حسن.

يمكن أن نقسم محتوياته إلى قسمين كبيرين، أولهما تاريخي وفيه تعرض المؤلف إلى المحاولات الأولى في إصلاح الخط العربي من أجل ضبط النطق بالاصوات إنطلاقا من المصحف، وما تبع ذلك من محاولات، وموقف العلماء منها، وما وقع الاختلاف فيه بين القراء وعلماء العربية، وما استقر عليه الأمر في عصر المؤلف، وثانيهما وصفي تعليمي ويشمل القسم الأكبر من الكتاب، وفيه يبسط الداني الطريقة المتبعة عند أشهر القراء في ضبط ألفاظ المصحف والعلامات التي توضع لذلك، مستفيضا في ذكر الأمثلة ومستعينا بالرسوم التوضيحية لاشكال الحروف وطريقة ضبطها، وخلال ذلك كله نجده يتحدث عن الاعجام، والتشديد والأمالة، والهمز، والمد، والقصر، والادغام، والاشمام، والروم، والاختلاس، وغيرها من الموضوعات التي تدخل في صميم الدراسات الصوتية.

ب ـ يشترط القراء لصحة القراءة ثلاثة شروط هي :

ـ صحة السند المتواتر إلى الرسول (ص).

ـ موافقة القراءة لرسم المصحف العثماني ولو بوجه.

ـ موافقتها لوجه من وجوه العربية. فما اختل فيه شرط من هذه الشروط اعتبر شاذا ولاسيما شرط التواتر في الرواية. وقيل إن الشاذ من القراءات هو مازاد على القراءات العشر.

ولما كانت القراءات الصحيحة كثيرة فقد اختلف العلماء في تحديد أشهرها، فمنهم من جعل أشهرها سبعا، ومنهم من جعلها عشرا ومنهم من جعلها اقل من ذلك أو أكثر. ولما ظهر كتاب أبي بكر أحمد بن موسى

ابن مجاهد البغدادي (ت 524 هـ) (50) المسمى (كتاب السبعة في القراءات) استحسن الناس اختياره حتى صار إذا ذكرت القراءات المشهورة انصرف ذهن الناس إلى السبعة لا غير. وقد كان ابن مجاهد هو أول من سبع السبعة، كما قالوا. غير أن آخرين قد ألفوا في القراءات الست مثل : هبة الله بن أحمد الحريري (ت 531 هـ) والقراءات الثماني مثل ابن غلبون الحلبي (ت 399 هـ) وأبي معشر الطبري (ت 478 هـ) والقراءات العشر مثل : ابن الجزري صاحب (النشر في القراءات العشر) والقراءات الأربع عشرة مثل الدمياطي (ت 1117 هـ). ونحن سنقتصر هنا على التعريف الموجز بكتابين من هذه الكتب الخاصة بالقراءات المشهورة، أولهما : كتاب ابن مجاهد وثانيهما كتاب ابن الجزري.

أما الكتاب الأول وهو (كتاب السبعة في القراءات فيمكن تقسيم موضوعه إلى ثلاثة أقسام :

1) المقدمة : وفيها يأتي على ذكر النصوص الحديثية الدالة على كون تعلم القراءات ضرورة دينية لأنها تؤدي إلى تجنب الخطأ في تلاوة القرآن من جهة. وعلى كونها من جهة أخرى تقليدا وسنة متبعة وليست ابتداعا واجتهادا.

2) وفي القسم الثاني يذكر ابن مجاهد لائحة القراء السبعة الذين شهد العلماء لهم بالتقدم والامامة في هذا العلم موزعين على الأمصار بمكة والمدينة والكوفة والبصرة والشام. وهم عبد الله بن كثير (ت 120 هـ) قارىء مكة، ونافع بن عبد الرحمان بن أبي نعيم (ت 169 هـ)

(50) طبعه شوقي ضيف بدار المعارف - مصر.

قارىء المدينة. وعاصم بن أبي النجود (ت 127 هـ) وحمزة بن حبيب الزيات (ت 156 هـ) وعلي بن حمزة الكسائي (ت 189 هـ) قراء الكوفة. وأبو عمرو بن العلاء (ت 154 هـ) قارىء البصرة. وعبد الله بن عامر اليحصبي (ت 118 هـ) قارىء الشام. هؤلاء هم القراء السبعة الذين اشتهرت قراءتهم واعتمد عليهم العلماء. وقد ذكر ابن مجاهد شيئا عن أنسابهم وأساتذتهم وشيوخهم.

3) أما القسم الثالث والأكبر من الكتاب فيتحدث فيه عن وجوه الاختلاف بين هؤلاء السبعة مستعرضا ذلك من خلال سور القرآن الكريم واحدة واحدة. والمهم هو أن مسائل الخلاف بين هؤلاء، فيما نلمسه من كتاب ابن مجاهد. لاتخرج عن كونها خلافا يتناول النواحي الاعرابية، مثل اختلافهم في قراءة قوله تعالى : (إذ يَغْشاكم النعاسُ) فقرأ بعضهم على هذا النحو، وقرأ غيرهم : (إذ يُغْشيكم النعاس) وقرأ فريق ثالث : (إذ يُغَشِّيكم النعاس) أو النواحي الصوتية مثل اختلافهم في كلمة (الصراط) إذ قرئت بالصاد والسين والزاي. أو الاختلاف في مد الصوت أو قصره أو إدغامه أو إمالته أو غير ذلك من الأحوال.

أما الكتاب الثاني وهو (النشر في القراءات العشر) لأبي الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري (ت 833 هـ) فهو بدوره يمكن تصنيف أبوابه إلى مجموعات :

فالمجموعة الأولى من الأبواب هي بمثابة مقدمة طويلة فيها يحدد معنى القراءة الصحيحة. والقراءة الشاذة ويفسر قوله عليه السلام : (أنزل القرآن على سبعة أحرف) ثم يذكر أصحاب القراءات العشر ويترجم

لهم ويذكر رواتهم. ويقدم لائحة بأسماء الكتب المؤلفة في القراءات بلغ عدد ما فيها 56 كتابا ورسالة بين أندلسية ومشرقية.

وفي المجموعة الثانية من أبواب الكتاب نجده يتطرق لمسائل هامة بالنسبة لدارس الأصوات العربية. ففيها يذكر مخارج الحروف وعددها وكيفية تحديد كل مخرج وتقسيم الحروف حسب تلك المخارج. كما يتحدث عن صفات الحروف من مجهور ومهموس. ورخو وشديد وما إلى ذلك. وعن الكيفية الصحيحة لقراءة القرآن وعن معنى التجويد إذ يعرفه يقوله إنه : «تصحيح ألفاظ القرآن وإقامة حروفه على الصفة المتلقاة من أئمة القراءة المتصلة بالحضرة النبوية الافصحية العربية التي لاتجوز مخالفتها ولا العدول عنها إلى غيرها» ثم يعرفه مرة ثانية فيقول : «هو إعطاء الحروف حقوقها وترتيبها مراتبها. ورد الحرف إلى مخرجه وأصله. وإلحاقه بنظيره. وتصحيح لفظه. وتلطيف النطق به حال صيغته وكمال هيئته من غير إسراف ولا تعسف ولا إفراط ولا تكلف» ص : 212 / 1.
وفي هذا القسم أيضا نجد حديثا مستفيضا في تعريف المصطلحات التي كثيرا ما استخدمها علماء القراءات والتجويد مثل : التحقيق والادغام. والتفخيم. والاخفاء. والاظهار. والوقف والابتداء والاشمام. والروم. والمد. والقصر. والهمز. والامالة. والترقيق. شارحا ذلك بالأمثلة من القرآن ومتعرضا إلى اختلافات القراء في شأنها. ولذلك استغرق هذا القسم أكبر حصة من الكتاب.

وتتضمن المجموعة الأخيرة من الأبواب ذكر الخلافات بين العشرة من القراء حسب طريقة ابن مجاهد. وهي تتتبع هذا الخلاف من خلال سور القرآن سورة فسورة.

جـ) إذا كانت المؤلفات الخاصة بالقراءات المشهورة وخاصة القراءات السبع، تكتفي بإظهار الخلافات المتعلقة بالنواحي الاعرابية والصوتية في الغالب، فإن كتب القراءات الشاذة تذهب إلى أبعد من ذلك فتهتم، إلى جانب ماسبق، بإظهار الخلافات العميقة والوجوه الغريبة الشاذة من القراءات التي تصل إلى حد الاختلاف في العبارات، من حيث إبدال كلمة بأخرى، وإضافة شيء وحذف شيء آخر ومن أشهر المؤلفين في ذلك : الحسين بن أحمد المشهور بابن خالويه (ت 370 هـ) صاحب كتاب (المختصر في شواذ القرآن) الذي طبعه المستشرق ج. برجشتراسر بمصر سنة 1934، وأبو الفتح عثمان بن جني (ت 392 هـ) صاحب كتاب (المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها)، وقد طبع سنة 1386 هـ بالقاهرة. ونحن نكتفي هنا بضرب أمثلة على شذوذ القراءات نأخذها من الكتاب الأول الذي آثر صاحبه أيضاً أن يتبع طريقة ابن مجاهد بأن يتعرض للخلافات بين القراء من خلال ذكر آيات القرآن حسب ترتيب السور.

1) فمن شواذ القراءات في قوله تعالى : (إياك نعبد) أنهم قرأوا أيضاً :

- هياك (بالهاء)
- وإياك (بالتخفيف)
- وأيّاك (بالفتح والتشديد)
- كما قرأوا : (إياك يعبد) عوض (نعبد).

2) ومن الشاذ قراءتهم : (لم يولد ولم يلد) بدل القراءة المشهورة : (لم يلد ولم يولد).

3) ومن الشاذ : قراءة بعضهم :

- النافثات في العقد بدل (النفاثات).

4) ومن ذلك قراءة بعضهم :

(برب الناث) بالثاء

5) ومن ذلك قراءة من قرأ : (وحططنا عنك وزرك).

وقراءة أخر : (وحللنا وحططنا عنك وزرك)

د) والنوع الرابع من الكتب المؤلفة في القراءات هو الذي تمثله تلك المجموعة التي تبحث في العلل والادلة التي تخرج وجوه القراءات المختلفة. أي تقدم الحجج والتعليلات النحوية واللغوية التي تبرر كل وجه من تلك الوجوه التي قرىء بها. فتصح جميعها من حيث العربية. والمثال على ذلك ما جاء في كتاب (الحجة في القراءات السبع) لابن خالويه المذكور سابقا. حين قال : بالصراط. (51) تقرأ بالصاد والسين وإشمام الزاي. فالحجة لمن قرأ بالسين أنه جاء به على أصل الكلمة. والحجة لمن قرأ بالصاد أنه أبدلها من السين لتواخي السين في الهمس (52) والصفير (53) وتؤاخي الطاء في الاطباق (54) لأن السين مهموسة

(51) أي في قوله تعالى : (اهدنا الصراط المستقيم).
(52) حروف الهمس هي المجموعة في قولهم : (فحثه شخص سكت) [illegible].
(53) وحروف الصفير ثلاثة هي : ص - س - ز.
(54) حروف الاطباق الذي هو تلاقي طبقتي اللسان والحنك الأعلى عند النطق بالحرف أربعة وهي ط - ظ - ص - ض.

والطاء مجهورة. والحجة لمن أشم الزاي، أنها تؤاخي السين في الصفير وتؤاخي الطاء في الجهر» ص ، 62.

وكان بإمكان ابن خالويه أن يضيف حجة أسهل وهي في الوقت نفسه أكثر أهمية لأنها مأخوذة من واقع اللغة العربية المنطوقة حين نزل القرآن. وهي أن الاختلاف في قراءة هذه الآية راجع لاختلاف العرب في النطق بتلك الحروف الثلاثة (ص ـ س ـ ز) وهو بدوره راجع لاختلاف اللهجات. فلذلك وجدنا أيضا للصقر ثلاث لغات ، السقر ـ والصقر ـ والزقر.

ومثاله أيضا ماورد في كتاب (حجة القراءات) لأبي زرعة عبد الرحمان بن زنجلة (من القرن الرابع) (١)) في التعليل لما اختلف فيه القراء من قوله تعالى ، «وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون» قال ص ، 111 :

«قرأ ابن عامر ، فيكون بالنصب كأنه ذهب إلى أنه أمر تقول ، أكرم زيدا فيكرمك.

وقرأ الباقون بالرفع. وقال الزجاج ، رفعه من جهتين إن شئت على العطف على (يقول) وإن شئت على الاستئناف. المعنى ، فهو يكون».

فهذان كتابان من أشهر المؤلفات في الاحتجاج لوجوه الاختلاف للقراءات. وهي مؤلفات كثيرة جرت على طريقة واحدة في الغالب هي ذكر مواضع الاختلاف مرتبة حسب ورودها في سور القرآن. إلا أن منها من غلب عليه طابع الإعراب والنحو. ونمثل له بكتاب أبي البقاء عبد

(١) طبع سنة 1974 بتحقيق سعيد الافغاني

الله بن الحسين العكبري (ت 616 هـ) المسمى (املاء ما من به الرحمان من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن) (56) فهو يوجه أكبر عنايته للناحية الإعرابية كما هو واضح من تخريجه لخلافات القراء في قوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين) قال العكبري ، ص ، 5.

«الجمهور على رفع (الحمد) بالابتداء، و(الله) الخبر، واللام متعلقة بمحذوف، أي واجب أو ثابت. ويقرأ الحمد بالنصب على أنه مصدر فعل محذوف، أي أحمد الحمد، والرفع أجود، لأن فيه عموما في المعنى. ويقرأ بكسر الدال إتباعا لكسرة اللام (....) وهو ضعيف في الآية، لأن فيه إتباع الإعراب البناء، وفي ذلك إبطال للإعراب. ويقرأ بضم الدال واللام على إتباع اللام الدال، وهو ضعيف أيضا لأن لام الجر متصل بما بعده منفصل عن الدال ولا نظير له في حروف الجر المفردة، إلا أن من قرأ به فر من الخروج من الضم إلى الكسر وأجراه مجرى المتصل، لأنه لا يكاد يستعمل الحمد منفردا عما بعده»

واذا كانت أغلب كتب هذا النوع إنما تهتم بإظهار حجج كل وجه من وجوه القراءات لاغير، فإن بعضا منها يتجاوز ذلك إلى أمور ذات أهمية بالنسبة لدارس الصوت، كالوقف، والامالة، والادغام، والغنة (التنوين)، والتفخيم، والترقيق، والمد وغيرها. ونمثل لذلك بكتاب (الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها) (57) لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت 437 هـ) وهو كتاب شرح فيه صاحبه

(56) طبع في لبنان سنة 1979.
(57) طبع بتحقيق الدكتور محيي الدين رمضان وقد اعتمدنا على الطبعة الثانية - بيروت 1981 (مؤسسة الرسالة) وهو في مجلدين.

كتابا آخر كان قد ألفه أيضا في القراءات السبع وسماه، (التبصرة) وطريقة مكي بن أبي طالب في كتاب (الكشف) لا تختلف عن طريقة سابقيه من حيث تتبعه لمواطن الخلاف بين القراء في كل سورة من القرآن. وتقديم العلل التي استند إليها كل قارئ، فيما اختاره. إلا أنه جعل ذلك في شكل أسئلة وأجوبة. ومن هذا الكتاب نختار المثالين التاليين لعلاقتهما بموضوع الأصوات :

1) قال مكي في تعريف الادغام ، ص : 143 / 1 «الادغام معناه ، إدخال شيء في شيء. فمعنى أدغمت الحرف في الحرف : أدخلته فيه فجعلت لفظه كلفظة الثاني فصارا مثلين. والأول ساكن فلم يكن بد من أن يلفظ بهما لفظة واحدة كما يصنع بكل مثلين اجتمعا والأول ساكن...»

2) وقال في ص : 134 / 1 ـ 135 / 1 : «واعلم أن أصل الادغام إنما هو في الحرفين المثلين. وعلة ذلك إرادة التخفيف. لأن اللسان إذا لفظ بالحرف من مخرجه ثم عاد مرة أخرى إلى المخرج بعينه ليلفظ بحرف آخر مثله صعب عليه ذلك. وشبهه النحويون بمشي المقيد لأنه يرفع رجلا ثم يعيدها إلى موضعها أو قريب منه.وشبهه بعضهم بإعادة الحديث مرتين وذلك ثقيل على السامع. وذلك نحو : (قال لهم) و (ذهب بسمعهم) ولذلك أدغم أبو عمرو هذا النوع (...) واعلم أن غير المثلين إذا تقاربا في المخرج وسكن الأول أشبها المثلين اللذين هما من مخرج واحد فجاز فيهما الادغام سالم يمنع من ذلك مانع. فعلى هذا يجري الادغام ويحسن. واعلم أن الادغام إنما يحسن في غير المثلين ويقوى إذا سكن الأول، وهو

على ضربين ، أحدهما إذا كان الحرفان متقاربين في المخرج والحرف الأول أضعف من الثاني فيصير بالادغام إلى زيادة قوة (58) (...) والضرب الثاني أن يكون الحرفان المتقاربان في القوة سواء كالمثلين فيحسن الادغام (59) (...) وضرب ثالث من إدغام المتقاربين ضعيف قليل وهو أن يكون الحرف الأول أقوى من الثاني (60) فيصير بالادغام أضعف من حاله قبل الادغام...»

وانما أحببت أن أذكر هذا النص على طوله لأنبه إلى قيمة هذا النوع من المصادر في دراسة الأصوات، إذ واضح مما قاله القيسي أن قانون المماثلة (Assimilation) الذي قال به المحدثون في تطور الأصوات ليس قانونا جديدا ولا غريبا عما عرفه العرب في دراستهم للادغام.

هذا وقد مال القراء في العصور المتأخرة - كغيرهم من أصحاب العلوم الأخرى حين طغى المنهج التعليمي على المنهج العلمي - إلى نظم مسائل هذا العلم وقواعده في منظومات تلخيصية مركزة قصد حفظها واستظهارها. صارت بعد ذلك موضوعا لشروح وحواش متعددة. ومن أشهر هذه المنظومات التي نالت أوفر حظ من الشرح والتداول، منظومة ابن فيرة الشاطبي الأندلسي (ت ... هـ) في القراءات السبع وهي المسماة : (حرز الاماني ووجه التهاني) (61). وتعتبر واحدة من المنظومات الثلاث

---

(58) مثل : ادغام التاء في الظاء نحو : (قالت طائفة).

(59) مثل : ادغام الدال في التاء : في : (اذ تميل).

(60) نحو ادغام الراء في اللام.

(61) انظر شروحها في كشف الظنون 1 / 646 واخر شروحها : (الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع) لعبد الفتاح القاضي رئيس لجنة مراجعة المصاحف بالازهر الشريف - مطبوع بمصر.

التي لخص فيها ثلاثة كتب كلها لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني الأندلسي ، الأولى ، لامية وهي التي ذكرناها وفيها لخص كتاب (التيسير في القراءات السبع)، والثانية رائية وهي تلخيص لكتاب (المقنع في رسم المصاحف) عنوانها ، (عقيلة أتراب القصائد في أسنى المقاصد) وعليها أيضا جملة شروح (62)، والثالثة رائية هي الأخرى وعنوانها ، (ناظمة الزهر) لخص فيها كتاب (البيان في عداي القرآن) إلا أن المنظومة الأولى تمد أكثرهن شهرة بل هي أشهر من الأصل (كتاب التيسير)، وقد قسمها الشاطبي إلى أبواب من أهمها بالنسبة لموضوعنا ، باب الادغام الكبير - وباب إدغام الحرفين المتقاربين في كلمة وكلمتين - وباب الاظهار والادغام - وباب ذكر حروف قربت مخارجها - وباب أحكام النون الساكنة والتنوين - وباب الفتح والامالة بين اللفظين - وباب مذاهبهم في الراءات - وباب اللامات - وباب مخارج الحروف وصفاتها.

وأحب أن أختم الكلام عن هذا الصنف من المصادر بالاشارة العابرة إلى كتابات المغاربة في القراءات وكثرتها. إلا أنها في الجملة ما تزال ثاوية في خزائن المخطوطات تحتاج لمن ينفض عنها غبار النسيان ويبعثها أو يعرف بها وهو أضعف الجهود.

وفي فهارس خزائننا المطبوعة والمجذوذة قوائم تغني مراجعتها عن كل حديث هنا.

وكما نبهت في آخر حديثي عن كتب التجويد، أحب أيضا أن أوجه عناية الدارسين إلى ما يزخر به علم القراءات في شموليته من

(62) انظر كشف الظنون ، 2 / 1159.

مصطلحات تكفي وحدها لمعرفة قيمة الجهود العربية في دراسة الأصوات. ولوضع العديد من الدراسات يكون من جملة ما تضطلع به ، تحديد مفهومها عند القراء على اختلاف إتجاهاتهم وأعصرهم. وفي ضوء الجديد من البحوث الصوتية. على أن لكتب القراءات - كما لا يخفى - أهمية أخرى بالنسبة للغوي عموما وشادي العربية على الخصوص. وذلك في غير المجال الصوتي. ذلك أنها تعتبر اليوم من أهم مصادرنا وأوثقها في دراسة اللهجات العربية القديمة ولا سيما صنف المؤلفات المهتمة بشواذ القراءات. كما لا يخفى أيضا ما كان لها من قيمة بالغة في قيام البنيان النحوي العربي ولذلك ملئت كتب المعربين القدامى بما لا يحصى من شواهد القرآن (63).

كتـب النحـــاة والصرفييـــن

من المعلوم أن الكتب النحوية والصرفية القديمة قد اشتملت. في جملة ما اشتملت عليه من مباحث. على موضوعات تعتبر اليوم من صميم الدراسات الصوتية. وكتاب سيبويه في مقدمة هذه المؤلفات التي خلطت بين مستويي الصوت والتركيب. فقد أفرد في الجزء الأخير منه باب

(63) انظر في ابراز هذا الجانب من قيمة القراءات في الدراسات النحوية واللهجية :
- أثر القراءات في تطور الدرس النحوي لعفيف دمشقية - بيروت 1978.
- القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية للدكتور عبد العال سالم مكرم - القاهرة 1969.
- اللهجات العربية في القراءات القرآنية للدكتور عبده الراجحي - القاهرة 1968.
- الامالة في القراءات واللهجات العربية للدكتور عبد الفتاح اسماعيل شلبي - القاهرة 1971.

لعدد بالحروف العربية ومخارجها ومهموسها ومجهورها، وأحوال مجهورها ومهموسها، واختلافها، وفي غير هذا الباب نجد كلاما يتعلق بالادغام، والقلب، والوقف، والامالة، والمد، والقصر، والهمز، والتسهيل، والترخيم، والتضعيف، والنحت، والابدال، والتنوين والاتباع وغيرها من المباحث التي أكثرها مشترك بين النحو والصرف، وهي اليوم بالدرس الصوتي أعلق وأدخل.

ولما كان «الكتاب» قد وضع أساس الدرس النحوي والصرفي عند العرب، أوقل إنه على الأقل جمع خلاصة ما كانت هذه الدراسات قد وصلت إليه في عصره، فقد تأثر بمنهجه كل الذين جاؤوا من بعده، فلذلك لانجد كتابا من كتب المتأخرين عنه يكاد يخلو من ذكر باب من تلك الأبواب المشار إليها، وهذا مايغنينا عن ذكر الأمثلة من أسماء المؤلفات في نحو العرب وصرفهم (64). إلا أن هذا التداخل بين المستويات في كتب الاقدمين لمن شأنه أن يدفع إلى العمل على فصل كل مستوى على حدة ، مستوى الصوت، ومستوى الصرف، ومستوى النحو، مع تحديد علاقة كل واحد منها بالاخر.

وأختم كلمتي في هذا النوع من المصادر الصوتية بشيئين ، أولهما ، التنبيه إلى فصل مهم أورده أبو سعيد السيرافي (ت [illegible] هـ) بعد فراغه من شرح باب الادغام الذي أورده سيبويه في الجزء الثاني من كتابه، وهو بعنوان ، (ماذكره الكوفيون من الإدغام) وفيها عقد السيرافي إحدى

(64) يستحسن لاستقصاء الموضوع النظر - بعد الكتاب - في أمهات هذه المصادر امثال ، المقتضب للمبرد وشرح المفصل لابن يعيش وشرح شافية ابن الحاجب للاسترباذي، والممتع في التصريف لابن عصفور.

عشرة مسألة مما خالف فيها الكوفيون البصريين في موضوع الادغام. وقد جاء في مطلع هذا الفصل «معنا باب أفردته بعد الفراغ من إدغام كتاب سيبويه وتفسيره لذكر ما ذكره الكوفيون من الادغام. وبعضه يخالف مذهب سيبويه وذكر الشاذ والاحتجاج في بعض ذلك...» وهو فصل على جانب كبير من الاهمية لقيمته في الدراسة الصوتية من جهة، ومن جهة أخرى لأنه يعد من المصادر النادرة - إن لم يكن المصدر الوحيد - الذي يمدنا بآراء الكوفيين في هذه المسألة (65).

ثانيهما : أن المستشرق (هول) في كتاب له بعنوان : (نحو اللغة العربية الفصحى) مطبوع بالله أباد (1883 م) قد جمع طائفة مهمة من النصوص انتخبها من أكثر من مئة نحوي عربي، ولخص نظرية النحاة العرب في علم الأصوات، وقد قال عنه (جان كانتينو) إنه : «تلخيص جيد جداً» (66).

كتــــب فقــه اللغـــة

نعني بكتب فقه اللغة تلك المؤلفات العربية القديمة التي جمعت شتاتا من الموضوعات لا يجمعها إلا رابط واحد هو البحث عن أسرار العربية وخصائصها، وهي تمثل مرحلة التنظير اللغوي التي وصل العرب أثناءها إلى محاولة الاجابة عن سؤال : ما هي القواعد العامة التي تميز لغتهم عن بقية اللغات ؟ وقد ازدهر هذا العلم على يد أبي الفتح عثمان

(65) انظر الفصل منشورا على حدة بتحقيق الاستاذ صبيح حمود الشاتي، وانظر المقدمة التي كتبها في التعريف به بمجلة (المورد) العراقية، عدد 3 المجلد 12 سنة 1983.

(66) دروس في علم اصوات العربية - ترجمة صالح القرمادي - ص : 200.

ابن جني في القرن الرابع الهجري الذي أبان في كتابه (الخصائص) عن عبقرية فذة وعمق في البحث والتجريد. ففي هذا الكتاب نجد الرجل يتعرض، إلى جانب موضوعات كثيرة، لقضايا ومباحث صوتية كحديثه عن : القلب، والابدال، والادغام، وكمية الحركات، ومطلها، وانابة الحركة عن الحرف، وشواذ الهمز، ومضارعة الحروف للحركات وهلم جرا. أما غير ابن جني من المؤلفين في فقه اللغة فإن تناولهم لموضوعات صوتية يقل نصيبهم بكثير عن نصيب ابن جني، ولكن لابد من الإشارة مع ذلك إلى كتاب أحمد بن فارس (ت 395 هـ) المعروف بالصاحبي في فقه اللغة الذي نجد به حديثا مقتضبا عن بعض اللهجات العربية التي يسميها (باللغات المذمومة) وعن ظاهرتي القلب والابدال، ومثل كتاب ابن فارس كتاب السيوطي (ت 911 هـ) المعروف (بالمزهر في علوم اللغة وأنواعها) الذي خصص بابا من أبوابه للحديث عن القلب، وآخر عن الابدال.

المعاجم

أهمية المعاجم العربية القديمة في هذا الباب ضئيلة أيضا ولكنه مع ذلك لابد من التنبيه إلى شيئين :

أولهما : أن أول اتجاه برز في تأليف المعاجم العربية الشاملة كان قائما على أساس ترتيب المداخل والمواد ترتيبا صوتيا، وذلك بناء على تقسيم الأصوات العربية إلى مجموعات، أولاها المجموعة التي تخرج من الحلق، وأخرها المجموعة التي تخرج من بين الشفتين. ولاشك أن الخليل ابن أحمد الفراهيدي (ت 175 هـ) كان أول من ابتكر هذا المعجم الذي

أصبح فيما بعد علما على مدرسة لها خصائصها المعروفة، وطريقتها التي اتبعها كثير من المعجميين العرب في المشرق والمغرب، وعرفت بمدرسة أو اتجاه العين.

والمهم من التنبيه على هذه النقطة هو أن الخليل، رأس هذه المدرسة المعجمية، لم يقدم على خطوته تلك إلا بعد أن كانت الدراسات الصوتية قد قطعت خطوات أخرى، بحيث كانت قد فرغت من وضع دراسة وصفية لا صوات العربية.

وثانيتهما ، أن كتب المعاجم القديمة تفيدنا مهما كانت اتجاهاتها وأهميتها في دراسة اللهجات القديمة رغم أن مادتها الأساسية مستمدة من اللغة المشتركة أي اللغة الفصيحة. فهي مع هذا لا تخلو بين الحين والاخر من الإشارة ولو عرضا إلى المستعمل في بعض القبائل واللهجات، ومعلوم أن جانبا مهما من الدراسات اللهجية قائم على اعتبار الجانب الصوتي.

وختاما نشير إلى ماورد بمقدمة (لسان العرب) لابن منظور التي تضمنت بابين قصيرين ، أولهما ، (باب تفيير الحروف المقطعة) وثانيهما ، (باب ألقاب الحروف وطبائعها وخواصها)، وهذان البابان على إيجازهما يلخصان كثيرا من القضايا الصوتية، ويعتبران من الأمثلة على اهتمام المعجميين بهذا الموضوع.

كتب البلاغــة

لما كان البلاغيون يقسمون الفصاحة إلى قسمين ، فصاحة المفرد، وفصاحة المركب، ويذكرون من شروط فصاحة المفرد أن تكون حروف

اللفظة خالية من الثقل متباعدة المخرج. وأن من أسباب قبح اللفظ أن تكون أصواته المكونة له متنافرة غير منسجمة. وذلك غالبا ما يكون نتيجة تقارب مخارجها. لما كان الأمر كذلك وجدوا أن لا مندوحة عن التعرض في مقدمات مؤلفاتهم إلى الحديث عن طبيعة الأصوات العربية ودراسة مخارجها وصفاتها. وهذا ما نجده ـ على سبيل المثال ـ عند شيخ البلاغيين في القرن الخامس وهو ابن سنان الخفاجي (ت 466 هـ) الذي استهل كتابه المعروف (بسر الفصاحة) بفصلين : (فصل في الأصوات) عرف فيه الصوت وكيف يحدث. و (فصل في الحروف) وعرف فيه الحرف بأنه : «حد منقطع الصوت» أي المكان الذي ينحبس فيه الهواء. وتعرض بعد الحديث عن فونيمات [Phonèmes] العربية (وهي أصواتها الأساسية التسعة والعشرون) إلى مجموعة أخرى من الأصوات المتفرعة عنها (Allophones) وهي قسمان : قسم يحسن استعماله في الفصيح من الكلام. وقسم لا يحسن. ففي القسم الأول ستة فروع (أو متغيرات) لهذه الفونيمات وهي :

ـ النون الخفيفة التي تخرج من الخيشوم.

ـ الهمزة المخففة.

ـ ألف الامالة.

ـ ألف التفخيم التي ينحى بها نحو الواو.

ـ الصاد التي كالزاي.

ـ الشين التي كالجيم.

وفي القسم الثاني ذكر ثمانية متغيرات أكثرها مما يلاحظ في بعض اللهجات وهي :

- الكاف التي بين الجيم والكاف.
- الجيم التي كالكاف.
- الجيم التي كالشين.
- الطاء التي كالتاء.
- الضاد الضعيفة.
- الصاد التي كالسين.
- الظاء التي كالثاء.
- الفاء التي كالباء. (67)

وطريقة رسم هذه المتغيرات أن يكتب الحرف الأصلي ثم يوضع فوقه شكل الحرف الذي يتغير إليه في النطق، كأن ترسم الفاء التي كالباء فاء فوقها باء صغيرة هكذا . (فـب)

ثم ختم ابن سنان هذا الفصل بالحديث عن مخارج الحروف والجهاز الصوتي عند الإنسان، وهو عنده يقتصر على الحلق والفم. وقد شبه هذا الجهاز ـ مثل ابن جني في سر الصناعة ـ بالناي وذلك «لأن

---

(67) لم يكن ابن سنان سباقا الى ملاحظة هذه التغيرات الصوتية للفونيمات الاصلية، والى تسجيل الاصوات غير المستعملة في العربية الفصيحة، اذ سبقه لذلك كثير من النحاة واللغويين نذكر منهم سيبويه، وابن جني، وابن سينا. وعدد الاصوات الفرعية التي ذكرها هنا هو نفسه ما ذكره سيبويه في كتابه.

الصوت يخرج منه مستطيلا ساذجا، فإذا وضعت الانامل على خروقه، ووقعت المزاوجة بينها سمع لكل حرف منها صوت لا يشبه صاحبه».

وقبل أن نختم الحديث عن هذا النوع من المصادر أشير إلى كتاب السكاكي (ت 626 هـ) المسمى : (كتاب مفتاح العلوم) وهو وإن لم يكن كتابا خاصا بالبلاغة إلا أن أغلب مادته (وهو القسم الثالث) من هذا العلم. وأهم ما نجده فيه مما يتعلق بموضوعنا هو رسمه لجهاز الصوت الذي يتألف عنده من الحلق، واللسان بأجزائه الخمسة (الأصل ـ الطرف ـ الوسط ـ الحافتان اليمنى واليسرى)، ثم الاضراس اليمنى واليسرى، ثم الثنايا العليا والسفلى، ثم الشفة العليا فالسفلى.

تلك أهم أنواع المصادر القديمة التي يمكن الافادة منها حديثا في تقويم جهود العرب في المجال الصوتي اللغوي وقد أضربنا صفحا ـ كما اشرت سابقا ـ عن التعرض لغير المظان من أمثال بعض كتب التاريخ كمقدمة ابن خلدون أو بعض الكتب الدينية المتنوعة الاغراض.

الرباط عبد العلي الودغيري

عرصة النيل بأكدال مراكش
وقصة المركب الذي تفجر في البركة

من هو العاهل المغربي الذي استشهد في البركة ؟
والى أي تاريخ يرجع المركب العاطل !

د. عبد الهادي التازي

يكون لزاما على كل الذين يسعون بزيارة مراكش أن يحاولوا، ما أمكنهم، أن يكتشفوا في كل مرة جانبا من الجوانب الجميلة التي تحتضنها عاصمة الجنوب ويا ما أكثرها ! تحتضنها داخل المدينة وخارجها وفي ضواحيها.

إن كل ما كتب عن مراكش أو (البهجة) كما يلذ لي أن أقول، إنما كان يقرب الصورة للذين يسمعون عن المدينة.. سواء أولئك الذين كتبوا بالعربية أو الفرنسية أو الإنجليزية أو غير هذه اللغات... وسواء في ذلك المؤلفات القديمة أو الحديثة... وإنه على عاتق أبناء وبنات مراكش تقع اليوم تبعة استيعاب وجمع ونشر ما كتب عن هذه المدينة التي تظل

محتفظة بجمالها وروعتها وحسنها وبهائها.. هذه المدينة التي تظل كتابا رائعا بصفحاته المشرقة التي تحكي عن تاريخ المغرب عبر العصور الخوالي.. عن تاريخ القادة الذين صنعوا تاريخ البلاد.. تاريخهم من خلال عاداتهم وآدابهم، آثارهم ومؤسساتهم وقصورهم وحدائقهم..

وقد كان في صدر ما يستهوي الزائر لهذه المدينة أن يقصد إلى بركة أكدال.. وهي غير صهريج المنارة القريب من المطار والذي يشرف عليه رواق ما تزال ملامح الحياة بادية عليه.



هذا صهريج المنارة القريب من المطار وهو غير البركة الكبرى أجدال

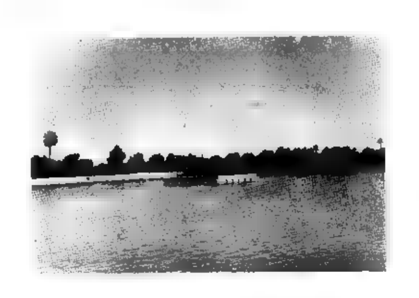
وهناك على مقربة من القصر الملكي ستجد نفسك في هذا المكان بين حقول فسيحة الأرجاء، وخير الحقول ما امتدت فيها الأبصار على ما يقولون.

هذه الحقول تحمل إسم (أكدال) الذي يعني بسيطا متصلا بالقصور الملكية يحتوي على أجنة وبساتين بها سائر أنواع الفواكه... ومختلف ألوان الزهور والورود وتتخللها الجداول والسواقي... وقد خصص بعض الجوانب في أكدال لتربية الخيول وهي التي تعرف باسم بالمصارة... كما توفر بعض النواحي لتدريب بعض الحيوانات الأخرى وتربيتها كالصقور والبزاة وما أشبه...

ويحتوي أكدال هذا على عدد من الأروقة الجميلة والقباب الرفيعة والبرك العديدة، لكن أبرز هذه البرك بركتان كبيرتان مربعتان تتميز عن بقية الأحواض الصغيرة الأخرى.

ومن غير أن نستعيد الكلام عن تاريخ بداية إنشاء هذه البرك إلا أننا مع ذلك نشير إلا أنها تعود في أكثرها إلى بداية عهد الموحدين الذي تميز بالمنشآت والإبداعات. ونذكر إضافة إلى هذا، أن إحدى البركتين المذكورتين كانت أكبر وأعظم من الأخرى... وهي التي عرفت

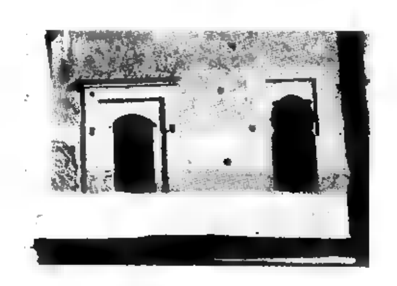
لدى الكتاب أحيانا باسم (البحر الأصفر)، كما عرفت الحدائق المحيطة بها باسم (عرصة النيل).



رسوم من بركة أجدال

وقد بني إلى جانب هذه البركة مشرفا عليها رواق جميل كان يحمل إسم (دار الهناء) يمكن أن ترى من أعلاه مشاهد خلابة على الحوز شمالا وعلى جبال الأطلس جنوبا...

وقد جند الموحدون طائفة من المهندسين الهيدروليكيين الذين عملوا على إيصال الماء إلى هذه الحقول من العيون المنبثقة في أعالي جبال (أوريكة).



من أبواب الزواق المشرف على البركة

وقد كانت هذه البركة علاوة على أنها محل فسحة ونزهة وفرجة، إلا أنها كانت مع ذلك أمكنة لما نسميه اليوم النشاط الموازي، حيث يقوم صغار الجند بتعلم السباحة في البركة والتدريب على تسيير الزوارق التي تبنى خصيصا لهذه الغاية..

ولقد أثارت هذه الحدائق وهذه البرك بالخصوص نظر سائر الذين كتبوا عن مراكش من مواطنين وسفراء ترددوا على بلادنا.. وفيهم بعض الشعراء الذين صاغوا حولها من جيد الشعر ما دونته كتب الأدب المغربي..

ليس هذا كل ما أريد أن أقوله عن بركة أكدال... ولكن الذي كنت أريد أن أذكره هنا هو التعقيب على ما كنت أسمعه ذات يوم زرت فيه البركة سمعته من أحد الذين وجدوا بالصدفة هناك وكان يحكي لجماعة من الزائرين الأجانب عن المركب (الباطو ـ Bateau) الذي يوجد هناك...



جانب من المركب العاطل

فعلا يوجد هناك على مقربة من البركة الكبرى مرآب كبير وضع فيه (مركب عاطل) يقول الحاكي، إنه المركب الذي تفجر وغرق فيه السلطان سيدي ▬▬ بن عبد الرحمن (محمد الرابع) عندما كان يقوم بجولة في جنبات البركة ؟

يضاف إلى هذه المقولة أن أحد الفضوليين حفر بيده على مؤخر المركب هذه الجملة : صنع فاتح ربيع الثاني 1299هـ



صورة المركب العاطل وقد نقش فيه أحد الفضوليين
صنع فاتح ربيع الثاني عام [illegible]

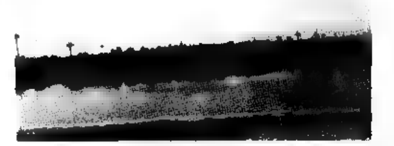
هذه التعريفات هي التي دفعتني لتقديم هذه الكلمات حتى يستطيع أولئك الذين يوجدون هناك على سبيل الصدفة أن يعرفوا عن حقيقة هذا المركب...

والواقع أن المرء لا يجد صعوبة في الوقوف على جلية الأمر عندما يجد :

أولا : أن وفاة السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن معروفة الزمان والمكان ومعروفة سبب الوفاة كذلك وهذا مهم.



باب المرأب الذي يوجد فيه المركب

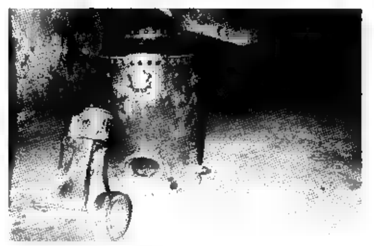


رسوم من بركة أجدال وقد جفف جانب منها

وهكذا نجد أنه توفي عام 1270 هـ = 1873 م بمراكش بسبب حساسية من دواء تناوله قبل أن يتوفاه الله ويدفن بضريح جده مولاي علي الشريف.

ثانيا : لكن العامل الذي يعتبر فاصلا في تزييف ذلك «الادعاء» هو ما يوجد إلى جانب ذلك المركب من قطع تحمل ذاتها تصحيح القول حول حقيقة المركب :

فلقد نقشت على قطعة منه علامة (طولي بباريز Telier a Paris كما توجد بجانب مرساته (l'Ancre) صندوق السرعة (Boîte de vitesse) ومولد للبخار (La Chaudière) وقد اتصلت بهما دائرة نقش فيها تاريخ 30 أبريل 1880 = (20 جمادي الأولى 1297) وإضافة إلى ذلك التاريخ تمكن قراءة كلمات : Décret offert du 282-8 K



من القطع المتبقية من المركب العاطل

وهكذا نرى أن المركب بني في باريز في عهد السلطان مولاي الحسن الأول أي بعد أيام والده السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن الذي يدعي أنه هو الذي غرق فيه !!

بقي بعد هذا أن نحاول أن نعرف مصدر تلك المعلومات الخاطئة عن استشهاد السلطان في البركة ؟

إن هناك حكمة تقول : «لا دخان بدون نار» ومن هذا المنطلق نلتمس بعض العذر للذين كانوا يحاولون أن ينوروا السواح والزوار الذين يتعاقبون على البركة. يستمتعون رؤية المركب الذي تغمر في عرض (البحر الأصغر)...

لقد شهدت البركة في يوم من الأيام الشتوية وبالضبط يوم الخميس تاسع جمادى الأخيرة عام 640 = 4 دجنبر 1242. شهدت مأساة مروعة حولت جو البستان إلى جو من الكآبة والحزن عندما كان أقرباء الخليفة الموحدي أبي محمد عبد الواحد الملقب بالرشيد ابن المامون ابن المنصور، كانوا يشهدونه يستغيث في البحيرة بعد أن غرق به المركب وهم لا يستطيعون إنقاذه...

هذا من جهة ومن جهة أخرى... فإننا نعرف أن السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن أدركته وفاته عام 1290 وهو في أثناء نزهة بهرصة النيل حيث توجد هذه البركة الكبرى أو البحر الأصغر كما تسميه المصادر... أدركته وفاته ولكن ليس غرقا كما يقول المرشدون السياحيون ولكن بسبب مضاعفات دواء تناوله على ما قلنا...

وهكذا سهل «تلفيق الأسطورة»... وعندما وجد أن تاريخ المركب لا يساعد على ذكر الخليفة الموحدي اختاروا إسم السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن الذي توفاه الله على مقربة من المكان المذكور !!

ويبقى بعد هذا أن نعرف عن الجهة الحقيقية التي كانت تستعمل (الباطو) كما يسميه سائر أبناء الحي..

إن الذين يعرفون عن ولوع السلطان مولاي الحسن (الأول) بما أخذ يظهر في أوربا من مستجدات مما يتعلق بوسائل النقل يحملني على الاعتقاد بأن هذا المركب كان من ممتلكات السلطان مولاي الحسن الذي رأيناه يقوم بتجارب لاستعمال القطار الحديدي..

ونظرا لبعض الإشارات فإني أميل إلى القول بأن المركب المشار إليه كان مما حملته البعثة الفرنسية برئاسة الوزير لاديسلاس (أورديكا ـ Ladislas Ordega) هدية إلى جلالة الملك الحسن الأول عام 1882 ـ 1883 أي بعد سنتين فقط من صنع المركب في دار توليي.

وقد آل المركب إلى السلطان مولاي عبد العزيز الذي بويع ـ وهو ابن أربع عشرة سنة ـ والذي نعلم عن هيامه بركوب الدراجات وكذلك باستعمال الزوارق المختلفة الأشكال ومنها التي تعتمد على الفحم الحجري حيث كان يجد بعض التسلية في المركب المذكور عندما يخلو بنفسه للراحة في بركة أكدال، إلى جانب المركب المعروف باسم التريكي) الذي كان يستعمله في (البحر الكبير)..

ولا ندري هل أنه عطب نتيجة لإهمال أو لسوء استعمال ويترجح لدينا الاحتمال الأول.. ومن حسن الحظ أن يحتفظ ذلك المرآب بسائر أطراف هذا المركب، حتى نستجلي الحقيقة وإلا لكنا أمسينا أمام أساطير أمعن في الغرابة وأبعد عن الإصابة!

الرباط　　　　　　　　د. عبد الهادي التازي

معركة وادي المخازن

من خلال كتاب «حملة الملك دون سبستيان على إفريقيا» لمؤلف برتغالي مجهول(*)

أحمد بوشرب

إن المصادر والوثائق البرتغالية المتعلقة بتاريخ المغرب خلال القرن الخامس عشر والقرن التالي كثيرة ومتنوعة. ولقد سبق لي في مقال نشرته مجلة المناهل (1) أن أكدت على مدى مساهمة هذه الوثائق في كتابة تاريخ بلدنا. خصوصا وأن الوثائق المغربية المتعلقة بالفترة تكاد تكون منعدمة، في حين أن مصادرنا قليلة. وفي نفس الوقت مفتقرة إلى الدقة. وقد يتجلى ذلك في كوننا لا نتوفر لحد الساعة على الأقل الا على وثائق قليلة جدا تتعلق بوادي المخازن. في حين أن الأرشيفات الأوروبية تضم عشرات التقارير والمذكرات والرسائل عن ظروف تنظيم الحملة

(*) بحث ألقي يوم الخميس 25 غشت بمدينة العرائش بمناسبة أسبوعها الثقافي الذي خصص لتخليد معركة وادي المخازن.

(1) أحمد بوشرب، مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي. المناهل ع [illegible] ص 32 ـ 81.

والاتصالات الدبلماسية التي تمت بين الأطراف المعنية. وعن أعداد الجنود والعمليات العسكرية وما خطط لها من تكتيك واستراتيجية...

حقيقة أن هذه الوثائق والمصادر الأجنبية تتوفر على عيوب كثيرة كتحيز محرريها وحقدهم على المغرب والمغاربة. أو كالدفاع عن مصالح المستعمر وتفسير الانتصار أو الهزيمة بالمجهود البرتغالي وحده دون أخذ ردود الفعل المغربية بعين الاعتبار... الخ إلا أنها تبقى مع ذلك أداة عمل مهمة توفر مادة علمية محترمة خصوصا إذا اتخذ المؤرخ الحيطة اللازمة منها. فهي تكمل مصادرنا وتسلط الأضواء على جوانب كثيرة بقيت غامضة من تاريخ بلدنا. لذا يصبح من اللازم علينا إتمام جمعها وترجمتها ونشرها.

وخلال بحثي هنا لن أتعرض إلا للمصادر المتعلقة بمعركة وادي المخازن لأن الوثائق معروفة نسبيا بسبب نشرها المبكر ابتداء من (1905) على يد الباحث الفرنسي (هنري دو كاستر Henri de Castries) ومساعديه ضمن السلسلة الشهيرة (المصادر الدفينة المتعلقة بتاريخ المغرب) ولكونها استغلت في دراسات مغربية تتعلق بمعركة وادي المخازن وسأكتفي هنا بالإشارة إلى بعض ساهمات المصادر البرتغالية معتمدا في ذلك على مصدر معاصر للمعركة هو : «حملة الملك دون سبستيان على إفريقيا»

« Jornada del Rey Dom Sebastião à Africa »

وأود قبل الحديث عن هذا المصدر التأكيد على الملاحظتين التاليتين المتعلقتين بمدى اهتمام البرتغاليين، قدامى ومحدثين، بمعركة وادي المخازن :

1 - إن ما يثير انتباه متتبع الكتابات التاريخية المتعلقة بمعركة وادي المخازن قديما وحديثا بالبرتغال هو وجود سكوت غريب عنها رغم خطورتها على تطور البرتغال بعد 1578. ورغم أن آثارها الفكرية على وجه الخصوص بقيت قائمة إلى يومنا هذا. فالمعركة لم تكن موضوعا خاصا إلا لمصدرين برتغاليين فضل مؤلف أحدهما أن يبقى اسمه مجهولا. هذا المصدر الذي سأعود إلى تحليل مادته العلمية. وآخر حرره (جرونيما دو مندونصا [Jerónimo de Mendonça] تحت العنوان التالي : «الحملة على إفريقيا» « Jornada de Africa » وتنطبق نفس الملاحظة على الدراسات. فما هو مرتبط بالمعركة بشكل مباشر قليل جدا وينحصر في المقالة السريعة أو الدراسة السطحية (2). لذا لم أقف ولو على مقال واحد أو دراسة واحدة حررت بقلم أحد المؤرخين البرتغاليين البارزين. وعلى العكس من ذلك. نجد الدراسات التي تهتم بعهد وشخصية دون سبستيان أو بالتيار الفكري (السباستيانية Sébastianisme) الذي نتج عن إختفائه المأساوي تصل إلى 38 دراسة ومقال على الأقل. الأمر الذي يجعل من هذا الملك الشخصية السياسية البرتغالية التي حظيت بأكبر عناية من طرف المؤرخين البرتغاليين. قدامى ومحدثين. ومست هذه الدراسات جوانب غريبة لم يهتم بها بالنسبة لشخصيات برتغالية أخرى كنفسية الملك أو مدى صحته العقلية والجنسية. وتمت على يد

---

(2) راجع مثلا :

- Aguiar, Fernando, de : Em redor de Alcácer, Porto, 1943
- Dornelas Alfonso : de Ceuta a Alcácer-Quibir, Lisbonne 1925
- Esaguy, Jose de : O Minuto vitórioso de Alcácer Quibir. Lis. 1944.
- Mendonça, Lopes : A batalha de Alcácer Quibir e a perda del Rey D. Sebastião, Rev. Panorama, 1858.

أطباء وعلماء نفس بارزين (3). وقد يتجلى هذا السكوت المقصود عن المعركة والاهتمام الكبير بشخصية الملك فيما يلي :

. فبمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية الرابعة للمعركة لم يكتب ولو كتاب واحد عنها بينما تعددت الدراسات عن سبستيان إلى حد أن دارين مختلفتين للنشر أصدرتا مؤلفين لمؤرخين مختلفين يحملان نفس العنوان المعبر، دون سبستيان قبل و بعد القصر الكبير.

« Dom Sebastião antes e depois de Alcacer Quibir »

وعلى العكس من هذا اهتم المؤرخون البرتغاليون اهتماما خاصا بالهجوم على سبتة سنة 1415. ودار نقاش حاد بين كبار المؤرخين البرتغاليين حول أهم الدوافع التي كانت وراء اختيار تلك المدينة المغربية كأول هدف (4).

كما يتجلى سكوت المؤرخين البرتغاليين عن معركة وادي المخازن في كون المصادر القليلة جدا المتعلقة بها لم تعرف إلا رواجا جد محدود جعلها تصلنا اليوم في نسخ وحيدة، وفي كونها لم تعرف النشر إلا مؤخرا. فالمصدر الذي سأتحدث عنه لم ينشر لأول مرة إلا سنة 1970، وتم ذلك بالمزنيق وليس بالبرتغال !

---

3) – Moura Reives ; Joaquim . El-Rey D. Sebastião, Ensaio biológico. – Coimbra. 1972

4) – Oliveira Martins : Ceuta, in « Os filhos de D. João I » (ed. ion 1975 p. 41 76

– António Sergio : a conquista de Ceuta. - Ensaios, I p. 255-7)

– David Lopes : História de Arzila durante o domínio português (1471-1550 e 1577-1589), Coimbra. 1924 (introd)

– Jaime Cortesão . A Expansão dos portugueses no período Henri quino. Lisbonne 1975) pp. 137-167.

– V. Magalhães Godinho : A Expansão quatrocentista portuguesa (Ceuta e Marrocos) pp. 51-75.

– etc..

ويعود هذا السكوت المقصود عن معركة وادي المخازن إلى السببين الرئيسيين التاليين :

أ ـ لقد كانت المعركة نكسة كبرى بالنسبة للبرتغاليين الذين أعطتهم انتصارات بداية القرن السادس عشر ثقة كبيرة بالنفس، وجعلتهم عظمة المكتسبات المحققة بالمقارنة مع إمكانات بلادهم المحدودة يعتقدون أن ذلك يمثل هبة إلهية لذا راج عند خاصة وعامة الناس أن البرتغاليين أصبحوا يمثلون آنذاك شعب الله المختار (5).

ولقد كان من المنتظر من حملة سبستيان على المغرب أن تعيد الثقة إلى النفوس بعد خيبة الأمل التي سببها التراجع الذي عرفته المكتسبات البرتغالية في عهد سابقه الملك يوحنا الثالث الذي اضطر إلى التراجع أمام زحف قوات الشرفاء السعديين بكل من أكدير وأسفي وأزمور (1541) وأصيلا والقصر الصغير (1555).

ب ـ إسقاط البرتغاليين بسبب تلك الهزيمة الكبرى في وضعية كانوا يعملون باستمرار على تفاديها، وهي الدخول تحت السيطرة الإسبانية لكون فليب الثاني أصبح بعد موت سبستيان الوارث الشرعي لعرش البرتغال. وكان هذا الخوف وراء المكانة الخاصة التي خص بها برتغاليو ذلك العصر سبستيان لأن مولده أنقذهم من تلك الوضعية التي كانوا على وشك السقوط فيها لموت أبيه قبل مولده، لذا لقبه الشعب بـ O. Desejado المحبوب، أو المرغوب فيه. وبما أن موته في عنفوان شبابه (24 سنة) قد أسقطهم في قبضة فليب الثاني فإن فئات

---

5) –Jão de Barros : As Décadas de Ásia II. p. 45 (Lis. 1945)
– Hernani Cidade : A literature portuguesa e a Expansão ultramarina, 1963 (lis.) p. 61

عريضة من الشعب البرتغالي رفضت تصديق وفاته بساحة المعركة واعتقدت أن إهانة الهزيمة فرضت عليه الاختفاء لزمن معين. لذا أضحى سبستيان عند البرتغاليين O. Encaberto أي **المختفي الذي سيعود للظهور من جديد.**

2 ـ الملاحظة الثانية المتعلقة بهذه المصادر البرتغالية تتعلق بأسباب ودوافع تحريرها.

فهذه المصادر البرتغالية تهتم بالمعركة من خلال زاوية خاصة، وهي العمل على تحديد مسؤوليات مختلف الفئات الاجتماعية البرتغالية فيما سقطت فيه البلاد من مشاكل بسبب تلك المعركة. لذا نقف على نوعين متناقضين من المصادر :

ـ نوع ينزل اللوم على رجال الكنيسة وخصوصا منهم الجزويت الذين تكفلوا بتربية وتعليم الملك الصبي، والذين حملوا مسؤولية تنظيم الحملة على المغرب لكونهم اتهموا بتحريض الملك على محاربة المسلمين والتأثير عليه واشباعه بالروح الصليبية. ومن هذه المصادر يمكن ذكر المصدر الذي سأعود بعد قليل لعرض مادته العلمية. وهذا النوع من المصادر يرتبط بالنبلاء.

ـ نوع ثان حاول إلصاق التهمة بالنبلاء والعسكريين ودحض ما حاولت الكتابات السابقة إلصاقه بالجزويت من تهم. ومن هذه المصادر مؤلف الراهب (أمدور ربيلو Amador Rebello) «تاريخ حياة الملك دون سبستيان» (6) « Relação da vida d'El-Rey dom Sebastião »

— FranciscoSales Loureiro, lis. 1977.

الذي كان مؤلفه أستاذ ومرافق سبستيان منذ أن كان صبيا في السادسة من العمر إلى أن نظم حملته على المغرب.

إن المصدر الذي اخترته كنموذج يحمل العنوان التالي : «حملة الملك سبستيان على إفريقيا» « Jornada del-Rey dom Sebastião à Africa » لقد فضل مؤلفه أن يبقى اسمه مجهولا وذلك لأسباب لم يصرح بها وإن كانت مرتبطة بخوفه من بطش فليب الثاني لشدة وطنيته وغيرته على بلاده. وإذا كان المؤلف سكت كذلك عن تاريخ الإنتهاء من التأليف، فإن ما ورد بالكتاب من إشارات إلى بعض الأحداث والأشخاص يؤكد أن التحرير تم ما بين 1588 و 1598 وبذلك يكون تاريخ التأليف غير بعيد عن الأحداث المؤرخ لها.

وفضلا عن معاصرة المؤلف للأحداث، يتوفر هذا المصدر على مزية أخرى تزيده أهمية، وهي أن المؤلف صرح أنه شارك في معركة وادي المخازن وذكر ما يفهم منه أنه كان ممن كانوا يحضرون ديوان الملك.

ويحتوي الكتاب على ثلاثة أقسام تتوزع فيما بينها خمسة وستين فصلا قصيرا. وخصص المؤلف القسم الأول والثاني لعهد الملك سبستيان 1568 ـ 1578 وجاء في 55 فصلا (28 للقسم الأول و27 للثاني) في حين وزع مادة القسم الثالث على عشرة فصول خصصها لعهد الكردنال هنريك (1578 ـ 80).

إلا أن أهم مادة الكتاب تتعلق بحملة سبستيان على المغرب، الأمر الذي يبرر العنوان الذي أعطاه المؤلف لكتابه أو «مذكراته» كما يحلو له أن يسميها. وبالمقارنة مع ما كتب عن معركة وادي المخازن من مصادر، يبدو مصدرنا هذا «... أكمل الأعمال المحررة بالبرتغالية عن الحملة ضد المغرب وأصدقها في نقل الأخبار». بل وأكثر من هذا، فهو المصدر

البرتغالي الوحيد الذي ذكر الظروف الحقيقية التي تم فيها قتل دون سبستيان...» (7).

وإذا كان صاحب هذا المصدر قد تبنى منهجا كرنلوجيا بسيطا تتبع بواسطته تطور مشروع سبستيان منذ أن كان مجرد فكرة في ذهن صبي إلى أن انتهت إلى المصير الذي نعرفه، فإني عملت على استخراج المواد التي تتعلق بالمحاور الرئيسية التي يدور حولها الكتاب. وكانت أربعة :

1 ـ المحور الاول، ويتعلق بأوضاع المغرب والبرتغال قبيل الحملة.

لقد حاول المؤلف أن يقنعنا بأن الحملة كان ينتظرها مصير واحد، هو الهزيمة لأنها أعدت في غياب هياكل سياسية وإدارية قادرة على تسييرها والإشراف عليها. وفي غياب هياكل مالية في مستوى حجم الحاجيات التي تتطلبها الحملة. وفي غياب مخطط عسكري واضح واستراتيجية محددة مسبقا ! لقد كان كل شيء، يقول المؤلف، يتم حسب هوى الملك الذي لم يكن النبلاء والمستشارون يجرؤون على معارضته أو مجرد مناقشة أفكاره وآرائه. ولقد أطال المؤلف بأسى كبير في تعداد حالات الرشاوي واستغلال النفوذ والاستيلاء على أموال الدولة التي أضحى الوزراء وكبار المسؤولين البرتغاليين يقومون بها بدون أدنى خوف أو خجل (8).

وأكد المؤلف كثيرا على تفشي الرذائل بين البرتغاليين الذين اعتبرهم جد مخالفين للأجيال السابقة من ناحية الأخلاق والقيم، وحمل

(7 –Jornada del Rey ... op. cit. p. XXXIX (introduction de l'éditeur F.S. Loureiro).
(8 – Jornada... op. cit. p. 43

إنشاء إمبراطورية واسعة وما نتج عنها من انكباب على جمع الأموال، ولو بطرق غير مشروعة، واختلاط البرتغاليين بشعوب مختلفة، مسؤولية ذلك الانكباب على الرذائل. (9) وكانت غاية المؤلف من هذا العرض إقناعنا بالتبرير الذي أعطاه للنهاية التي عرفتها الحملة. والتي جعلها تبدو كعقاب إلهي وإنذار بأن ما ينتظر البلاد سيكون أسوء إذا ما تغافل البرتغاليون عن اتخاذ العبرة (10).

ومن جهة أخرى، ذكر أنه إذا كان النبلاء قد استجابوا لنداء ملكهم، فإن فئات عريضة من الشعب البرتغالي رفضت المساهمة في مغامرة الملك الشاب، وامتنعت عن القيام بالخدمة العسكرية معتمدة في ذلك على الرشاوي (11).

وكانت الصورة التي تركها لنا المصدر عن المغرب جد مخالفة. فلقد أكد أن المغاربة ما إن علموا بعبور سبستيان البحر إلى بلادهم حتى التفوا حول ملكهم وتقاطروا على الهبط من كل الجهات لأنهم تنبهوا إلى أن حملة الملك البرتغالي «... لا تهدف إلا إلى الاستيلاء على أراضيهم وأسر نسائهم وأبنائهم لذا هبوا للمشاركة في تلك الحرب حتى من المناطق الأشد بعدا بداخل إفريقيا...» (12). وأطال المؤلف كذلك في ذكر إستعدادات المعتصم العسكرية والدبلماسية لمنع تنظيم الحملة أولا ثم لإفشالها ثانيا (13).

9) - Ibid p. 11
10) - Ibid pp. 67 y 124
11) - Ibid pp. 59
12) - Ibid p. 84
13) - Ibid p. 81, 53 – 54

وعن أوضاع البلاد السياسية سلط المؤلف الأضواء على الحرب الأهلية التي عرفتها بلادنا بعد دخول المعتصم إلى المغرب (14) وتمكنه من طرد ابن أخيه من السلطة. ورغم أن معلومات هذا المصدر البرتغالي دون ماتوفره مصادرنا من دقة وتفاصيل، فإن الاعتماد عليه لا يخلو من فائدة خصوصا فيما يخص أحكام القيمة التي أصدرها عن كل من المعتصم والمتوكل وأحمد المنصور.

ولقد أرجع المؤلف انتصار المعتصم على ابن أخيه إلى :

ـ ذكائه وخبرته بشؤون الحرب، الأمر الذي أكد عليه المؤلف عدة مرات (15) وجعله كذلك من أهم أسباب انتصار المغاربة بوادي المخازن (16).

ـ حب المغاربة للمعتصم وارتباطهم به وحقدهم على المتوكل. وكان المؤلف كذلك على اطلاع واسع بالتنظيمات العسكرية التي كان المغرب يعتمد عليها في عهد المعتصم، إذ ذكر مختلف الفرق العسكرية وأعدادها وأصل جنودها (اندلسيون، علوج...) وأسلحتها، وحتى اسماء أهم قوادها، الشيء الذي لا يرد في المصادر السعدية بنفس الدقة والتفاصيل (17).

وأخبرنا مؤلف هذا المصدر عن ظروف مبايعة المنصور الصعبة وعن قتله لأشهر قواد جيش الأندلس، الدغالي، مما يجعل هذا المصدر يوفر مادة علمية لا تخلو من فائدة، انفرد مؤرخ عهد المنصور، عبد العزيز الفشتالي بذكرها (18).

(14 – Ibid pp. 27 – 29

(15 – Ibid pp. 28, 83, 91, 105

(16 –Ibid, 105

(17 –Ibid 81, 83

(18 – Ibid 129, 134 عبد العزيز الفشتالي : مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تحقيق د. عبد الكريم كريم، الرباط (بدون ت) صص 41 ، 47.

وعن الأوضاع الديموغرافية أكد المؤلف على كثرة المغاربة الذين كانوا ينتشرون في كل مكان، والذين شبه تكاثرهم بتكاثر النحل! (19).

2 ـ المحور الثاني ويتعلق بالحملة التي تمثل القسم الأكبر من مادة هذا المصدر.

فلقد تعرض بكل تفصيل إلى استعدادات كل من سبستيان فور عودته من (كوادلوب) التي التقى بها بخاله فليب الثاني إذ «... أمر بترتيب شؤون الحملة بأكثر ما يمكن من السرعة بدءاً بتوفير الأموال... » (20).

وعن الترتيبات التي قام بها عبد الملك بعد علمه بنوايا سبستيان ذكر أنه أحسن استغلال الوقت (ثلاثة أشهر)، فبعد تهدئة بعض أطراف السوس التي بقيت وفية لإبن أخيه المتوكل «... عزز حاميات الموانئ التي توقع أن النصارى قد ينزلون بها، فجعل برأس غير (Guir) (فونتي)، قائد قواده سعود (Sauda) على رأس ألف أندلسي وألفين من المغاربة (mouros) المشاة. وأوفد ابن أخيه (Dani) إلى ضواحي مازيغن على رأس 4000 من الفرسان والمشاة. وبالعرائش جعل حاجبه محمد (M. Hayarcom) على رأس أربعة آلاف أخرى. ولما علم بنزول الملك بأصيلا أوفد أخاه المولى أحمد يقود 3000 رمح و 2000 من مستعملي البنادق الراكبين وأمره بالبقاء باستمرار على مرآى من محلة النصارى واقتفاء أثرهم وإقلاق راحتهم...» (21) ويضيف المؤلف أنه بعث برسائل

---

(19) - Ibid p. 84

(20) - Ibid p. 45

(21) - Ibid p. 81

إلى كل الأقاليم يحث السكان فيها على الجهاد. الأمر الذي جعله يكون جيشا قويا تحرك به نحو القصر الكبير...» (22)

وتعرض المؤلف كذلك لمحاولات عبد الملك إبعاد سبستيان عن مشروعه وتحذيره من المتوكل الذي احتمى به. مؤكدا على رغبته في السلم. وأورد المؤلف ترجمة إحدى رسائل هذا السلطان (23).

وتتبع المؤلف بدقة كبيرة تحرك الجيشين من كل من لشبونة ومراكش إلى موقع المعركة الذي خصه بوصف دقيق.

وزودنا هذا المصدر البرتغالي بأعداد الطرفين. فلقد ذكر أن الجيش البرتغالي كان يضم 20 000 محارب منهم 3 000 ألماني و 2 000 إسباني و [illegible] إيطالي. واصطحب سبستيان معه 12 مدفعا. ويلاحظ أن مصدرنا يختلف في هذه الأعداد مع المصادر البرتغالية الأخرى التي تجعل عدد الجنود يتراوح ما بين 14 ألف و 20 ألف. وعدد المدافع 36.

وفضلا عن هؤلاء المحاربين كان إلى جانب محمد المتوكل حوالي 400 فارس (24).

وأكد المؤلف كثيرا على كثرة أعداد المغاربة لرغبتهم في الاستشهاد وحرصهم على إفشال مخطط الملك البرتغالي الذي كان يهدف إلى الاستلاء على أراضيهم وأسر زوجاتهم وأبنائهم... وكان الجيش المغربي مكونا على الشكل التالي : 66 000 من الفرسان. 44 000 من المشاة. وكانت قطع المدفعية 22. وأورد المؤلف تفاصيل مهمة عن مختلف عناصر الجيش المغربي. وأعدادها وأسلحتها ورؤسائها... (25) وللتعبير عن كثرة

(22) ـ نفس معطيات الهامش السابق.
(23) – Ibid p. 54
(24) – Ibid p. 73
(25) – Ibid pp. 83-85

أعداد الطرفين كتب: «... إن مشاهدة عظمة الجيشين الإسلامي والمسيحي وعدد الرماح والخيام ولمعان السلاح والضجيج والطلقات وأصوات الجنود تجعل القلوب ترتجف وألوان الوجوه تتغير، وتجعل كل واحد يخاف على مصيره حتى ولو كان فريقه هو الأكثر أمنا...» (26) ولعل أهم الإضافات التي زودنا بها المصدر عن المعركة تتلخص فيما يلي:

- لقد كان الهدف الأصلي للحملة هو احتلال العرائش، فهذا ما تم الاتفاق عليه بين سبستيان وخاله وبينه وبين المتوكل الذي التقى به بطنجة، وكان الانطلاق من أصيلا يهدف حسب نفس المؤلف إلى الاتجاه برا إلى هذه المدينة المغربية، «وذلك رغم أن المتوكل طلب منه عددا من الجنود والمراكب للذهاب إليها بحرا واحتلالها لتسهيل دخول سبستيان إليها، إلا أن الملك اصر على الالتحاق بها برا...» (27).

- وأمام كثرة المغاربة واستعدادهم للمواجهة، بدأ البرتغاليون، يقول المؤلف، يفكرون في الانسحاب والفرار إلى سفنهم. وذكر المؤلف أن المتوكل كان من بين المدافعين على هذا الرأي (28). وإذا كان الملك وبعض كبار ضباطه قد عارضوا هذا الاقتراح، فإن سبستيان تبناه صباح يوم المعركة (4 غشت) وأعطى فعلا أوامره «... وشرع في التحرك حول النهر قصد عبوره والاتجاه نحو العرائش التي توجد على بعد ثلاثة

---

26) Ibid pp. 90-90 –

27) Ibid p. 76, 77 –

[illegible] Ibid p. 93 –

(الفواش) (29) مصمما العزم على الاصطدام مع العدو إذا ما حاول سد الطريق في وجهه...» (30).

ـ وسلط المؤلف أضواء كاشفة عن التكتيك الحكيم الذي اتبعه المعتصم وضباطه. والذي انتهى بتطويق كل الجيش البرتغالي تطويقا كاملا إذ لم يستطع الفرار إلا 40 شخصا بينما قتل أو أسر الباقون أو غرقوا.وهذه إحدى الفقرات التي عبر فيها المؤلف عن إعجابه بخبرة عبد الملك الحربية : «... وعند طلوع فجر ذلك اليوم الرابع من غشت شرع في ترتيب جيشه فجعل الرماة ـ المشاة على شكل هلال. وجعل الأندلسيين في موضع والمرتدين (العلوج) في آخر. بينما وضع الأهالي في محل آخر لكي يتعاونوا فيما بينهم ولكي يتنافسوا في الاستبسال. وفي قرني الهلال وضع كوقاية ▬ 3 فارس. أقول 000 10 فارس. وقسم باقي الفرسان إلى فرق صغيرة شرعت في الابتعاد عن ساحة المعركة والانتشار بعيدا بالسهل لتنتهي اعتمادا على كثرتها إلى تطويق الجيش المسيحي من كل الجهات واحتوائه. ورغم أن المسلمين بطبعهم لا يلتزمون بأي نظام خلال معاركهم، فإن عبد الملك الذي كان جنديا متمرنا وذا تجربة وخبرة في شؤون الحرب استطاع الحفاظ خلال ذلك اليوم بكل دقة على النظام...» (31).

3 ـ وكان المحور الثالث يتعلق بنتائج هذه المعركة الكبرى.

فبالنسبة للبرتغال تعرض المصدر لنتائج المعركة السياسية. ولقد

---

29) ـ تقدر مسافة كل واحدة بخمسة كيلو ميترات ونصف.

30) – Jornada.. po cite p. 101

31) – Ibid p. 96

خصص المؤلف لها القسم الثالث والأخير من كتابه حيث تعرض لفترة حكم الكاردنال هنري الذي بويع بعد وصول خبر موت سبستيان (1578 ـ 1580)، ولدخول البرتغال تحت الوصاية الإسبانية بعد موت الكاردنال العجوز وتمكن الجيش الإسباني من القضاء على المقاومة البرتغالية الضعيفة.

أما عن النتائج المالية، فلقد أكد المؤلف على إفقار البلاد بسبب تلك الحملة لكثرة ما تطلبته من أموال، ولما حمله النبلاء معهم من أموال وأحجار كريمة ولما دفعه الأسرى البرتغاليون لتحرير أنفسهم وتحرير ذويهم «... إن السلب والغنائم المحصل عليها بتلك المعركة يمثل أهم ما تم الحصول عليه بكل معارك العالم المعروفة، لأن في غيرها تحدد أهمية الجيش بالسلاح والذخيرة في حين أن في هذه لم يكن الرجال الذين التحقوا بساحة المعركة يبحثون إلا عن راتب أكيد أو عن النصر أو عن التفاخر بالجاه والنفوذ، لذا حملوا معهم ثروتهم من الذهب والفضة جاعلينها زينة، وذلك بدون خوف من أن تغني أعداءهم. إلا أنهم أخطأوا في الأخير لأنهم تركوهم أغنياء بينما تركوا مواطنيهم فقراء وبيوتهم إما مفقودة أو مرهونة أو جد متواضعة لكون الذين شاركوا في تلك الحملة القاسية لم يكتفوا بحمل ما كان بأيديهم من أموال بل ذهبوا مزينين. هذا فضلا عن مبالغ الفديات الباهضة التي أضيفت فيما بعد إلى كل هذا لتجعل منهم أناسا فقراء ومحرومين من كل شيء...» (32).

أما بالنسبة للمغرب، فإن مصدرنا هذا يسلط أضواء مهمة على النتائج التي تلت مباشرة هذا الانتصار كظروف مبايعة المنصور. إلا أن

---

32) Ibid pp. 127, 128 -

أهم إضافة تتمثل في ذكر المؤلف لأهم الأسباب التي شغلت المنصور عن استغلال اندحار البرتغاليين لتحرير الثغور التي كانت بأيديهم وخصوصا تلك التي كانت قريبة من موقع المعركة، وأعطانا تبريرات أهمها :

- أسباب شخصية مرتبطة بالمنصور الذي جعله أقل معرفة بشؤون الحرب من المعتصم، وأقل شجاعة منه (33).

- كون مبايعة المنصور بساحة المعركة لم تكن أكيدة، فلقد ذكر المؤلف أنه اضطر إلى قتل قائد جيش الأندلس، الدغالي «... وآخرين كان يشك في إخلاصهم...» وإن كان بشكل دون دقة ما ورد بمناهل الصفا (34).

- خوفه من أن يبايع المغاربة ابن عبد الملك، وإن لم يذكر أنه كان بالجزائر (35).

- خوفه من تدخل الأسطول البرتغالي الذي كان مستعدا للتدخل.

- خوفه من استغلال فليب الثاني لهجومه على الثغور للتدخل بالمغرب (36).

4 - وكان المحور الأساسي الرابع في هذا المصدر يتعلق بتحديد المسؤوليات فيما حل بالبلاد.

ويبدو من خلال الكتاب أن المؤلف حمل مسؤولية الفاجعة للأطراف التالية :

(33 - Ibid p. 129, 134

(34 - Ibid pp. 129-135.

(35 - Ibid p. 134

(36 - نفس معطيات الهامش السابق.

أولا . الملك دون سبستيان الذي أطال المؤلف في ذكر الأخطاء التي ارتكبها والتي نسب إليها نكسة البرتغاليين. ومن هذه الأخطاء :

- إنعدام السرية في تجهيز الحملة الأمر الذي جعل «... كل دواوير إفريقيا تعلم بنواياه» (37) وهذا ما أعطى للسلطان مدة ثلاثة أشهر لجمع قواه وتحصين سواحل بلاده. ولقد أكد المؤلف على أهمية عامل المفاجأة الذي جعل منه عاملا أساسيا في انتصار البرتغاليين بسبتة سنة 1415. ولقد سخر من تماطل سبستيان بقادس وحضوره رفقة جيشه لحفلات هناك لبضعة أيام (38).

- إرتكابه لعدة أخطاء تكتيكية كتحركه البطيء، وإقامته بأصيلا، ثم تخليه عن مشروعه الأصلي القاضي بالاكتفاء باحتلال العرائش، ورفضه لاقتراح المتوكل الرامي إلى احتلالها (39) اتخاذه لقرار اعتبر مغامرة كبرى، وذلك بالتحرك برا من أصيلا إلى العرائش، إصراره على إعطاء الأوامر دون أن تكون له دراية بشؤون الحرب (40).

- عناد سبستيان الذي لم يكن يسمع رأي أحد. ومن الامثلة التي أوردها المؤلف :

- إصراره على تنظيم الحملة ضد المغرب رغم معارضة عمه وخاله وفئات عريضة من الشعب لها (41).

---

37) – Ibid p. 49
38) – Ibid p. 74
39) – Ibid p. 76
[illegible] – Ibid pp. 41, 76
41) – Ibid pp. 41, 65, 67...

- رفضه لطلبات الصلح والتفاوض التي قدمها المعتصم بطريقة مباشرة أو بواسطة فليب الثاني (42).

- إصراره على التخطيط للمعركة رغم عدم درايته. ولقد ذكر المؤلف أن ذلك دفع بعض كبار النبلاء إلى التفكير في اعتقاله ما بين أصيلا وموقع المعركة (43). ولقد عبر عن قرار الملك القاضي بالالتحاق بالعرائش برا بالعبارات التالية : «... شرع في التوغل في المناطق الداخلية على رأس محلته، متخذا بذلك قرارا جريئا ومليئا بالمخاطر ومخالفا لكل عقل ومنطق...» (44).

غير أن المؤلف كان أبعد الناس عن جعل الملك المسؤول الأول والوحيد عن الهزيمة، بل على العكس من ذلك، جعل منه الضحية الكبرى ! فهو يرى أن سبستيان رغم كثرة أخطائه، لم يكن إلا ضحية تمثل من خلالها عقاب الله للبرتغاليين. وحاول المؤلف إقناع القارئ بمسؤولية فئات أخرى.

ثانيا : رجال الدين وخصوصا الجزويت، الذين كانوا يشرفون على تربية الملك، والذين أثروا عليه وجعلوه يؤمن إيمانا أعمى بأنه بإمكانه غزو المغرب ومحو الإسلام منه... وهكذا أضحوا متحكمين في الملك الذي أبعدوه عن النبلاء، وعملوا على دفعه بحجج واهية إلى عبور البحر إلى إفريقيا وجعلوه يعتقد أنه بإمكانه أن يصبح إمبراطور موريطانيا...» (45) ولقد أكد المؤلف كثيرا على أن الملك أضحى مجرد

---

(42) – Ibid pp. 55, 54
(43) – Ibid p. 77
(44) – Ibid p. 85
(45) – Ibid p. 15

آلة بيد أولئك الرهبان الذين استولوا لذلك على السلطة وعلى أهم موارد الدولة (46).

ثالثا : النبلاء ومستشارو الملك الذين جعلهم خوفهم على مناصبهم ومكانتهم لا يجرؤون على معارضة مشاريع الملك أو مجرد مناقشتها. وفي هذا كتب «.. لقد استمعوا جميعا إلى قرار الملك، وبسبب خضوعهم الكبير، وضعف عزيمتهم لم يجرؤ ولو واحد من أولئك الرهبان وكبار النبلاء على معارضته، بل على العكس من ذلك أقبلوا عليه لقلة احترامهم لأنفسهم وشدة خجلهم وخوفهم وقبلوا يديه وكأنهم له شاكرين على دفعه إياهم إلى الموت...» (47).

الخـــاتمة :

إن الكتاب الذي انتهينا من عرض مادته العلمية المتعلقة بمعركة وادي المخازن ينحصر في نهاية الأمر في دفاع مؤلفه عن أطروحة ، فهو يعتقد أن الحملة على المغرب وما تولد عنها من نتائج وخيمة على البرتغال هي نتيجة لتعليم سيء لقن لشخصية عنيدة كانت تحكم شعبا أفرط في ارتكاب المعاصي والخطايا ولذلك يرى المؤلف أن كل ما حل بالبرتغال من هزيمة وإهانات هو عقاب إلهي.

إلا أن قراءة هذا المصدر المهم، تفرض ملاحظتين :

الملاحظة الأولى : يتجلى بكل وضوح أن المصدر المذكور يرجع الفشل البرتغالي إلى عوامل برتغالية محضة، ولا يدخل في حساباته وتعليله موقف المغاربة من الحملة وإصرارهم على إفشالها مهما

– Ibid p. 17 (46

– Ibid p. 49 (47

كانت التضحيات لتوقعهم لخطورتها. فالمصدر من هذا الجانب لا يختلف عن باقي المصادر البرتغالية المتعلقة بالغزو البرتغالي لسواحل بلادنا. والتي تفسر تراجعه بأسباب مرتبطة بالبرتغال دون اعتبار ردود الفعل المغربية التي كانت بكل تأكيد وراء ذلك التراجع. ومعلوم أن هذه المصادر غرت كل المؤرخين الأجانب الذين درسوا هذا الموضوع، وعلى رأسهم (روبير ريكار) في مقالته الشهيرة، سياسة الاحتلال المحدود بشمال إفريقيا، (48).

R. Ricard : la politique de l'occupation restreinte en Afrique du Nord.

الملاحظة الثانية :

لقد كان المصدر رغم لومه للملك وتأكيده على كثرة ما ارتكبه من أخطاء يهدف في الحقيقة إلى تبرئة ذمته، وإلى جعله مجرد ضحية أساتذته ومستشاريه وشعبه، وخصوصا جعله الشخصية التي شاء الله أن يتجسد من خلالها عقابه للبرتغاليين : وبذلك يكون المؤلف قد سقط في التعليل الغيبي البسيط. إلا أن دراسة الظروف الموضوعية التي كانت وراء تنظيم الحملة تسمح بالتخلي عن هذا المنظور التقليدي الذي يجعل من الفرد صانع التاريخ، وباعتباره مجرد نتاج لظرفية اقتصادية وسياسية وفكرية معينة.

وكانت تلك الظرفية ببرتغال النصف الثاني من القرن السادس عشر مرتبطة بتراجع البرتغاليين بكل مكان من امبراطوريتهم التجارية مباشرة بعد الأزمة الاقتصادية العالمية التي اندلعت حوالي 1520 ـ 1521

(48 Revue : Annales d'histoire économique et sociale, 1937 pp. 426-453

(49). ذلك التراجع الذي خلق أزمة اقتصادية حادة جعلت النبلاء ورجال الكنيسة على حد سواء يدفعون الدولة إلى تبني غزو المغرب لتخطي تلك الأزمة الاقتصادية. فإذا كان دون سبستيان قد قام بالهجوم الفاشل سنة 1578، فإن مجلس الكورتيس أوصى بذلك وبالحاح كبير منذ سنة 1562 ـ 1563 (50). وتجلى ارتباط النبلاء بالمغرب وعدم اطمئنانهم للسياسة الدفاعية المتبعة به من قبل جد سبستيان في معارضتهم لتفكيره في التخلي عن أسفي وأزمور التي تجلت من خلال الأجوبة التي أجابوا بها على الإقتراح الملكي (1534) (51)، كما تجلت أيضا في حماس هذه الفئة الاجتماعية حين محاصرة الغالب لمازغن (1562) (52). وبذلك يصبح من اللازم إعادة النظر فيما يخص الأسباب الحقيقية التي كانت وراء مسؤولية تنظيم الحملة ضد المغرب. فلقد اصبح المسؤولون البرتغاليون والفئات ذات النفوذ يرون في غزو المغرب حلا لمشاكلهم الاقتصادية والاجتماعية. وهذا موضوع آخر لا يزال في حاجة إلى دراسة خاصة.

فاس   أحمد بوشرب

(49 Victorino Magalhães Godinho – Le tournant mondial de 1517 – 1524 et l'Empire portugais. Studia. n° 1. 1958 (Lisbonne) pp. 184 – 199
– Les fluctuations économiques au XVI° siècle, problèmes de diagnostic et d'interprétation. Económia N° IX pp. 109 – 116
– Os Descobrimentos e a económia mundial. Lisbonne. 1965. Vol II p. 592 et suiv.

[illegible] – Jornada... op. cité p. XV (introduction)

(51 Sources Inédites de l'Histoire du Maroc : 1° série, Portugal. Tome II pp. 637 – 702, tome III pp. 1 – 14

وعن هذه الرسائل المتبادلة بين الطرفين وموقف النبلاء من اقتراح الملك، راجع دراستنا : دكالة والاستعمار البرتغالي ـ فصل 3، باب 4 (تحت الطبع)

(52 Jornada... op. cité pp. XII – XIII

اللغة العربية بين الرواية والتقعيد

د. صلاح الفرطوسي

لم يشهد تاريخ العربية حدثا مؤثرا فيها كالإسلام فقد كان له فضل تقرير خلودها ونقلها من لغة محدودة برقعة جغرافية معينة إلى لغة عالمية يتحدث بها أقوام من أجناس مختلفة فقد حولها من لغة قوم إلى لغة دعوة عالمية فكانت مستودع ما نتج عن تلك الدعوة من فكر وحضارة (1).

ولم يكن الفتح الإسلامي غزوا تحمل راياته المغول. إنما كان فتحا لنشر العقيدة السمحاء والدين الحنيف لذا كان على الفاتح بعد أن توطدت له الأمور أن يفقه الناس بشرائع الدعوة الجديدة وأحكامها. إذ أنها بشرت بكل المثل والقوانين الإنسانية الرائعة فكان عليه أن يقوم بمهمة تعليم من آمن بدعوته. ولم تكن هذه بالمهمة السهلة لذا تمثل فيها الإيثار ونكران الذات.

---

(1) العربية، ج. فك، نحو وعي لغوي 130.

ومر القرن الأول لهجرة الرسول (ص) وليس للناس من هم سوى حفظ القرآن وتفهم معانيه ومعرفة أحكامه وأداء قراءاته. والقراءة علم يعتمد على الرواية أولا فلا يجوز لأحد أن يقرأ القرآن أو يقرئه لغيره إلا بعد أن يأخذه عن مقرئ ثم يقرأه عليه حتى يجيزه ذلك المقرئ. إذ أن القراءة تعني أداء القرآن أداء لا يقوم على منطق أو اجتهاد أو تأويل. إنما يقوم على الرواية المتواترة (2) وكان تفهم معاني ألفاظ القرآن من الهموم التي ليس لها من سبيل سوى معرفة ما أثر عن العرب. لذا كانت اللغة تأخذ مكانها في مجالس الإقراء حتى ان ابن عباس كان يحث الناس على الرجوع إلى الشعر لمعرفة غريب القرآن لأنه ديوان العرب (3).

وهكذا كانت الشرارة الأولى أو بداية الانطلاق لجمع مواد اللغة وتقعيدها إذ أنها وسيلة فهم أقدس النصوص وهو القرآن الكريم.

طريقة الرواية ومصادرها في المصرين

ولم ينشط جمع المادة اللغوية في مصر من الأمصار الإسلامية إلا في البصرة والكوفة، وكان لرواة البصرة منهج في الرواية يختلف عن منهج رواة الكوفة كما كان لعلماء البصرة مسلك خاص في التقعيد يختلف عن مسلك علماء الكوفة (4). وعلى الرغم من عدم اتفاقهم في منهج الرواية والتقعيد فقد بلغت القواعد التي وضعها النحاة مستوى من الكمال جعلها جديرة بالإعجاب في جميع مظاهرها (5).

---

(2) دروس في المذاهب النحوية [illegible]

(3) الفاضل ، 10. رواية اللغة [illegible]

(4) النقد اللغوي عند العرب ، 30 ـ [illegible].

(5) العربية ، [illegible]

وقد مد الدرس النحوي جذوره في البصرة بعد أن كان وليدا على يد أبي الأسود الدؤلي (ت 69 هـ) (6). وكانت هذه المدينة من أهم مدن العراق، تقع في أحد جوانبها على حافة الصحراء ويقع على بعد بضعة أميال منها سوق اسمه المربد يجتمع فيه أهل البادية من شتى القبائل العربية يحملون معهم ما تجود به أنعامهم للتجارة وتبادل المنفعة مع أهل البصرة. وكانت هذه السوق من أهم المنابع التي ارتوى منها رواة اللغة في هذا العصر، إذ كان الرواد أعرابا بفطرة الصحراء وبكرها يحملون معهم سليقتهم اللغوية التي جبلوا عليها إذ وجد رواة اللغة وعلماؤها في رواد السوق بغيتهم إذ أن البداوة عندهم هي مقياس الجودة والسلامة (7).

وما من شك في أن هذه السوق كانت امتدادا لأسواق العرب في الجاهلية لذا لم تكن محطة لتبادل المنفعة فحسب إنما كانت من أهم نوادي العراق الثقافية فكان شعراء العصر يتبارون فيها ويطلون من نتاجهم بها فهي مكان مناسب للشهرة يجدون فيه وسيلة إعلامية ممتازة، وقد نشبت فيها أعظم المعارك الأدبية في العصر الأموي. ولم يكن غريبا أن تسمع فيها أصوات أغلب شعراء ذلك العصر. كما أنه لم يكن غريبا أن تجد في أروقتها وطرقاتها أكبر رواة العربية وعلمائها إذ كان يجد فيها مبتغاه من تحصيل للمفردات وعلم بغريب اللغة كما كان يلحظ مخارج الحروف وطرق الأداء وسلامة الإعراب عند الرواد (8).

---

(6) المزهر 2 / 398 وانظر أيضا في ترجمته الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي 11 - 40.

(7) النقد اللغوي عند العرب 30.

(8) رواية اللغة 41.

وللأعراب المربد مكانة خاصة في المعجم اللغوي وفي التراث العربي فلا غرابة أن تنتشر في كتب اللغة والنحو على أسماء كثير من الأعراب فأبو المهدي والمنتجع يروي عنهما عيسى بن عمر (ت 149 هـ) (9) وأبو عمرو ابن العلاء (ت 150 هـ) (10) وغيرهم. وكان للأعراب يد طويلة فيما يجوزه الشيخ في المسائل التي تتعلق بالتركيب اللغوي أو في سلامة الألفاظ. قال الأصمعي (ت 216 هـ) (11)، «جاء عيسى بن عمر الثقفي ونحن عند أبي عمرو ابن العلاء فقال، يا أبا عمرو ما شيء بلغني عنك تجيزه؟ قال، ما هو؟ قال، بلغني عنك أنك تجيز ليس الطيب إلا المسك بالرفع. فقال أبو عمرو، نمت يا أبا عمرو وأدلج الناس. ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب وليس في الأرض تميمي إلا وهو يرفع ثم قال أبو عمرو، قم يا يحيى، يعني اليزيدي (ت 202 هـ) (12) وأنت يا خلف يعني خلفا الأحمر (ت هـ) (13) فاذهبا إلى أبي المهدي فإنه لا يرفع، واذهبا إلى المنتجع ولقناه النصب فإنه لا ينصب...الخ» (14). وعلى هذا فليس غريبا أن يأخذ الأصمعي برواية أعرابي في مجلسه إذ كان يروي بيت أبي ذؤيب،

بأسفل ذات الدير أفرد جحشها فقد ولهت يومين فهي خلوج

فقال له أعرابي إنما هو ذات الدبر وهي ثنية عندنا (15).

---

(9) المزهر 2 / 399، المعلقة المفقودة 137 ـ 138.
(10) المزهر 2 / 398 ، 461، المعلقة المفقودة 187
(11) المزهر 2 / 404-405، تاريخ الأدب العربي 2 / 147 ، 151.
(12) المزهر 2 / 405 تاريخ الأدب العربي 2 / 168 ـ 169.
(13)
(14) ذيل الأمالي 44.
(15) الإبل للأصمعي 100 وينظر معجم ما استعجم 2 / 541.

وأنت تسمع بأسماء كثير من الأعراب الفصحاء كأبي منيع الكلابي وأبي الخطاب البهدلي وأبي سوار الغنوي وأبي مسهر وغيرهم (16).

ولم يكتف علماء البصرة بأعرابها إنما رحل أغلبهم إلى مواطن الفصاحة في الجزيرة العربية وخاصة بعد أن قلت ثقة العلماء بهم (17). وكان أبو عمرو بن العلاء من أوائل الذين رحلوا إلى البادية (18) وحينما أعجب الكسائي (ت 189 هـ) (19) بعلم الخليل (ت 175 هـ) (20)سأله من أين أخذت علمك هذا؟ فقال له، من بوادي الحجاز ونجد وتهامة (21). وقد تابعهما في الرحلة جمهور من علماء العربية في البصرة.

ونتيجة للمنهج الذي اتبعه البصريون في الرواية فقد انحصرت روايتهم اللغوية بقبائل معينة (22).

وما زال الغموض يكتنف مصادر الرواية الأولى في الكوفة وبالرغم من اهتمام علمائها برواية الشعر والأخبار إلا أننا نقف في حيرة أمام الأخبار التي تتعلق بمصادر الرواية. ذكر ابن سلام (ت 232 هـ) (23) أن أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثهم حماد الراوية، (24) (ت

---

(16) المشنث 1 / 84.
(17) رواية اللغة 84.
(18) المصدر السابق.
(19) المزهر 2 / 407، نشأة النحو 116 ـ 118.
(20) المزهر 2 / 401، نشأة النحو 77.
(21) نشأة النحو 116.
(22) المزهر 1 / 211.
(23) المزهر 2 / 402 تاريخ الادب العربي 2 / 152 ـ 153.
(24) طبقات الشعراء 24.

158 هـ) (25). وبالرغم من الأخبار التي تذكر عن حافظة حماد العجيبة فإنه (كان غير موثوق به وكان ينحل شعر الرجل غيره ويزيد في الأشعار) (26) والخبر الذي ينقله ابن جني عن سبب شهرة أهل الكوفة برواية الشعر وأنهم أعلم من أهل البصرة يبدو بعيداً عن الواقع فهو من طريق حماد كما أنه من تلك الأخبار التي يبدو عليها طابع الصناعة القصصية قال، «أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب في طنوج. قال، وهي الكراريس. ثم دفنها في قصره الأبيض فلما كان المختار بن أبي عبيدة قيل له، إن تحت القصر كنزاً فاحتفر فأخرج تلك الأشعار فمن ثم أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة» (27).

ويبدو أن بروز العنصر العربي في الكوفة التي كانت مهجراً لكثير من الصحابة ساعد على اهتمام الرواة بالشعر فضلاً لارضائه (28) وكان من أشهر الرواة في الكوفة حماد الراوية والمفضل الضبي (ت 187 هـ) (29) وأبو عمرو الشيباني (ت 210 هـ) (30) وكان المفضل الضبي من أعلمهم قال عنه ابن سلام، «وأعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة المفضل الضبي» (31) كما ان مجموعته الشعرية الموسومة بالمفضليات أقدم مجموعة صنفت في اختيار الشعر العربي (32) وأبو عمرو الشيباني لا يقل ثقة عنه وكان شغوفاً بجمع أشعار القبائل (33).

---

(25) دائرة المعارف الاسلامية 8 / 3.
(26) طبقات الشعراء 24.(27) الخصائص 1 / 387.
(28) رواية اللغة 196.
(29) المزهر 2 / 405 ، تاريخ الادب العربي 2 / 201.
(30) المزهر 2 / 411 تاريخ الأدب العربي 2 / 202.
(31) طبقات الشعراء 16.
(32) المفضليات 9.
(33) انباه الرواة 1 / 221.

واهتمام أهل الكوفة بالشعر وأخباره قديم بل هم في هذا الجانب أقدم من أهل البصرة حتى أن الإمام علي (ض) كان يلحظ فيهم هذا الميل فقال فيهم «إذا تركتم عدتم إلى مجالسكم حلقا عزين تضربون الأمثال وتتناشدون الأشعار» (34) ومعنى هذا أن هذه المجالس كانت تمثل جانبا هاما في جوانب حياتهم حتى أنها تكاد تكون أهم مما هم فيه في تلك الفترة الحرجة من التاريخ الإسلامي.

وكما كان لعلماء البصرة رحلة إلى الجزيرة العربية فقد كانت لعلماء الكوفة رحلة أيضا. ومن الذين رحلوا إلى البادية أبو عمرو الشيباني والكسائي وغيرهم (35) وكما روى البصريون عن الأعراب روى الكوفيون عنهم أيضا. فأبو الجراح العقيلي وأبو ثروان يروي عنهما الفراء (ت 207 هـ) (36) وأبو مالك معاصر لخلف الأحمر وأبو المكارم يروي عنه ابن الأعرابي (ت 231 هـ) (37) والدبيرية يروي عنه ثعلب (ت 291 هـ) (38) وغيرهم (39) غير أنه لم يكن لهم تشدد البصريين في الرواية فقد ارتضوا لغات الشعراء الذين ينتسبون إلى قبائل جاورت الحضر كأعراب سواد الكوفة وسواد بغداد (40) وعلى هذا نستطيع أن نخلص إلى القول أن وسائل الرواية كانت واحدة في المصرين.

---

(34) رواية اللغة 198.

(35) انباه الرواة 1 / 224، نشأة النحو 116.

(36) المزهر 2 / 412 تاريخ الأدب العربي 2 / 199.

(37) المزهر 2 / 411 تاريخ الأدب العربي 2 / 203.

(38) المزهر 2 / 412 تاريخ الأدب العربي 2 / 210.

(39) الشلة 1 / 85.

(40) مدرسة الكوفة 376.

الدرس النحوي وعلاقته برواية اللغة

الإعراب من أهم خصائص اللغة العربية، وهو سمة من أقدم سماتها وكان لأبي الأسود الفضل الأول في تنقيط المصحف تنقيط اعراب (42). وإذا كان أبو الأسود يمثل الحلقة الأولى في النحو العربي فليس غريبا أن يقوم بهذا العمل الجليل، وهو واحد من القراء المعدودين العارفين باللغة وغريبها ومما يلفت النظر أن التي يحاول متابعة النصوص التاريخية التي تشير إلى نشأة النحو العربي يلاحظ أن الفكرة الأولى للتقعيد لم تكن الغاية منها القضاء على اللحن الذي بدأ يتفشى كما أن الهدف منه لم يكن الحفاظ على القرآن من اللحن إذ أننا حينما نحاول استعراض الجهود التي بذلها النحاة العرب في دراسة تركيب الجملة العربية ومعرفة معاني مفرداتها نستنتج منها أن الغاية الأولى منها كانت محاولة فهم القرآن واستيعاب معانيه ومعرفة أحكامه وتشريعاته (43) إلا أنك حينما تريد استعراض الدرس النحوي وعلاقته برواية اللغة تجد أن الغموض ما زال يكتنف أغلب جوانبها كما أنك حينما تحاول استعراض المصادر التاريخية في هذا الشأن تجد أنها لا تشفي غليلا فـ (أبو الأسود الدؤلي ونصر بن عاصم (توفي في أواخر المائة الأولى للهجرة) (44) وعبد الرحمن ابن هرمز (ت 117 هـ) (45) وضعوا أبوابا وأصلوا أصولا فذكروا عوامل الرفع والنصب والخفض والجزم ووضعوا باب الفاعل

---

(41) العربية ، 3.

(42) الحلقة المفقودة 22.

(43) دروس في المذاهب النحوية 10.

(44) نشأة النحو 71 الحلقة المفقودة 74 ـ 82.

(45) نشأة النحو 71 ـ الحلقة المفقودة 55 ـ 73.

والمفعول والتعجب والمضاف)(46) وهذه الطبقة كلها من القراء المعروفين. وكذلك الطبقة التي تلتها والتي يمثلها عبد الله ابن أبي أسحق (ت 117 هـ) (47) وأبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر والمصادر التاريخية لا تشير إلى اهتمام الجيل الأول بالرواية اللغوية فقد كانت وسيلة تساعد على فهم النص ولم تكن غاية بذاتها إذ أن اعتماد ذلك الجيل في التقعيد قد انصب على القرآن الكريم الذي جاء بأفصح اللهجات وأنقاها وأبعدها عن الحوشي المرفول كما أن هم المقعد الأول كان فهم هذا النص واستيعاب معانيه وكان التقعيد وسيلة من الوسائل التي تساعد على فهم النص أيضا.

وعلى هذا نستنتج أن المراحل الأولى في التقعيد لم تكن مبنية على استقراء اللغة إنما بنيت على أدق الأساليب العلمية في التقعيد فقد اتخذ المقعد من اللغة الموحدة التي يمثلها القرآن الكريم أصدق تمثيل مصدرا لدرسه النحوي. ومعنى هذا أن القواعد التي استنبطوها لا تطرد في اللهجات العربية عموما، وهذا ما كان يعرفه ابن أبي اسحق وغيره حتى أنه حينما سأله يونس (ت 182 هـ) (48) هل يقول أحد من العرب السويق في السويق قال له : (نعم تميم تقولها وما تريد هذا عليك بباب من النحو يطرد وينقاس.... وموطن العجب في هذه الإجابة استنكار ابن أبي اسحق لهذا السؤال واستنكار يدل على منهجه في الدراسة النحوية. فإن لغات العرب واسعة وعديدة والاعتماد عليها يوقع في اضطراب لغوي. ولذلك فإن المنهج السليم في رأيه هو استقراء مستوى معين من كلام

---

(46) طبقات النحويين 2.

(47) المزهر 2 ، 316 نشأة النحو 72 الحلقة المفقودة 107 ـ 134.

(48) المزهر 2 ، 399 ـ 461.

العرب والقياس عليه وغض النظر عن اللهجات المختلفة ومن هنا قال قولته المشهورة عليك باب من النحو يطرد وينقاس) (49). وإن صحت الرواية في مجيء عيسى بن عمر الثقفي إلى أبي عمرو بن العلاء وإنكاره أن يجوز (ليس الطيب إلا المسك بالرفع) (50) فإنه يمكن أن يستنتج منها أنه أنكر عليه خروجه على اللغة الموحدة. فما من شك في أن عيسى بن عمر وهو من أوائل النحاة واللغويين يعرف تماما أن تميما تلتزم الرفع في هذا الموضع وليس أدل على معرفته الدقيقة بلهجة مثل قوله ، لا آخذ من قول تميم إلا بالنبر (فهذا العالم النحوي كان يدرك تمام الإدراك أن تحقيق الهمز صفة من صفات تميم وأن هذه الصفة أوضح الصفات التي اقتحمت حصون اللغة الأدبية المشتركة) (51). وأنت حينما تتابع الآراء التي وردت إلينا عن ابن أبي إسحق تجد أنها تكاد تدور في فلك واحد وهو التأكيد على استنباط القاعدة من اللغة الموحدة والقياس عليها. ولم يكن القياس عنده أو عند غيره من النحاة الأوائل (قياس منطق وجدل بل قياس فطرة وطبيعة. ومن البديهي أن الإنسان يقارن بين الأشياء فيعرف صفاتها المتشابهة والمختلفة ثم يستنبط من هذه الصفات المتشابهة مقاييسه وأصوله) (52).

جاء في كتاب سيبويه (فإن سميت المؤنث بعمرو أو زيد لم يجز الصرف. هذا قول ابن أبي إسحق وأبي عمرو فيما حدثنا يونس وهو

---

(48) المزهر 2/399 ـ 461.
(49) الحلقة المفقودة 114.
(50) ذيل الأمالي 44.
(51) في اللهجات العربية 78.
(52) الحلقة المفقودة 109.

القياس) (53). وجاء فيه في قول الشاعر :

سـلام الله يا مطر عليها وليس عليك يا مطر السـلام

وكان عيسى بن عمر يقول يا مطرا يشبهه بقوله يا رجلا ولم نسمع عربيا يقوله وله وجه من القياس) (54).

وكان ابن أبي اسحق يعترض على الفرزدق لخروجه على القياس برفع (مجلف) في قوله :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجلف

أو بجر ريرٍ في قوله :

على عمائمنا يلقى وأرحلنا على زواحف تزجى مخها رير

وذلك لاحتكامه إلى القياس لوما ينبغي للقاعدة من اطراد بحيث لا يجوز للشاعر مهما كان فصيحا أن يخرج عليها (55) وكذلك كان عيسى بن عمر يحتكم إلى القياس (56) والقياس كما يقول ابن الأنباري (علم بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب) (57) أي أنه الأساس الذي يبنى عليه ما يستنبط من قواعد في اللغة أو صيغ في كلماتها أو دلالات في بعض ألفاظها. وحتى سيبويه حين استعمله أراد به الظواهر

---

(53) الكتاب 1 / 242.
(54) المصدر السابق 2 / 203.
(55) المدارس النحوية 24.
(56) الاقتراح 46.
(57) من أسرار اللغة 8 ـ 10.

التي روى لها عن العرب قدرا من الأمثلة يكفي، ومما يؤسف له أننا لا نستطيع أن نقرر رأيا قاطعا في منهج رواد الدرس النحوي من خلال النصوص التاريخية التي نقلت عنهم كما ان كتب النحو وبخاصة كتاب سيبويه لا تبين لنا منهجا واضحا قد اتبعوه في درسهم غير أننا نستطيع القول باطمئنان أن التقعيد تم في كنف أعظم النصوص وأفصحها وهو القرآن لا في لهجة حي من أحياء العرب إذ أن لكل لغة من اللغات الراقية لهجات ذات صفات متباينة (58) وكذلك اللغة العربية فيها هذه اللهجات المتباينة المختلفة في الألفاظ والصيغ والأساليب.

اللهجات وعلاقتها باللغة الموحدة

ومن الطبيعي أن تتفاوت اللهجات قربا وبعدا عن اللغة الموحدة كما أن وجود هذه الاختلافات لا يعني أنه لم تكن للعرب قبل الإسلام لغة موحدة إذ أن اللهجات المختلفة (59) كانت تظهر في اللغة اليومية والأحاديث العامة (60) فمن البديهي أن هناك فرقا كبيرا بين اللغة الراقية والسليقة اللغوية. فالسليقة هي اللغة التي يتعلمها الطفل في مراحل حياته الأولى ومن المحيط الذي يحيط به وتتطلب منه جهدا كبيرا وزمنا لكي يسيطر على ألفاظها وتراكيبها ويتكلم بها دون أن يفكر بخصائصها وعلى هذا فإن اللغة الراقية هي التي يشعر المتكلم بخصائصها ويفكر بها وهذا الشعور يتفاوت بين المتحدثين بها بحسب

---

(58) من أسرار اللغة 37.

(59) راجع في اللهجات العربية التي لم ترد في اللغة الموحدة سر صناعة الاعراب 172. [illegible] والخصائص 2 / 11 وفقه اللغة 129 والمزهر 1 / 221 - [illegible] وشرح شافية ابن الحاجب 2 / 287.

(60) نحو وعي لغوي 132.

درجة إتقانهم لها (61) والعرب لا يختلفون في هذا الأمر عن بقية الأمم فمنهم من يحسن الكلام بهذه اللغة التي نزل بها القرآن وقيلت فيها أغلب النصوص الأدبية ويختلف هذا الإتقان أو الإحسان من شخص إلى آخر وخير مثال على ذلك أن القرآن الكريم لم يتحد جميع العرب إنما تحدى فصحاءهم (62) كما أن الإسلام لما أراد (أن تتألف قلوب العامة والخاصة مما سمح بأن يقرأ القرآن الكريم ببعض تلك الصفات التي لم يكن في مقدور العامة غيرها فهو وإن نزل بلهجة موحدة ولغة أدبية موحدة أبيح في قراءته الخروج على تلك اللغة الموحدة تيسرا على عامة العرب وتأليفا لقلوبهم) (63). وقد شعر علماء العربية بوجود هذه المستويات المختلفة في الفصاحة بين العرب فتحدثوا عن الفصيح والأفصح والأقل فصاحة والمرذول على الرغم من أنهم أخذوا اللغة عن كل العرب حتى عن الأطفال والمجانين (64).

مركز اللغة العربية الموحدة في الجزيرة العربية

وقد هيأت الظروف مكة لكي تكون مركزا للغة الموحدة بسبب مركزها الديني والاقتصادي والاجتماعي والثقافي قبل الإسلام وبعده. إذ أنه حينما دعت الحاجة إلى اتصال القبائل في مواسم الحج قبل الإسلام ولعقد تلك المؤتمرات الثقافية التي سميت بالأسواق بدأت الحاجة إلى وسيلة للتفاهم تجمع بين تلك القبائل وهنا نشهد ما يحدث عادة بين البيئات المتحرلة حين تبغي الواحدة أن تتخذ مركزا واحدا تتطلع إليه

---

(61) من أسرار اللغة 33 ، 9 .
(62) في اللهجات العربية 40.
(63) في اللهجات العربية 47.
(64) المزهر 1 / 212 وينظر فصول في فقه العربية 80.

لما يمتاز به من نهضة في الثقافة أو نفوذ سياسي، وليس هناك ما يقرب بين تلك الجماعات المتنافرة كاللغة الموحدة التي تجمع شملهم) (65) وطبيعي أنه كان على من يريد الاشتراك في النادي أن يحاول جاهدا أن يتحاشى الصفات المحلية التي تتصف بها لهجته وأن يتحدث إلى القوم بلغة ألفوها جميعا (66).

وأنت حينما تستعرض ديوان الشعر العربي لا تكاد تلمح فيه الصفات اللهجية المتباينة عند الشعراء (67) كالعجعجة والشنشنة والطمطمانية والوتم والكشكشة والتلتلة والفحفحة والكسكسة وغيرها.

وإذا كانت الظروف قد اسهمت في جعل مكة مركزا للغة الموحدة فقد اسهمت أيضا في جعل لهجة قريش وهم سكانها، ترتفع فتكون من خلال عوامل التأثير والتأثر هي اللغة الموحدة بعد أن ارتفعت عن الصفات اللهجية المرذولة في لهجات القبائل (68) إذ أنهما (أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة وذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب واختار منهم محمدا (ص) فجعل قريشا قطان حرمه وولاة بيته فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ويتحاكمون إلى قريش في دارهم. وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب) (69) كما كانت

---

(65) في اللهجات العربية 39.
(66) المصدر السابق 40.
(67) المصدر السابق 43 ـ 44.
(68) الخصائص 2 / 11.
(29) المزهر 1 / 210.

كما ذكر الفارابي (أجود العرب انتقادا للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعا وأبينها إبانة عما في النفس (70).

بين النحاة واللغويين

وإذا عدنا إلى المصنفات الأولى التي وصلت إلينا من علماء المصرين أو التي وصلت أخبار عنها نلاحظ أنه يمكن تقسيمها على مجموعتين مجموعة اهتمت بمفردات اللغة ودلالاتها، ومجموعة اهتمت ببنية اللغة من جوانبها النحوية والصرفية (71) ويبدو أن هذا الاهتمام سار في خطين متوازيين، إذ أن المجموعة الأولى اهتمت بالغريب والنادر وكان الدافع في بداية الأمر معرفة الغريب في القرآن ثم أصبح هذا الغريب أو النادر غاية تذهب إليها هذه المجموعة. قال الأصمعي (جئت إلى أبي عمرو بن العلاء فقال : من أين أقبلت يا أصمعي ؟ قلت من المربد. قال : هات ما معك. فقرأت عليه ما كتبت في ألواحي ومرت به ستة أحرف لم يعرفها، فأخذ يعدو في الدرجة قائلا شمرت في الغريب يا أصمعي) (72) و (من أوائل الرواة الذين ألفوا في غريب القرآن أبو عبيدة (ت [illegible] هـ) (73) ومؤرج السدوسي (ت بعد المائتين هـ) (74) واليزيدي وألف في غريب الحديث أبو عبيدة والنضر بن شميل (ت 203 هـ) (75) وقطرب (ت 206 هـ) (76) وأبو زيد، ولم تقف همة الرواة

(70) المصدر السابق 1 / 211.
(71) علم اللغة العربية 59 ، 60.
(72) رواية اللغة 90.
(73) المزهر [illegible] / 402-426.
(74) المزهر 2 / 405 ، تاريخ الأدب العربي 2 / 137 ، 169.
(75) تاريخ الأدب العربي [illegible] / 138.
(76) المزهر 2 / 405 ، 463 نشأة النحو 109.

مصادر البحث ومراجعه

- الابل للاصمعي، ضمن الكنز اللغوي في اللحن العربي نشرة أوغست هفنر المطبعة الكاثوليكية - بيروت 1903 م.
- الاقتراح في علم أصول النحو للسيوطي تحقيق د. أحمد محمد قاسم مطبعة السعادة - القاهرة 1976 م.
- أنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم مطبعة دار الكتب - القاهرة 1952 م.
- تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف - القاهرة 1962 م.
- الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي د. عبد العال سالم مكرم منشورات مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع - الكويت 1977 م.
- الخصائص لابن جني تحقيق محمد علي النجار ط الثانية مطبوعات دار الهدى للطباعة والنشر - بيروت.
- دائرة المعارف الإسلامية ترجمة محمد ثابت وأخرين.
- دروس في المذاهب النحوية الدكتور عبدة الراجحي دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت 1980 م.
- ذيل الأمالي والنوادر للقالي الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة 1979 م.
- رواية اللغة د. عبد الحميد الشلقاني دار المعارف بمصر 1971 م.
- سر صناعة الإعراب لابن جني تحقيق مصطفى السقا وأخرين مطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة 1954 م.
- شرح شافية ابن الحاجب لرضي الدين الاسترباذي تحقيق محمد نور الحسن وأخرين دار الكتب العلمية - بيروت 1975 م.
- طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين لابن سلام الجمحي - بيروت.
- طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر الزبيدي تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم دار المعارف - القاهرة 1973 م.

- العربية يوهان فك ترجمة عبد الحليم النجار مطبعة دار الكتاب العربي - القاهرة 1951 م.
- علم اللغة العربية د محمود فهمي حجازي وكالة المطبوعات - الكويت 1973 م.
- الفاضل للمبرد تحقيق عبد العزيز الميمني مطبعة دار الكتب - القاهرة 1956 م.
- فصول في فقه العربية د رمضان عبد التواب مكتبة دار التراث - القاهرة 1977 م.
- فقه اللغة وسر العربية للثعالبي تحقيق مصطفى السقا وآخرين مطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة 1972 م.
- في اللهجات العربية د ابراهيم أنيس مكتبة الأنجلو المصرية ط الرابعة
- الكتاب لسيبويه تحقيق عبد السلام هارون الهيئة العامة للكتاب.
- المثلث لابن السيد البطليوسي تحقيق صلاح مهدي الفرطوسي دار الرشيد بغداد 1981 م.
- المدارس النحوية د شوقي ضيف ط الثانية دار المعارف - القاهرة 1972 م.
- مدرسة الكوفة د مهدي المخزومي مطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة 1958 م.
- المزهر للسيوطي تحقيق محمد احمد جاد المولى وآخرين مطبعة عيسى البابي الحلبي - القاهرة.
- معجم ما استعجم للبكري تحقيق مصطفى السقا لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة 1945 - 1951 م.
- المفضليات للمفضل الضبي تحقيق محمد شاكر عبد السلام هارون ط الرابعة دار المعارف - القاهرة [illegible] م.
- من أسرار اللغة د ابراهيم أنيس الطبعة الثالثة - القاهرة 1966 م.
- نحو وعي لغوي د. مازن مبارك مؤسسة الرسالة - بيروت 1979 م.
- نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة محمد الطنطاوي دار المعارف بمصر 1973 م.
- النقد اللغوي عند العرب نعمة رحيم العزاوي دار الحرية للطباعة - بغداد 1978 م.

د. ص. ف

هـــلالٌ

محمد الحلوي

أهل وآلاف العيون دوامـــعٌ ... ولاح وفي كل القلوب فواجـعُ

رأته عيون، وهي شكرى قريحـةٌ ... فلم يبد إلا كالدجى وهو ساطع!

أطل ولما يَمسح الشرقُ دمعَـه ... ولما يُضمّد جرحَه وهو راكـع

ترامت به أيدي الخطوب وعَوّقت ... مـسيرتَه بين الشعوب الزوابـع

وسار بنوه في متاهة فُرقـــة ... رجالا ضعافا أقعدتها المطامـع

تعادوا، وخاضوا في دماء شعوبهم ... كأن لم تكن قربى، ولا ثَمَّ جامع!

فيا أمةً ما أيقظتها هزائـــمٌ ... توالت، ولم تُنهض بنيها روافـع

إلى كم نُسامُ الخسفَ في عُقرِ دارنا ... وتحصدنا تحت الخيام المدافع ؟

وحتى متى والعرب تبكي ديارَها ... ويَرضى بنوها بالذي هو واقع ؟

إذا المجد لم يُدعَم بأيدٍ تشدُّه ... وبالدم يُسقى نبتُه فهو ضائع !

فمرحى هلالَ الخير ياطالعَ المنى ... وإن خَيّبتْ فيها الظنونَ لطوالع !

فمرحى وكن ماكنت فالقلب عالَم ... كبير، وقلبي للنوائب واسع !

متى ينجلي ليلُ العروبة عن غد ... وضيءٍ ويُطوى الحاضر المتواضع
متى يستعيد الشرقُ سالفَ عزه ... ويُملي على الدنيا فتُصغي المسامع
تحدثني نفسي، وبعض حديثها ... يقين، بأن الفجراتي وساطع
وأن المآسي سوف تُصبح فرحةً ... تضاء لها في الخافقين الصوامعُ
فزعت إلى شعري، وبي شبه رجفة! ... واعصارُ يأس عبرَ قلبي يصارع
وفي الشعر سلاةٌ لنفس كئيبةٍ ... ولا شيء منه في المواقف نافع !
أطير إلى دنياه وهي رحيبة ... وأسبح في تياره وهو رائع !

تطوان ... محمد الحلوي

ملامح من صورة الموريسكي
في الأدب المسرحي الاسباني (*)

د. حسن الوراكلي

تقديم :

أستأذن، أولا، حضرات الزملاء المؤرخين في الدخول إلى مجلسهم الموقر، من باب قل من الناس من يدخل منه إليهم، بل قل من الناس من يعتقد بجدوى طرق هذا الباب، بله الدخول منه إلى أي مجلس كهذا، يكون القصد من الاجتماع فيه، بالأساس، ضبط صورة ما في التاريخ ضبطا علميا، منهجيا، لاينظر فيه للأدب، وهو إسم الباب الذي أستسمحكم في الدخول منه إلى مجلسكم، ولا يلتفت إليه. وهذه، لعمري، نظرة قاصرة إلى الأدب، وهو وعاء الشعور، ومرآة الضمير، وما قد يفيده منه، أحيانا، المؤرخ في تضوين زوايا وحنايا من التاريخ لم يضوئها التاريخ !.

---

*) نص البحث الذي قدم للمؤتمر العالمي الثاني للدراسات الموريسكية المنعقد بتونس من 19 إلى 24 شتمبر 1983 بدعوة من المعهد الأعلى للتوثيق التابع للجامعة التونسية.

وليس أدل على صحة هذا القول من أن ملامح غير قليلة في الصورة الموريسكية التي تعقد هذه الندوة بهدف درسها وتحليلها يمكن البحث عنها، أي الملامح، في آثار المبدعين الإسبان من شعراء، وروائيين، ومسرحيين.

ولا شك أن عملية رصد للموضوع الموريسكي في مختلف الأجناس الأدبية من شعر، ورواية، ومسرحية مما أبدعه الأدباء الإسبان بعد سقوط غرناطة في نهاية القرن الخامس عشر كفيلة بأن تقف الدارس على مادة وافرة يستطيع أن يؤلف منها صورة للموريسكي بالغة الدلالة على شخصيته العقلية، والنفسية، والاجتماعية، والسياسية.

على أننا، للأسف، لم نستطع النهوض بمثل تلك العملية لما تستلزمه من تتبع واستقصاء لم يتسع لهما وقتنا حاليا، فاكتفينا في رسم بعض الملامح من صورة الموريسكي بالرجوع إلى المسرحية دون الغنائية والرواية.

ولكي لا تفوتنا، في نطاق هذه المساهمة، فرصة تعريف القارىء بالمصادر الأدبية التي يمكن اعتمادها في محاولة تشكيل بعض الملامح من شخصية الموريسكي، فقد جعلنا بنيتها، أي المساهمة، تقوم على مدخل ودراسة، ضمنا الأول عرضا تاريخيا وصفيا لعناية الأدب الإسباني وخاصة المسرحي منه بالموضوع الموريسكي واهتمامه به انطلاقا من العصر الذهبي في القرن السادس عشر وانتهاء بعصر الرومنطيقيين في القرن الماضي. أما الدراسة فقد ضمناها جملة ملامح من صورة الموريسكي اجتهدنا في استخلاصها من بعض الأعمال المسرحية، وهذا بالذات هو المطمح الذي أردنا أن تبلوره هذه المساهمة التي نرجو أن تنال بها شرف

مشاطرة الزملاء المؤرخين البحث عن صورة أقلية مرزأة، ما أقل منصفيها من خصمها والصديق ! .

أ ـ مدخل :

لم ينته الوجود الإسلامي في إسبانيا بالغارة المسيحية على مدينة غرناطة عاصمة مملكة بني الأحمر والاستيلاء عليها عام 897 للهجرة (1492م). ففي الوقت الذي هاجرت فيه جماعات كثيرة من المسلمين وطنها إلى بلدان الشمال الإفريقي آثرت جماعات أخرى المقام مطمئنة إلى عهود الأمان التي أعطيت لها من طرف الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيل. على أن الكنيسة، مساندة بالعرش، سرعان ما أبانت عن زيف هذه العهود وكذبها، وذلك حين شرعت في اضطهاد المسلمين والتضييق عليهم وإكراههم على الارتداد عن دينهم واعتناق النصرانية. وانطلاقا من حملات الاضطهاد والتنصير هذه والتي تزعمها ديوان التحقيق الكنسي بعد سقوط غرناطة بزمن يسير، مرورا بحروب الإبادة الشرشة التي كانت جيوش النصارى تباغت بها، بين الحين والحين، الأقلية المسلمة، وانتهاء بقرار نفيها النهائي الذي تم بين سنتي 1605 و 1614، شهد التاريخ مأساة بقدر ما تطفح فصولها بمواقف الالم، والمعاناة، والحزن تطفح بمواقف الشجاعة، والصبر، والاستشهاد. ولا شك أن مثل هذه المأساة كانت خليقة بأن تشغل عامة الناس وخاصتهم في إسبانيا مدى زمن غير قصير مما انعكس أثره على كتابات المؤرخين والكتاب السياسيين (1) مثلما انعكس على نتاج الشعراء، والروائيين، والمسرحيين (2).

وإذا أردنا، قبل استعراض الإسهام المسرحي ذي الموضوع

الموريسكي، أن تنظر، على عجل، فيما استلهم فيه الأدباء، من غير كتاب المسرح، الموضوع المذكور فإننا سنجده يتمثل في :

I - مجموعة القصائد الشعبية الموريسكية Romancero Morisco

وهي قصائد كثيرة ذات قيمة تاريخية بالغة لما تتضمنه من مشاهد درامية من حياة الموريسكيين الاجتماعية والعاطفية (3).

II - الرواية، وهي إما :

أ - رواية موريسكية Novela Morisca. وهي فيما وصلنا من نماذجها تعرض فصولا مليئة بالمكابدة والآلام من حياة آخر مسلمي إسبانيا، مبرزة، على نحو لافت، قيم الفروسية ومثلها التي كان يتشبث بها هؤلاء المسلمون في ممارساتهم اليومية حين السلم وحين الحرب. وأشهر هذه الروايات «حروب غرناطة الأهلية» (4) Guerras,Civiles De Granada لمؤلفها خينس بريث دي هيتا Ginés Péres de Hita، ورواية «ابن السراج والخريفة الجميلة» (5) El Abencerraje y la Hermosa Jarifa وهي لمؤلف مجهول، و «حكاية العاشقين أوزمين ودراجة» Historia De los dos Enamo-rados Ozmin y Daraja ومؤلفها هو ماتيو ألمان Mateo Aleman.

ب - رواية الصعلكة Novela Picarisca وفيها تطالعنا لمحات من حياة الموريسكي بعد أن اكره على التنصر، وتمثل اللغة والتقاليد الإسبانية وإن لم ينس، في كثير من الأحوال، تراثه الإسلامي الروحي والمادي. ومثال هذه الرواية «الصعلوكة خوستينا» La Picara Justina وتنسب لفرنثيسكو لويث دي أوفدا Francisco Lopez de Ubeda، و «حياة

الخادم ماركوس دي أبريكون La vida del Escudero Marcosde Obregon لمؤلفها ڤيثنطي إسبينل Vicente Espinel .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن شخصية الموريسكي تسللت إلى غير هذه وتلك من ألوان الرواية والقصة التي عرفها الأدب الإسباني في عصره الذهبي. ومثال ذلك رواية ثرڤانتس Cervantes (ـ 1616) «ضون كيخوته» Don Quijote ، التي تطالعنا في الفصل الرابع والخمسين منها أشهر شخصية موريسكية عرفها الأدب الإسباني هي شخصية ريكته Ricote تتحدث عن حياتها وحياة ذويها وما كان من أمرها وأمرهم بعد القرار القاضي بطرد الموريسكيين من أرض إسبانيا. كما نقع في الفصل الثالث والستين من نفس الرواية على مشاهد مؤثرة من حياة هذه الطائفة المنكودة.

وكما عني ثرڤانتس بالموضوع الموريسكي في رائعته «ضون كيخوته» عني به كذلك في نتاج قصصي آخر له من مثل «حوار الكلاب» El coloquio de los perros وهي واحدة من قصصه النموذجية Novelas ejamplares الشهيرة.

فإذا صرفنا النظر عن الشعر، والرواية، والقصة التي ستوحي فيها مؤلفوها شخصية الموريسكي وحياته، وتلفتنا إلى الأدب المسرحي، وهو بيت القصيد في هذا المدخل، وجدنا أنفسنا بإزاء نتاج وافر، يمتد، زمنيا، من القرن السادس عشر إلى عصر الرومنطيقيين في القرن التاسع عشر. ولعل بواكير الأدب المسرحي الذي ظهرت فيه شخصية الموريسكي تتمثل في آثار لوبي دي رويدا Lope de Rueda (ـ 1565)، فإننا غالبا ما نجده يجعل من بين شخوص مسرحه شخصية موريسكية يجري على لسانها حوارا يقطر ظرفا وفكاهة هو مزيج من العربية والإسبانية على نحو ما

كان ينطقها الموريسكيون، وهو عنصر ظل مستخدما بعد ذلك في المسرح الإسباني خلال العصر التالي في القرن السابع عشر (6).

ولم تعرف الآداب الإسبانية كاتبا مثل لوب دي ڤيجا Lope de vega (ـ 1635) عكس أدبه، وفي مقدمته مسرحه، مجتمعه وعصره على نحو من التدقيق والاستيفاء أصبح بهما أشبه شيء بالوثيقة التاريخية التي يرجع إليها الباحثون في دراسة هذه الواجهة أو تلك من واجهات التاريخ الاجتماعية والسياسية ونحوهما. وإذا ذكرنا أن الرجل كتب أزيد من خمسمائة وألف مسرحية، فضلا عن إبداعاته الأخرى في الشعر والنثر، أدركنا السر في استيعاب مسرحه لصورة عصره ومجتمعه، وإذا ذكرنا، إلى ذلك (أن تاريخ إسبانيا الوسيط كان بطبيعته مزيجا متفاعلا من الإسلام والمسيحية) (7) تصورنا حرص لوب دي ڤيجا على معالجة الموضوع العربي والإسلامي سواء أكان مسرحه الأندلس أو المغرب، وسواء أكان ذلك خلال حروب الاسترداد أو ثورات الموريسكيين أو الحملات الصليبية على المغرب (8).

وإذا كان في نتاج لوب دي ڤيجا مسرحيات أفاد فيها من مدونات المؤرخين فإن ثمة مسرحيات أخرى كتبها بوحي من معاصرته لاحداثها ووقائعها، وفي طليعتها ثورة الموريسكيين بجبال البشرات سنة 1586، وطرد الموريسكيين مطالع القرن السابع عشر. فإذا أضفنا إلى ذلك أن لوب دي ڤيجا أقام فترة من حياته في بلنسية حيث عاين عن كثب عادات الموريسكي وتقاليدهم، كما أتيحت له مثل هذه الفرصة حين أقام في مدن أخرى كغرناطة، وإشبيلية، وطليطلة، كان في سكانها من

الموريسكيين عدد غير قليل، تصورنا السر في عناية لوب الفائقة بالموضوع الموريسكي في بعض ما ألف للمسرح (9).

وفضلا عن معالجة لوب لكوميديا المسلمين والمسيحيين La Comedia de Moros Y Cristianos حيث يدرج مقطعات من أناشيد الثغور (10) Romences Fronterizos فقد اهتم في مطلع شبابه بكتابة عدد آخر من المسرحيات ذات الموضوع الثغري أو الموريسكي، ومن ذلك نذكر «فتح ألورة» La Toma de Alora، و «بنو الثغري وبنو سراج» Zegries Y Abencerrajes و «العلاج في أوقات الشقاء» ■ remedio en la desdicha و«بدرو كاربونيرو» Pedro Carbonero. وفي مجموع هذه المسرحيات ونظائرها في أدب لوب المسرحي يظهر العربي المسلم شديد التعلق بالمرأة، تتأجج جوانحه بالغيرة، وغالبا ما ينتهي لهذا السبب أو ذاك إلى الارتداد عن الإسلام والتحول إلى النصرانية (11). وتتخلل هذه المسرحيات فقر وصفية بالغة الروعة هي عبارة عن لوحات تصور حفلات الموريسكيين بما فيها من مشاهد الرقص والغناء (12). وإلى هنا كله فقد حرص لوب دي ڤيجا في مسرحياته تلك على رسم ملابس الموريسكي وتشخيص الجانب اللغوي عنده من خلال ما يسوقه من أناشيد أو ينطقه به من كلام.

ويظهر أن هذه المسرحيات ذات الشخوص والأجواء الموريسكية مثلما ظفرت بإعجاب الإسبان ظفرت بإعجاب الموريسكيين أنفسهم، وقد كان من بين هؤلاء من عبر عن هذا الإعجاب في كتابات سلمت من الضياع وكانت موضوع دراسة قيمة أنجزها الأستاذ خايمه أليفر آسين (13).

ويبدو من إلقاء النظرة السريعة على المكتبة المسرحية الإسبانية خلال القرن السابع عشر أن أوفر المسرحيين عناية بالموضوع الإسلامي بعامة، والموريسكي بخاصة، واستلهاما له من تلامذة لوب هو بدرو كالدرون دي لا باركا Pedro Carderon de la Barca (ـ 1681) فمن بين آثاره المسرحية تقع على خمسة أعمال يديرها كالدرون حول الموضوع الإسلامي بعامة (14) ويفرد إثنين منها بالموضوع الموريسكي، هما : «العشق بعد الموت أو التوزاني البشريه» (15) Amar despues de la muerte O El Tuzani de Alpujarra ومسرحية «صبية غومث أرياس» ALa nina de Gomez Arias أما الأولى، وهي إحدى روائع الأدب المسرحي الإسباني الذي استوحى ثورة الموريسكيين بالبشرات (16)، فيصور لنا فيها مؤلفها كالدرون، فيا يصور من شخصيات موريسكية متنوعة، شخصية ضون ألفارو التوزاني الذي يثور بالبشرات ضد القرار المجحف الذي حرم على الموريسكيين ممارسة شعائرهم الدينية والتحدث بالعربية وارتداء الثياب القومية، وهنالك، وفي غمار الثورة، يخفق قلبه بحب فتاة موريسكية جميلة اسمها مليكة، سرعان ما يتخطفها القدر من بين يديه حين يقتلها، أثناء الهجمة الضارية على جاليرا Galera وهي إحدى قرى الموريسكيين بجبال البشرات، جندي سفاح من جنود قشتالة اسمه جرثيس Garcés، فما يكون من عاشقها وزوجها ضون ألفارو التوزاني إلا أن يقسم على أن يثأر ممن ضرج هواه بالدماء وطوح بآماله. ويقوده هذا القسم إلى الالتحاق متنكرا صحبة مولى له متنكر كذلك بصفوف جيش العدو ليتسنى له البحث عن المجرم القاتل حتى إذا ساقته الأقدار إلى يديه انتقم منه في مشهد بالغ الروعة والجلال.

أما مسرحية «صبية غومث أرياس» فتجري أحداثها في غرناطة وضواحيها بعد انتهاء الحكم الإسلامي بمدة وجيزة، وملخصها أن غومث أرياس، وهو جندي متقلب في هواه، يترك في أحد جبال البشرات فتاة اسمها دورطيا Dorotea بعد أن يستمتع بها. ويكون من حسن حظها أن يعثر عليها هناك موريسكي سرعان ما يتعلق بها قلبه، لكنه لا يهنأ إلى جانبها طويلا، فسرعان أيضا ما تفرق بينهما ظروف الحرب. ويكون من سوء حظ الفتاة، هذه المرة، أن تسقط، ثانية، في يد غومث أرياس الذي يسوقها إلى (بنامجي) Benameji ليعرضها للبيع في سوق الرقيق، وهنالك يبتسم لها الحظ من جديد فيشتريها الموريسكي، غير أن خبرها لا يلبث أن يتناهى إلى مسمع إيزابيل ملكة قشتالة فما يكون منها إلا أن تستولي على (بنامجي) وتأمر الجندي غومث بالزواج من دورطيا ثم تشير بقتله جزاء لؤمه وخسته.

ولم نجد أحدا من مؤلفي المسرح الإسباني في القرن الثامن عشر يعنى بتناول الموضوع الموريسكي، غير أن خشبات المسارح ظلت، على امتداد القرن المذكور، تقدم لروادها مسرحيتي كالدرون سالفتي الذكر.

على أننا، مع ذلك، لم نعدم في بعض ما ألف للمسرح خلال هذا القرن ودار حول موضوع المسلمين والمسيحيين عناصر موريسكية على نحو ما نجد في مثل مسرحية «أفضل هلال إفريقي» La mejor Luna Africana التي تضمنت، في جملة ما تضمنته، مشاهد مؤثرة أفادتها من كتاب «حرب غرناطة» لخنيس بريث دي هيتا، وأخرى في غاية الروعة استمدتها من مذبحة بني سراج. وفضلا عن هذا فإن الأخلاقيات المثالية التي توجه السلوك والمبادرة لدى كل من المسلمين والمسيحيين في هذه

المسرحية، وكذا روح الود التي تسود معاملات الخصوم، بعضهم لبعض، لا تكاد تخرج عن دائرة الأعراف والتقاليد الموريسكية.

وقد شغف الرومنطيقيون، منذ الفترات الباكرة من حياة مذهبهم، باستلهام حياة العرب والمسلمين (وأتاح لهم نابليون بغزاته لإسبانيا مراحا جديدا للخيال يصيب فيه ما يشاء من قصور يسمع فيها خرير الماء، وأبهاء تراق فيها الدماء، وساحات تغني فيها القيان ويصطرع الفرسان) (17). ومن ثم يلاحظ مؤرخ الأدب المسرحي الإسباني مع استقواء الرومنطيقية في هذا الأدب الاهتمام البالغ بشخصيات تاريخ إسبانيا بعامة وغرناطة بخاصة، (على أن شخصية التاريخ الغرناطي التي استأثرت أكثر من سواها باهتمام كتاب المسرح الرومنطيقيين لم تكن شخصية المسيحي الذي يحاصر غرناطة ولا شخصية المسلم الذي كان لا يزال يتحكم فيها، وإنما استأثر باهتمامهم سليل هذا المسلم، ونعني به شخصية الموريسكي الذي يبدو دائما في صورة مثيرة للشجون...) (18).

وإذا كان مما يسلم به النقاد ومؤرخو المسرح أن أهم عمل عرفته الدراما الرومنطيقية التي استلهمت حياة الموريسكي وصورت فجيعته يتمثل في مسرحية «ابن أمية أو ثورة الموريسكيين» Aben Humeya O Reblión de los Moriscos لمؤلفها مارتينث دي لا روسا Martinez de la Rosa (ـ 1862) فإن مما يسلم به أولئك النقاد والمؤرخون أيضا أن ثمة أعمالا أخرى، لا سبيل إلى إنكار أهميتها ومكانتها في سجل الدراما الرومنطيقية الإسبانية، استلهم مؤلفوها كذلك سير شخصيات موريسكية وبلوروا واقعها النفسي، والعاطفي، والاجتماعي، هي التي نحب أن نلم بذكرها قبل أن نعود إلى مسرحية دي لا روسا لنفردها بوقفه خاصة. ومن

أوائل ما عرف من نماذج الدراما الرومنطيقية في هذا المجال، مسرحية «أخر بني سراج» El último Abencerraje لمؤلفها خوان دي لابثويلا ايثاييوس Juan de la Pazuela y Ceballos . ومع أن هذه المسرحية لم تطبع فإنه من خلال بعض ما كتب حولها من نقد (19) يظهر أن مؤلفها كان ينسج على منوال شاتوبريان في روايته «أخر بني سراج» (20) ثم ألف جسبار فرناندو كول Gaspar Fernando Col سنة 1938 مسرحيته «أخل الثغري Adel el Zegre وهي تصوير لحياة أخر بني الثغري ومساعيه في الثأر لأسرته (21) وألف الناقد الرومنطيقي مانويل كانييطي سنة 1854 مسرحية سماها «ذعر غرناطة» Un rebato en Granada ومضمونها التاريخي هو ثورة الموريسكيين التي اندلعت بربض البيازين Albaicín في نهاية سنة 1568. ولم يعتمد المؤلف من المصادر التاريخية التي أفاضت في وصف هذه الثورة مثل كتاب ديبجودي مندوثا أو كتاب لويس دي مرمول (22) واكتفى بالرجوع إلى «حروب غرناطة» لبريث دي هيتا. وللمسرحية تمهيد تاريخي تجري أحداثه في جبال البشرات يصور لنا فيه قصة حب بطلاها موريسكية نبيلة وفارس إسباني، وكما لاحظت الأستاذة ماريا سولداد كراسكو أورجيطي María Soledad Carrasco Urjaiti بحق فإن تأثير شاتوبريان واضح في طرح المشكل الديني الذي يقوم في القصة جدارا يفصل بين العاشقين مثلما هو واضح كذلك من خلال موقف شقيق الفتاة الموريسكية حين يعدها بتحقيق أملها في زفها لعاشقها المسيحي شريطة أن يعتنق الإسلام (23).

وعلى نحو ما أثارت ثورة الموريسكيين في البشرات اهتمام أعلام الأدب المسرحي في العصر الذهبي من مثل لوب دي فيجا وكالدرون دي

لا باركا كما أسلفنا القول أثارت كذلك اهتمام مؤلفي المسرح من الرومنطيقيين وفضلا عن مارتينيث دي لاروسا الذي سنعود إليه في وقفة خاصة فإننا نجد مؤلفين آخرين يعالجان أيضا الموضوع الموريسكي من خلال ثورة البشرات. أما أحدهما فهو الروائي مانويل فرنانديث إجونثالث Manuel Fernandez y Gonzalez الذي كتب سنة 1847 مسرحية سماها «خيانة بخيانة تسدد» Traicion con traicion se paga وهي تدور حول شخصية ابن أمية زعيم الثورة وقائدها، وفي عنوانها ما يلمح إلى ما تحدثت به المدونات التاريخية عن الخيانات التي أجهضت الثورة وفي مقدمتها خيانة ابن عبو لابن أمية (24)، أما ثانيهما فهو فرنسيسكو سانتث دل أركو Francisco Sanchez del Arco الذي استوحى من شخصية ابن عبو الثائر مسرحية سماها باسمه (25). أما مسرحية «موريسكية ألجوار La moris-cade Alajuar» فإن مؤلفها وهو أنخيل دي ساڤيدرا Angel de savedra لم يعن فيها بتصوير الموريسكيين الثوار في جبال البشرات أو في ربض البيازين، وإنما صور الموريسكيين الذين عانوا من محنة النفي من أرضهم ووطنهم. والمؤلف لا يخلع على شخصيات مسرحيته من هؤلاء الموريسكيين صفات الكمال والمثالية، وإنما يقدمهم على أنهم أفراد طائفة جديرة بالشفقة والرأفة، لكنها جاهلة ومتعصبة (26).

ومع أن جل هذه المسرحيات بلورت، بنسب متفاوتة من السبر، والاستبطان، والتصوير، واقع سليلي مسلمي غرناطة الموريسكي في بعده النفسي والعاطفي والاجتماعي، فإن أيا منها لم يقدر له أن يظفر بمثل ما ظفرت به مسرحية «ابن أمية أو ثورة الموريسكيين» من شهرة وذيوع في الإسبانية وغير الإسبانية من اللغات التي ترجمت إليها.

وقد كتبها مؤلفها مارتينيث دي لاروسا خلال مدة نفيه بباريس (1824 ـ 1831) محتذيا فيها الرومنطيقيين الفرنسيين الذين كانوا يومئذ مشغوفين باستلهام أحداث التاريخ المشوقة وشخصياته المتألقة فيما ينشئون من شعر، ويكتبون من رواية ومسرحية. غير أننا نظن أن الرغبة في محاكاة رواد الرومنطيقية الفرنسية لم تكن السبب الوحيد الذي قاده، وهو بصدد البحث عن أحداث وشخصيات تاريخية متميزة تصلح لأن تكون مادة للصراع الدرامي في إطاره الرومنطيقي، إلى تاريخ الموريسكيين بما تضمنه من أحداث كثيرة ليس من السهل أن يجد المرء مثلها من حيث الغرابة والدرامية (27). فلا شك أن ظروف النفي بما تطوق به صاحبها من قلق نفسي وتأزم وجداني، وبما تثيره في نفسه من الشوق والحنين إلى الانعتاق والتحرر كانت بدورها تغري مارتينيث دي لاروسا بالبحث في تاريخ اسبانيا عن شخصيات، ومواقف، وأحداث، تواصلت من خلالها الحياة والحرية، لتصبحا وجهين لحقيقة واحدة هي الكرامة الإنسانية (28). أضف إلى ذلك حافزا آخر كان مما أعانه على تأليف هذه المسرحية هو (أني ولدت ـ يقول المؤلف نفسه ـ في غرناطة وطفت وأنا صبي بقسم من جبال البشرات ووقفت على صور من التراث الشعبي مع ذكريات الطفولة بحيث تأتى لي أن اتأمل بشيء من حب الأسرة ـ إذا ساغ لي أن أصرح بذلك ـ موضوعا له ارتباط وثيق بتاريخ الأرض التي فيها درجت. وليس أحب إلى النفس من استحضار ذلك في الذاكرة والمرء بعيد عن وطنه) (29).

تدور أحداث هذه الدراما الموريسكية بقاديار Gadiar، إحدى قرى جبال البشرات، حيث يعيش ضون فرناندو دي ڤالور أو ابن أمية مع زوجه سليمى وابنته فاطمة وصهره مولاي كريم.

وعلى إثر انتشار خبر القرار الجائر الذي أصدره الملك فليب الثاني والمتضمن لإجراءات بالغة القسوة تمس الموريسكيين مسا غير رفيق في عقيدتهم، ولغتهم، وحريتهم الشخصية، سرت موجة من السخط والتذمر بين سكان البشرات وامتلأت نفوسهم بالحرج، والضيق، والقلق، ثم ما لبث أن تحول كل ذلك إلى رغبة جامحة في التمرد والثورة.

وفي بداية الفصل الأول من المسرحية نشاهد ابن أمية وهو فريسة حيرة لا يدري معها أي موقف يتخذ. إنه وإن كان أقرباؤه يشيرون عليه بالاستسلام للأمر الواقع فإن نفسه تستعر ثورة وحقدا على حكام قشتالة وجنودها الذين يسومون أهله وقومه، في كل وقت وحين سوء العذاب. غير أنه لم يكن ليركب رأسه فيغامر بمصير هؤلاء القوم في ثورة لم يحن وقتها المناسب بعد. أما الآن فقد حان الوقت وأزفت الساعة، وهاهم أولاء رؤساء القبائل يجتمعون إليه، تتفطر نفوسهم من الغيظ، يخبرونه أن القرى عن بكرة أبيها قد اعدت عدتها، وأن الجميع قد انتضى سيفه، وشحذ خنجره في انتظار إشارة البدء منه.

وبين يدي فقيه طاعن في السن يبايع ابن أمية ملكا على الموريسكيين وقائدا لثورتهم. ومن كهف الفقيه الذي تمت فيه بيعة ابن أمية تنطلق جموع الموريسكيين تثأر لدينها، وذويها، ممعنة في التقتيل والتنكيل، وخلال ذلك يشاهد صهر ابن أمية وهو ينقذ حياة طفل مسيحي، وهي مبادرة أثارت حوله الشك والارتياب، وأشاعت القيل والقال في صلته بالنصارى ومداخلته لهم، وهو ما تأكد بعد ذلك حين استقباله لـ (لارا) رسول حاكم غرناطة إلى الموريسكيين.

وفي الفصل الثالث نشاهد ابن أمية، من جديد، وهو فريسة حيرة

وقلق شديدين. لقد بلغه أن صهره على صلة بالقشتاليين وأن بعض قواد الثورة قد تحدثوا بخيانته في صفوف الثوار. ولم يطل تردد ابن أمية في حسم الأمر، فسرعان ما قرر قتل صهره جزاء خيانته، لكن خصوم ابن أمية كانوا أوهموا الثوار بأن قائدهم هو الآخر يداخل النصارى ويفاوضهم. إنه الإرث الأندلسي القديم، إرث الخلاف والفرقة تشب به حرب أهلية بين الموريسكيين، يكون في مقدمة ضحاياها ملكهم وقائدثورتهم ابن أمية الذي لا يلفظ أنفاسه الأخيرة وهو مثخن بالجراح إلا بعد أن يتنبأ بنفس المصير لخصمه وخلفه (ابن عبو).

وتكمن أهمية هذه المسرحية في أن مؤلفها حرص، وهو الذي كان يؤمن بنظرية هوجو عن اللون المحلي، كأشد ما يكون الحرص وأقواه على أن يطبعها بطابع خاص متميز، هو طابع العصر والشعب اللذين استمد مادة عمله من حياتهما، ومن ثم فقد كانت هذه الدراما في رأي بعض الدارسين واحدة من (أوفر الدرامات الإسبانية التاريخية نصيبا من التاريخ) (30) يتجلى ذلك في اعتمادها حظا غير يسير من المادة التاريخية الخام كما رواها المؤرخون في مدوناتهم مما يدل على أن مارتينيث دي لاروسا لم يقتصر، شأن رومنطقيين آخرين، على معالجة موضوع مسرحيته في إطار تاريخي وإنما عمل على بناء الصراع الدرامي، على امتداد فصولها، بعناصر وجزئيات استقاها من التاريخ على الصورة التي رويت بها في كتب المؤرخين.

على أن هذا الحرص على نسج خيوط الدراما من المادة التاريخية الخام لم يمنع صاحبه من إدراج تعديلات في هذه المادة بالقدر الذي يتنامى به الصراع الدرامي ويشتد وتتكشف به خلفيات الوقائع، وطوايا

الأفراد، وبدون ذلك فإن الأمر لن يعدو أن يكون مجرد كتابة نسخة جديدة من التاريخ.

ومن هنا فإننا نستطيع القول بأن الأحداث، ومثلها الشخوص، وهي التي تهمنا بدرجة أولى، تستمد وجودها، في هذه المسرحية، بكل ما يعنيه هذا الوجود من حيوية، وحركة، وقلق، وتأزم، وأخذ، وعطاء من أصولها الذاتية في إطارها التاريخي بما يفترض في عناصر هذا الإطار من موضوعية وتجرد، وبالآن عينه، من رؤية المؤلف، وهي، كما سنبين في غير هذا الموضع، شأنها شأن رؤية أي مبدع آخر، مزيج من التفاعلات والترسبات الشعورية والفكرية تتألف منها بوتقة ينصهر داخلها الواقع والتاريخ بأحداثهما وشخوصهما ليخرجا في خلق جديد، لكنه غير مقطوع السبب بالخلق الأول.

ب ـ الدراسة :

نطرح، في البداية، أسئلة، نقصد من الإجابة عنها إلى بلورة طبيعة (الصورة) في الادب، والكشف عن (وثقيتها) في تصورنا.

ما طبيعة هذه الصورة ؟ ومم تتشكل ؟ أو بصيغة أخرى : من أي موقع ينطلق هذا المبدع أو ذاك في رسم الصورة ؟

إن المبدعين بإزاء أية ظاهرة، يراد إلى ضبطها في صورة ما، على نحو ما، أحد إثنين : أولهما معاصر للأحداث والشخوص، وهذا ينطلق، فيما يريد إلى رصده وتصويره، من الواقع المعيش، أي من الرؤية الحسية لما ولمن حوله. أما ثانيهما، وهو الذي فاتته المعاصرة، فهو ينطلق من التاريخ، أي من الرؤية (الغيرية) للأحداث والشخوص. وسواء أكان

المنطلق من واقع معيش، عبر رؤية حسية، أو من واقع مؤرخ عبر رؤية (غيرية) فالذي لاشك فيه أن رؤية المبدع، أيا كان مجال إبداعه، تختلف عن رؤية بقية الناس، ولا أستثني المؤرخين، لما تتسم به من قدرة على التغلغل والنفاذ، والسبر والاستبطان، تتيح لصاحبها معرفة بطبائع الناس، وحقائق الأشياء على نحو من الشمولية والعمق ليس يتيسر لغيره. وهنا يكمن، برأينا، تفسير ما قد يتراءى من اختلاف، يبلغ، أحياناً، درجة التناقض، بين وجهي الصورة الواحدة في التاريخ والأدب، ذلك أن المؤرخ، بما نفترض فيه من حد أدنى من الموضوعية والتجرد، ودون أن نعزله عن (ذاتيته)، يكتفي، في إطار ذلك، بالتأريخ من داخل التاريخ للتاريخ، وقلما يجعل عناصر ما أرخ من واقعة أو شخصية موضع تشريح وتحليل. في حين يعتمد المبدع الرؤية في تعامله مع الواقع، معيشاً كان أو مؤرخاً، وهي أي الرؤية، فضلا عما تستلزمه من (فسحة) في الزمان وفي المكان بينها وبين (الظاهرة)، مزدوجة من حيث الأساس الثنائي، أي الفردي والجماعي، الذي ترتكز عليه، ومن حيث استلزام مثل هذا الأساس لضرورة التمحور حول قطبي الوجدان الفردي والجماعي. نقول : إن مثل هذه الرؤية التي يعتمدها المبدع في رصده الواقع وتصويره لا تعني إمكان نقله على صورته وإنما تعني إمكان نقله بصورته عبر قنوات الذات الفردية ـ الجماعية، حتى إذا خرج، أي الواقع المعيش أو المؤرخ، إلى النور وقد استوى إبداعاً فنياً، خرج على صورة لئن جاز أن ينكرها أصلها في الشكل واللون فإنه لن يجوز له، بحال، أن ينكرها في اللحمة والسدى.

وإذن، هل تصبح (الصورة) في الأدب، بمقتضى هذا التفسير، رديفة (للصورة) في التاريخ ؟ وبعبارة أخرى : هل يكون (للصورة) في الأدب،

على ذلك، ما (للصورة) في التاريخ من حيث الدلالة الوثقية ؟

إن وثقية (الصورة) في التاريخ تكمن، أساساً، في طبيعة الرؤية (الحسية) بأوسع معانيها، أي سواء كانت بالمباشرة أو بـ : (الرواية)، أما وثقيتها في الأدب فتأتي أيضاً من طبيعة رؤية المبدع المتعمقة للخلفيات، والدخائل، والطوايا بهدف الكشف عن مناحي القوة والضعف، والإيجاب والسلب، والثبات والتغير في (مضمون) الصورة، شخصاً كان أو واقعة. وبتعبير آخر : إن (الصورة) في الأدب تجسيد للظاهرة، في واقع معيش أو مؤرخ، بعد إدراكها، أي سبرها وتعمقها، فكرياً وشعورياً. ومن هنا وثقيتها التي نعتقد أنها تصبح بها حقيقة بعناية الدارسين والباحثين وفي مقدمتهم المؤرخون أنفسهم.

في ضوء هذا الفهم للصورة في الأدب اجتهدنا، من خلال قراءتنا لبعض الآثار المسرحية (31) التي سبق التعريف بها في مدخل هذه الدراسة، في استخلاص ملامح نطمح في أن نؤلف من جملتها صورة لـ :

أ - الموريسكي فقيها :

يمكن القول بأن شخصية الموريسكي الفقيه أو عالم الدين صورة من أسلافه فقهاء الأندلس وعلمائها من حيث شعورهم العميق بمعنى التكريم الإلهي للإنسان وإدراكهم لدلالاته مما كانوا يستمدون منه مواقف الاستعلاء التي وقفوها من قوى البغي، والظلم، والاستبداد. وإذا كان الناس جميعاً قد أحنوا هاماتهم، مكرهين، للنصارى بعد تغلبهم على غرناطة فإن الموريسكي الفقيه (وحده الذي أبى أن يركع للباغين) (32) ولأن سورة البطش الصليبي كانت من الرعونة بالدرجة التي أصبحت معها أية محاولة

للمواجهة ضربا من إلقاء النفس إلى التهلكة فإنه (آثر الظلام على ضوء النهار) (33) حين أقام، وحيداً، في غار بالجبل، بعيدا عن أعين الرقباء، يؤدي فروض ربه ويمارس شعائره الدينية، غير أنه، مع ذلك، لم يكن، في قراراته، راضيا عن هذا الموقف :

(... لعلي لم أكن أدرك حكمة وحيك، الخافية علي، ولم يكن يكفي أن أعتزل الناس كي لا أخالف شريعتك المقدسة...) (34).

إن الموريسكي الفقيه كان، مثل أسلافه، يعي موقعه في المجتمع بوصفه القدوة والأسوة، تتعلق بها أبصار القوم كما تتعلق بها أفئدتهم، فإذا سلوكهم من سلوكها، ومبادرتهم من مبادرتها، لذلك كان يعتريه ما يشبه الإحساس بالتقصير في أداء رسالته سيما حين يستحضر موقف فقيه (بلش) العظيم الذي أبى أن يحني هامته للعدو، فأمر بإحراقه :

(... لكأني أراه... وكنت يومئذ صبيا... ولم يكن همه وهو يصعد بقدم ثابتة إلى أعلى النار إلا ترديد اسم الله عز وجل، ولا يفتأ ـ ولهب المشركين يلف جسده ـ يرجع ببصره إلى المصلى الذي أقامه أبناء إبراهيم...) (35).

ومن الشعور العميق برسالة الفقهاء في مجتمعاتهم، ومن الإدراك العميق أيضا لجسامة الأمانة التي حملهم إياها دينهم، ومن التمثل الواعي لمواقف العلماء البطولية، كان يتجذر في وجدان الموريسكي الفقيه هاجس لا يفتأ يهتف به (أن حرض القوم على الثورة) ليتحقق وعد الله بنصر الذين استضعفوا في الأرض وسيموا الخسف والهوان. فاستمع إليه يستنهض همم قومه بعد أن وصمهم بالعبودية فكبر عليهم ذلك :

(وماذا تستحقون إذا ؟ ألم تنكروا إله آبائكم، وأسلمتم للعبودية

وطنكم الذي حازوه بدمائهم، وأشتريتم خدمة جلاديكم ذلا منكم وصغارا ؟ اختاروا أنتم بأنفسكم ! ما الصفة التي تودون أن أطلقها عليكم ؟) (36).

ولإدراك رؤوس القوم بأن حدي الفقيه عن الثورة حديث جد وما هو بالهزل فإنهم لم يجرؤوا على مفاتحته في هذا الشأن إلا بعد أن أجمعوا على رأي واحد :

(بلى ياحبيب رسول الله، ما كنا لنجترئ على المثول بين أيديكم لو أنا على نية الرجوع إلى قيودنا وأصفادنا) (37).

ومن مظاهر الفكر الثوري عند الموريسكي الفقيه تصوره لقيادة الثورة تصورا يعكس إدراكه لطبيعة الدور الجهادي الذي يكون على القائد النهوض به على مستوى من الشجاعة، ونكران الذات، والحرص على الاستشهاد :

(... فنحن في خضم هذه المحن وأعداؤنا يتهددوننا ونكاد نكون على حافة القبر، لا نعطي إلا السيف لمن نختاره رئيسا أعلى منا ولا فضل له على غيره إلا بمقدار قربه من الموت) (38).

لهذا كله كانت للموريسكي الفقيه بين قومه منزلة مرموقة يحاط فيها بهالات التبجيل والتقدير سواء من طرف العامة :

(الدلائي : إلى أين يذهب الفقيه الجليل ؟

الشنيس : إن نار الإلهام تضيئ في جبينه...

البرطال : لننتظر أيها الصحب. لننظر في صمت وخشوع أوامر السماء يلقيها إلينا !) (39).

أو من طرف الخاصة، فحين يدب الخلاف في الرأي بين وجوه الموريسكيين حول اختيار رئيس لهم، ويبدي ابن أمية ترددا في القبول حين تعرض عليه رئاسة القوم، يكون الفقيه هو الذي يحسم الأمر ويبث فيه مشيرا على ابن أمية بالقبول، مزودا إياه بالتوجيه، والإرشاد، والنصح، جريا على عادة الأسلاف من فقهاء الأمة :

(لم يدخر لك إله إسماعيل في أيام الامتحان منه عرشا من الملذات... بل سيضع في يدك مصير شعب شقي أسير، آل أمره إلى مغالبة القدر وهو بين ذراعي الموت... كن له سندا في الأرض، والله يرعاك ويرعاه... فهو أيضا أحكم الحاكمين) (40).

II ـ الموريسكي عاشقا :

وعشقه ذو وجهان، من خلالهما معا نقع على مشاعر الحب، والتضحية، والإيثار التي تبلغ، في بعض الأحيان، من الشفافية، والرهافة، والسمو، والتألق درجة، يصبح، أو يكاد، معها، الموريسكي في عداد النماذج الخالدة في أدب العشق والعشاق.

ووجها العشق لدى الموريسكي هما :

أ ـ الأرض :

ولعل أهم ما يميز عشقه لها خصيصتان، إحداهما العفوية، وثانيتهما الواقعية، أما أولاهما فتتمثل في هذا الحب الغامر للأرض الذي يجعل صاحبه يقر عينا بمجرد وجوده فيها أيا كانت الظروف والأوضاع. ولنستمع إلى (سليمى) تخاطب زوجها ابن أمية في حوار يكشف، في غير ما تكلف أو تصنع، عن عفوية الحب الذي تكنه لأرضها :

(وماذا يغنيك أن تعذب نفسك ؟ ومهما بلغت منك دواعي الأسى فلن تعوزك أسباب التأسي ؛ بين ذويك تمضي أيامك، وفي الأرض التي تهواها مستقرك ومقامك، وترابك سيختلط بتراب أبائك.. أما أنا فربما طفقت، وقد رأيتني مهيضة النفس، أصعد حتى أبلغ قمم هذه الجبال وكأني أنظر من هنالك إلى ساحل إفريقية... هل تعلم ماذا يعتريني... ؟ لكأني وقد ذهب عني الروع وعادت إلي نفسي أعتبر حالنا وأعتبر ما آل إليه أمر غيرنا من الذين غلبت عليهم شقوتهم فأخرجوا من ديارهم ولا أمل لهم في رؤيتها وهم أحياء... نعم، هؤلاء أحق بالرثاء !) (41).

ولنسمع، بعد ذلك، إلى هذا الراعي الصغير، تنبض كلماته بحبه لأرضه على ما يحدق بأهلها من مخاطر وأهوال :

(... يقال إنهم جاءوا ليمنعونا من التغني بأناشيدنا العذبة، بل قيل أيضا إنهم يريدون أن يحرموا علينا الاغتسال... أسفي على غيري : أما أنا فسأغني في قمم الجبال وأغتسل في النهر) (42).

ومثل هذه العفوية وتلك هي التي انبجست بها معاني العشق وصوره الجميلة المؤثرة على لسان موريسكي (مهجر) في شعر يسمعه ابن أمية وزوجه وبنتهما في تأثر بالغ، بل تؤكد (سليمى) أن :

(هذا الشعر من الأسى والرقة بحيث يصل إلى القلب ويؤلمه... ما سمعته إلا فاضت عيناي بالدموع...) (43).

وأغلب الظن أن غير (سليمى) من الموريسكيين كانوا، مثلها، إذا سمعوا هذا الشعر المؤثر الرقيق، فاضت أعينهم بالدمع:

وداعاً أيها المرج الجميل

أرض تحسدها السماء

ولدت فيها لسعدي
وفيها كنت أرجو أن أموت
عن رحابك وعن داري
انتزعتني نجمتي القاسية
وحكمن علي بأن أحيا
وأموت في أرض غريبة...
وها أننا لآخر مرة
ألقي عليك نظرة في ساعة نحسي
وداعاً يا غرناطة إلى الأبد !
وداعا يا وطن روحي
في هذا الربيع وذاك
وأنا أسير حزينا على شاطئ البحر
سأرى القنابر
وهي ترحل على الساحل الإفريقي تعبر البحر سريعاً
وتنشر أجنحتها إلى غرناطة
ولعلها تصنع عشها
في سقف بيتي...
سكت الموريسكي ثم زفر زفرة
ولما اجتاز الجبل
ردد لآخر مرة
وداعاً يا وطن روحي !.. (24)

وإذا كان الموريسكي (المهجر) لم يجد، في نطاق واقعه المنكود،

للتعبير عن عشقه العفوي لأرضه، وحبه الفطري لوطنه إلا مثل هذه الكلمات التي تتأجج بمشاعر الحزن، والألم، والمعاناة، فإن الموريسكي (المقيم) استطاع أن يجد، وفي نطاق واقعه المنكود كذلك، للتعبير عن عشقه لأرضه وسيلة أخرى، هي، بلا شك، أبعد في الدلالة على قدرة العشق على تحديد المصير، وتلك هي وسيلة البذل والعطاء على اختلاف درجاتهما ومراتبهما، يبلورهما لنا هذا الموقف الذي نرى فيه جماعة من الموريسكيين، رجالا ونساء، يتسابقون للتعبير، بين يد أحد زعمائهم، عن استعدادهم لبذل ما يملكون من نفس ونفيس في سبيل أرضهم :

(القاضي : إنني من أجل ما تعتزمه من فعل...

موريسكي : إنني من أجل ما تعد له من معركة...

القاضي : حياتي ومالي أقدم...

موريسكي : حياتي وروحي أهدي...

آخر : جميعا نقول نفس الكلام

موريسكية : وإني باسم موريسكيات غرناطة أهدي الجواهر والحلي) (45).

ولا شك أن الاستشهاد من أجل افتداء الأرض وتخليصها من براثن العدو والمغتصب قمة في البذل والعطاء؛ والموت، في هذه الحال، خيار، لا ثاني له، وبه قال الموريسكيون وفعلوا، فلنستمع إليهم يعبرون عن ذلك، في إصرار وعزم، جوابا على رسول(السلام) القشتالي :

(ابن أمية : وما عسى أن تضيف إلى ما ذكرت ؟... تقريع ؟ فقد سمعناه.

وعود ؟... لم يبق وعد لم تخلوا به. وعيد ؟ نحن عازمون على الموت.

موريسكيون ـ كثير : كلنا مصممون.

موريسكيون ـ أكثر : كلنا.

لاره : ولكن ما بال نسائكم وأبنائكم... هل فكرتم في مصيرهم ؟

ابن أمية : بلى، فكرنا فيهم، وقد شهرنا السيوف.

بعض الرؤساء : لن نغمدها قط... لن نغمدها !) (44).

وهاهم أولاء يعودون لما قالوا، قبلا، مؤكدين خيارهم الوحيد... قدرهم الوحيد : الموت من أجل حبيبتهم الأرض :

(ابن أمية : ... لم يبق لدينا سوى النصر أو المقصلة !

موريسكيون كثير : نقبل راضين !

البرطال : الموت أحب إلينا من أن نعود إلى الذل القديم.

ابن أمية : النصر لمن لا يهاب الموت، اتبعوني ياصحابي، اتبعوني فلنعط نحن إشارة النزال، ولن تردد هذه الجبال إلا أصداء الحرب، والقتال !) (46).

ولعلنا أن نلمح من خلال هذا الموقف وذاك، ومن خلال مشاهد المقاومة والحرب التي خاضها الموريسكي بحماس وحمية مسترخصا فيها نفسه وحياته، الخصيصة الثانية، أي الواقعية، في عشق الموريسكي لأرضه، وهي خصيصة جعلت هذا العشق يترعرع مرتبطا بواقع الأرض والوطن، لا يشغل صاحبه عنهما بالتحليق في سماوات التجريد والتهويم والخيال، ثم لا يزال هذا الشعور بواقعية (المعشوق) يتجذر بوجدان الموريسكي حتى يتحول عنده، كما رأينا، إلى عشق للموت... من أجل الأرض، أي من أجل الحرية والحياة الكريمة ؟

ب ـ المـــــرأة :

ووجوه التماثل والتشابه بين عشقه للأرض وعشقه للمرأة كثيرة، فهذا كذلك من حيث عفويته، أي صدقه وتفاؤله، وهذا كذلك من حيث واقعيته، أي إدراك صاحبه لما يستلزمه العشق الصادق، النقي من ضروب التضحية، والبذل، والعطاء.

ونفس هاتين الخصيصتين، أي العفوية والواقعية، هما اللتان أكسبتا عشق الموريسكي للمرأة خصيصة ثالثة هي هذه المثالية التي لا غلو فيها ولا مغالاة والتي جعلت من عشقه ممارسة يحقق بها صاحبها تكامله الشعوري وتواصله العاطفي بعيدا عن أي معنى من معاني المغامرة التي ينشد بها صاحبها أغراضا سريعة الزوال يرضي بها نزواته وشهواته.

وبوسعنا أن نتمثل هذه الخصائص مجتمعة في صورتين للموريسكي العاشق، هما مما تميز به أدب كالدرون المسرحي وتفرد.

أما الصورة الأولى فتطالعنا في مسرحيته « العشق بعد الموت.. » وفيها نشاهد ضون ألفارو التوازني، وهو أحد رؤوس الموريسكيين الثائرين بالبشرات، وقد نفذت إلى قلبه، كالسهام، الكلمات الأخيرة التي فاهت بها زوجه القتيلة، يتوجه إلى السماوات، والجبال، والرياح، والنيران من حوله يسائلها، في حسرة وألم ممضين، كيف لم تحم زوجه من بطش القاتل السفاك :

أيتها السماوات التي تشهد أحزاني
أيتها الجبال التي ترى أوجاعي
أيتها الرياح التي تسمع شدائدي
أيتها النيران التي ترى كربي

كيف تسمحن جميعا
بأن يختنق أجلى نور
بأن تذبل لكن أروع زهرة

لكن السموات، والجبال، والرياح، والنيران صامتة، خرساء، ليست ترد جواباً، فما أسرع ما يتحول عنها صوت ألفارو، في وقدة شبوبه العاطفي، إلى ذوي الخبرة والتجربة من العشاق، يسألهم النصح والتوجيه في مثل موقفه الحرج :

أيها الرجال الذين يعرفون الحب
دلوني في هذه الواقعة
صارحوني في هذه المصيبة
ماذا يجب أن يصنع محب
أقبل ليلقى حبيبته
ليلة كان على موعد
لأن يقطف ثمار حب أيام عديدة
غريقة في دمها
كسوسنة موشاة
بأخطر طلاء
كذهب صهرته نار
ماذ يجب أن يصنع محب
في محنة بالغة القسوة كهذه ؟
ماذا يجب أن يصنع هنا حزين،
السرير الذي كان يرقب قدومه

طالعه لحداً،
يضم طيفه الذي يهيم به،
وقد غدا جثة هامدة ! (48)

ولا يتلبث صوت الشاعر، العاشق الوامق، حتى يتلقى جوابا ممن توجه إليهم بالسؤال، فهؤلاء ليست لديهم ما ينصحونه به، لذلك يتحول عنهم إلى نفسه، إلى ألمه :

لكن لا، لا تجيبوني
ليس لديكم ما تنصحونني به
إذا لم يتصرف بوحي من الألم
رجل في مثل هذه الأحداث
فإنه ساء ما يتصرف به من وحي النصح ! (49)

ثم يتوجه إلى جبال البشرات يبثها شكواه وحزنه :

آه، جبال البشرات المنيعة
آه، يا مسرح
(بطولة)، ما أجبنها !
و (انتصار)، ما أخرقه !
و (مجد)، ما أشنعه
آه، أبدا... آه، أبداً
لن ترى جبالك في قمتها
ولن ترى وديانك في ضفتها
جمالا... أشقى من هذا ! (50)

لكنه لا يلبث أن يكتشف عبثية الشكوى ولا جدواها، ويلقي السؤال

(لأيِّ شيء تجبدي شكواي ؟) ودون أن ينتظر جوابا يرفع صوته بقسم متوهج بالحزن والألم أن ليس إلا الثأر. ويقوده هذا القسم إلى جيش العدو ويلتحق بصفوفه متنكرا في زي جندي للبحث عن القاتل السفاح. وكأنما ترق الأقدار لحاله فما أسرع ما تسوق إليه جنديا يدعى جرثيس حدثه، فيما حدثه به، عن امرأة بارعة الجمال من موريسكيات (جاليرا)، امتلأ إعجابا بها، فلما رأت أنه يريد بها سوءا قاومته وفاء لحبيبها وإخلاصا له ودفاعا عن عرضها وحياتها فلم يشعر إلا وهو يطعنها بخنجره طعنة نجلاء ضرجتها بدمائها. ولا يكاد الجندي ينتهي في حديثه إلى هذا الحد حتى يبادره ضون ألفارو، وقد أيقن أن الضحية زوجه، بطعنة قاتلة قائلا له :

ضو ألفارو : أو كانت الطعنة مثل هذه ؟

جرثيس : آه، يالتعاستي !

ضون ألفارو : مت ياخائن.

جرثيس : أو أنت الذي تقتلني ؟

ضون ألفارو : أجل. لأن تلك القاتلة الفاتنة، تلك الوردة التي جردت من أوراقها.

كانت روح حياتي.

واليوم هي حياة روحي.

أنت الذي عنه كنت أبحث.

أنت الذي ساقني إليه أملي

لاثأر لجمالها.

جرثيس : آه، لقد أخذتني على غرة، ولا سلاح معي.

ضون ألفارو : أبدا، لا يقوم الثأر

على مواعيد.
ضون ألڤارو التوزاني
زوجها هو الذي يقتلك (51).

واذا كان بعض الدارسين قد رأى في هذا المشهد العجيب من العنف والسطوة ما حملهم على اعتبار ضون ألڤارو أنموذجا للمنتقم الإفريقي الشرس الذي تغشى عينيه سحب الثأر (52) فلا يبصر من حوله إلا الظلام فإننا على عكس ذلك، نرى فيه من سمو العاطفة، وشفافية الشعور، وثبات الجنان ما يبلور عفوية العشق وواقعيته ومثاليته عند الموريسكي ضون ألڤارو التوزاني ويرتفع به إلى مصاف الخالدين من عشاق الإنسانية في مختلف الأعصار.

والصورة الثانية التي يطالعنا فيها الموريسكي عاشقا في صدق، وعفة، وتضحية، هي صورة الكانييري الذي شغف بصبية غومث أريسامى حبا، غير أن ظروف الحرب بين الموريسكيين والنصارى أبعدته عنها. لكن القدر لم يبخل عليه بلقائها من جديد، فلقد ساقها غومث أريسامى إلى سوق الرقيق ب : (بمنجي) حيث عرضها للبيع، وهنالك سارع الكانييري بما لديه من غال وثمين يستخلصها من يد غومث، فلنستمع إليه يعبر عن ذلك في عفوية ومثالية عامرتين بمشاعر التضحية والبذل :

إذن، كيف تشك فيما إذا كنت أريد
شراءها، وإني لأعطيك، أيها النصراني،
الأرض، ما حوت وما أقلت، من اجلها ؟ (53)

ويختم الكانييري كلامه، مثلما استهله، مؤكدا استعداده لافتداء دورطيا، وهو اسم الفتاة، بكل ما يملك :

وأخيرا، كل ما لدي من ذخيرة عظيمة،
من أحجار كريمة، وفضة، وذهب
أعطكيه، أيها النصراني، من أجلها
ترقب عند الباب الحديدي
فإني أت للاتفاق
ليس حول الثمن وإنما حول التسليم (54)

ثم يرسل صيحة ملؤها صدق الحب، وبهجة الظفر بالمحبوب :

أيتها السماوات،اليوم
أنا للشمس نفسها مالك (55).

وليس هذا مجرد لغو وهذر، يزجي بهما عاشق وقته، ويوهم نفسه بما لاسبيل إلى تحقيقه، بل هو كلام الواثق بما يقول، يعقبه الفعل ويسنده :

إرادتي ينبغي ألا توضع
في نطاق سمر، أيها النصراني، هكذا،
حتى لا أحدثك عنه أحضر لك
أزيد مما تستطيع طلبه
خذ تلك الجواهر كلها
حيث سترى
ألماس واليواقيت
تنافس النجوم والورود (56)

وسواء حين يتعلق قلب الموريسكي بالأرض أو حين يغرم بالمرأة فإن مواقفه تبدو، من خلال ما سقناه من مشاهد، مجللة بالمكابدة، والمعاناة، والألم، لكن دون أن يعوز صاحبها إحساس عميق بالأمل في الظفر والفوز. وهنا يمكن السر في الالتحام القوي الذي نلاحظه بين العشق والشجاعة، وبين الحب والبذل عند موريسكيي كالدرون ودي لا روسا.

III ـ الموريسكي ثائراً :

في المسرح، كما في التاريخ، يكاد يكون أول ما يسترعي انتباهنا في شخصية الموريسكي صفته الثورية. تتغير فيه الصفات إلا هذه الصفة فإنها لا تتحول عنه ولا تزول : يحزن وهو ثائر، ويفرح وهو ثائر، يحب وهو ثائر، ويكره وهو ثائر، يجد وهو ثائر، ويهزل وهو ثائر، يسخط وهو ثائر، ويرضى وهو ثائر حتى إنه ليمكننا القول بأن (الثورية) بمعناها الواسع، أي سواء كانت إحساسا خفيا أو فعلا منظورا، كانت القاسم المشترك بين الموريسكيين جميعاً وإن إختلفت مدا وجزراً، واندفاعا وانحسارا من فرد إلى آخر ومن جماعة إلى أخرى، ومن مكان إلى آخر، ومن فترة إلى أخرى.

ولا ريب أن هذه الصفة التي لا زمت الموريسكي حتى غدت كالشارة المميزة له كانت ثمرة شعور عميق بالثورة كفعالية حادة في الاستشراف والتغيير، كان يدرك أنه ليس يكفي في ممارستها الاستجابة لهواتف العاطفة والانسياق وراء بوارقها، بل لابد في ذلك من الوعي بها، أي الثورة، من حيث :

أ ـ داعيها :

وقد كان من الوفرة، والكثرة، والتنوع بحيث لم يكن ليخفى على أحد، وكيف يخفى وأثره قد مس الناس جميعا في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم :

(ابن فرج : «... ألا يكفينا ما نبوء به من مهانة وعار، يتصرفون في أنفسنا وأموالنا كما يشاءون، ويجترئون على النظر بعيون مبتذلة إلى زوجاتنا وبناتنا... هل بقي في العالم شيء يوقرونه ؟») (57).

ومسهم في فلذات أكبادهم :

(ابن فرج : «... إنهم يعدون العدة لاقتحام دورنا، فهم يشرعون في إحصاء أبنائنا بل عبيدهم وهم في حجور زوجاتنا، بل لقد شاع أنهم يريدون أن ينتزعوهم منا ويحملوهم إلى قلب قشتالة...») (58).

ومسهم، من قبل، في دينهم وعرش بلدهم :

(ابن أمية : «... ومع ذلك أرى عرش أجدادي قد أذله الإسباني بصلفه، ومساجدنا انقلبت ترابا...») (59).

بل لم يبق من حياتهم جانب إلا وقد مس :

(مالك : «الشروط، إذن، كان

فيها القديم

وفيها جديد،

جاء يتضمن جديدا من الاجراء :

حرام على أي فرد

من الشعب المسلم

ـ الذي هو اليوم رماد متطاير

لتلك النيران المستمرة
التي احترقت بها إسبانيا ـ
أن يقيم حفلات يرقص فيها ويغني،
أن يلبس حريرا،
أن يستحم،
أن يسمع في أي منزل
وهو يتحدث العربية» (60).

وقد يكون الإحساس بوقع هذه الإجراءات الرهيبة، المجحفة قد اتخذ عند الموريسكي صورا شتى من التعبير، لكن أعمقها دلالة، برأينا، تمثل في حالة الحزن التي تلبست الموريسكي كشارة حداد لا مجال للفرح بجانبها :

(ابن أمية : «... بلى أنا حزين، وفؤادي مفعم بالمرارة... ولكن، هل هناك ما يدعو إلى فرحي ؟ ... ولو رأيتني فرحا لما استحققت منك إلا الاحتقار» (61).

ب ـ إمكانها :

وهو أمر يتوقف على الاعداد النفسي والمادي. وهو مما شغل به الموريسكي سواء عند كالدرون أو عند دي لا روسا :. فهذا (مالك) أحد وجوه القوم، يشحذ العزائم ويؤجج المشاعر :
(هيا أيها الموريسكيون الشجعان،
بقية بني الإسلام النبلاء :
إن النصارى، فقط،

يريدون أن يجعلوا منكم رقيقا لهم) (62)

ثم يدعوهم إلى الالتحاق بجبال البشرات؛ موئل الثورة :

(هي لنا كلها

فلننقل إليها الزاد والسلاح

ولنؤمر علينا

من ذرية بني أمية الطيبة) (63).

وهذا (ابن أمية) ينعى على قومه استسلامهم للأمر الواقع والرضى بالعيش تحت رحمة السوط الذي يحمله السادة :

(... تعس الذين لا يزالون يقدرون على أن يجأروا بالشكوى إلى السماء ويهتفوا باسم وطنهم ويلعنوا من بغوا عليهم ولا يزالون يعبدون رب أجدادهم ويبقون على شريعتهم وعاداتهم وتقاليدهم) (64).

ثم ها هو ذا يرسلها صرخة مدوية تهتز لها النفوس والأفئدة :

(دعوا البكاء للمسنين والنساء، والمهانة التي تلحق بذوي الأنفة لا يغسلها إلا الدم !) (65).

وهذا ابن عبو، أحد رؤوس القوم كذلك، يحض على الثورة ويحمس لها، مبصرا بمعطياتها لو أنهم بادروا بها من قبل :

(... لو أننا رفعنا راية الثأر قبل أن نسام الهوان بعد الهوان، لم لم نحل، خذلانا منا، دون ثورة مائة قبيلة لرفع نير الذين طغوا علينا، هل كان في إمكانهم أن يبلغوا بغيهم غايته ؟... كلا. لو كنا فعلنا لغشوا خوفهم بشيء من الرحمة، لما سفكوا دماء ضحايا كثيرة، ولما اجترأوا على أن يدفنوا سليل ملوكنا في مطبق) (66).

ومثلما نرى الموريسكي يشغل بالإعداد النفسي للثورة نراه كذلك

يشغل بالإعداد المادي لها، فهذا ابن أمية يدعو لذلك ويحث عليه :

(... ولكن علينا ألا نضيع هذه الساعات الثمينة فيما لا يجدي من تهديد ووعيد، هيا نجمع أنصارنا لنفضي إليهم بما عزمنا عليه... ولنستخرج من باطن الأرض أسلحة آبائنا التي طال عليها الأمد وهي تتربص ساعة القصاص) (67).

وهذا ابن عبو يعلن عن مظاهر هذا الإعداد حين يقول :

(وما عسى أن يبقى من شك بعدما وقفنا عليه من أمارات... فقرانا عن بكرة أبيها قد أعدت عدتها، وإخواننا على الساحل كله من جبال رندة ومرج غرناطة إلى قلب المدينة وفي وسط الأعداء قد انتضوا سيوفهم وشحذوا خناجرهم) (68).

وهو نفسه يعلن على رأس الملأ بملء فيه أن لا مبرر للانتظار بعد إعداد العدة :

(هل يكون السلاح بأيدينا وننتظر كالعبيد الأذلاء.. ؟) (69).

واختيار المكان المناسب ليكون مسرحا للثورة هو أيضا مما يدخل في نطاق هذا الإعداد :

(ابن أمية : «... في ظل هذا الإقليم الجبلي الوعر، وظهرنا يحميه البحر، وأيدينا في أيدي إخواننا من أهل إفريقية نستطيع أن نضرمها عليهم حرباً شعواء يطول أمدها دون أن ينالوا نصرا، أو يهتبلوا فرصة أو يصيبوا مجدا..) (70).

ومثل اختيار المكان المناسب للثورة اختيار الوقت المناسب لتفجيرها :

(ابن أمية : «... نعم أيها الأصحاب، إذا كنت قد تأخرت طويلا في امتشاق الحسام فإن ذلك لم يكن عن خوف مني قبيح، فما أكثر ما

تحملت من خزايا وأنا صابر، وطويت صدري على شكاتي حتى لاتقر عيون الباغين علينا... لكن لم يكن يكفيني أن أعلم أن أصحابنا وإخواننا يلقون ما يلقون من عذاب شديد وهم تحت نير المعتدين ويريدون أن يحطموه، بل كان من السداد الانتظار حتى لانخاطر في غير فائدة بمصير هذا الأفق، وحياة أقوام كثيرين، والأمل الأخير الموطن... وكنت على يقين من أن الظلم الذي يوقعه أعداؤنا الطغاة بنا سينفذ معه صبرنا، وأثرت أن أترك لهم إعطاء الإشارة للثورة... والآن وقد أعطوها فسيجدون منا سهماء) (71).

وهو يؤكد على هذا المعنى مرة أخرى حين يخاطب الثوار :

(... كنت أعلم ما تريدون ولكن كان لابد من انتظار اللحظة الملائمة ونأخذهم على غرة... جاءت اللحظة السعيدة) (72).

ج ـ معطاها :

ولا شك أن التصور الجلي لداعي الثورة وإمكانها كفيل بأن يتبع لصاحبه تصوراً مثله لمعطاها :

(ابن أمية : «وإذا أحدق بهم الخصوم والأعداء من كل جانب، فهل يقدرون، دون خوف أو حذر، على رؤية النار تنتشر في ديارهم ؟ كلا، كلا ؟ سيرتجفون خوفاً على نسائهم وأبنائهم كما ارتجفنا خوفاً على نسائنا وأبنائنا، وسيرتدون فزعاً حين يرون الأرض تنشق تحت أقدامهم كما انشقت من قبل وابتلعت آباءهم طوال قرون ثمانية») (73).

والحق أن الوعي على هذا النحو بمحاور الثورة الثلاثة : الداعي، والامكان والمعطى يكشف لنا عن إيجابية الفكر الثوري لدى الموريسكي

وهي إيجابية جعلت من صاحبها ثائراً عميق الإدراك بمنطلقات ثورته وغاياتها.

ولولا الاستسلام، في لحظات الضعف والانتكاس البشريين، لسلطان الأهواء الذاتية التي يسعر نارها إرث الخلاف والفرقة بين بني الثغري وبني أمية، لكان بوسع الموريسكي الثائر أن يدخل إلى تاريخ الثوار العظام من أوسع أبوابه حيث يحله هناك وعيه وإيجابيته الثوريتان المقام الأسمى.

١٧ ـ الموريسكي فكهاً، مرحاً :

حرص كالدرون دي لاباركا، شأن سلفييه لوب دي رويدا ولوب دي ڤيجا، على رصد مواقف ومشاهد من حياة الموريسكي الذي يثير الضحك ويبعث عليه لظرفه، وملاحته، وفكاهته، ومرحه.

ولعل أشهر شخصية فكهة في مسرح كالدرون هي شخصية (الكسكوس)، وهو موريسكي غرناطي، كان يمتلك خيمة صغيرة، يتحدث عن محتوياتها، فيقول :

ليس لي أنا
إلا خيمة صغيرة في (ڤرارامبلا)
فيها زيت، وخل، وتين
وجوز، ولوز، وزبيب
وبصل، وثوم، وفلفل أخضر
وشرائط، ومكنسات جريد
وخيوط كتان، وإبر، وجيوب

يعلقها النساء في حزامهن
إلى ورق أبيض، وأجزاء بغل مستعملة
وبذر الكمون، وتكات الكلاب
وتبغ ومقاييس
وقصب لصنع الأقلام
ودهن لختم ظروف الرسائل (74)

وذات يوم يسقط (الكسكوس) أسيرا في يد النصارى. وحين يسأله رئيسهم عن جلية أمره يردد في قرارته (هاهنا ينفع المكر والحذر) ثم يجيبه متظاهراً بالتنصر، ومعرفة عقيدة التثليث، متظلما من الموريسكيين الذين يريدون قتله لذلك. ثم يقول لمن أسروه إنه لو أمنوه على حياته لدلهم على طريق يدخلون منه إلى جبال البشرات دون مقاومة :

الكسكوس، موريسكي لا شأن له.
أخذوه بالقوة
إلى البشرات
ولأني مسيحي في القرار
أعرف عقيدة التثليث
أساس الإيمان المسيحي
والصلاة للعذراء
ووصايا الكنيسة الأربعة عشر
ولقولي إنه مسيحي
يسعى الآخرون في قتلي (75)

ولم يمنعه وضعه الحرج كثير من أن ينفق مما عنده من فكاهة ومرح، فحين يسأله جندي قشتالي عن اسمه يجيبه :

الارز !

إذا كنت أدعي بين الموريسكيين كسكسا

فإني سأدعي بين النصارى أرزا (76).

وإذا قال له (جرثيس) وهو اسم الجندي القشتالي :

الكسكوس، لقد أصبحت عبدي

قل الحقيقة

يجيبه : هنيئا ! (77).

ثم يطلب منه أن يدله على مدخل للبشرات فيمتثل له، لكنه سرعان ما يستغل جهل (سيده) بالمنطقة فيلوذ بالفرار تاركا إياه بلا دليل ولا زاد !

وإذا كان في كثير من مشاهد الكسكوس ما يعكس ظرفه، وخفته، ومرحه فإن في عرض إثنين منها ما يكفي في الدلالة على خلفيات الموريسكي الفكه، النفسية، والعقلية.

وأول المشهدين مشهده وقد اعتراه ما يشبه الإحساس بالهوان حين كلفه ضون ألفارو التوزاني، وهو سيده الحقيقي، بحراسة زوجه. حينئذ جعل يحدث نفسه :

لا توجد مهنة أردأ

من مهنة القوادة

لأن كل المهن

يعمل فيها المرء لنفسه

إلا القوادة فللآخرين (78)

وقد قاده هذا التفكير إلى استعراض فوائد المهن الأخرى :

لعل صانع الأحذية
يصنع لنفسه أحذية
والخياط يخيط لنفسه الثوب الجديد
والطاهي يذوق
الطبيخ ليتأكد من جودته
والحلوائي يأكل
مما صنع من حلوى
باختصار :
القواد وحده نفعه لغيره ! (79)

أما ثاني المشهدين فهو مشهد الكسكوس وقد خشي أن يعود سيده فيقتله حين لا يلقي زوجه التي كلفه بحراستها فآثر أن يموت بالسم على أن يقتل :

إذا كان لابد أن تموت
أيها الكسكوس بالسيف
وثمة أشكال للموت لتختار
فلتمت بالسم
فهو موت أحلى، عجبا
فإني قد سئمت الحياة
(يخرج قنينة ويشرب منها)
الموت، هكذا، أفضل
على الأقل، حتى لا يموت المرء

غريقا في دمه (80).

وما أسرع ما جعل يفقد وعيه وقدرته على التمييز :

وإذن، ها هو ذا مفعوله قد بدأ يسري

العينان تتكدران،

والمخ يجمد،

واللسان يخلط (81)

حتى إذا غلبه سلطان المشروب الذي كان يحتسيه من القنينة سمعناه

يقول في شبه همس :

أنوم هذا أم موت ؟

لكن الجميع يقول بأن الأمر سيان

وإذا صح قولهم... إذن، ما أدري

إن كنت أموت أو أنام (82).

وحين يعود سيده يلاحظ عليه آثار السكر، فيقول له :

لقد كنت سكران ليلة أمس

يجيبه الكسكوس :

إذا كان ثمة سموم تسكر

فقد سكرت، وأنا متؤكد من ذلك الآن :

الفم كالحديد،

اللسان والشفتان

من اليبس كالمرو،

والمذاق يثير الرغبة في الشراب،

والطعم طعم الخل (83).

غير أن مما تنبغي الإشارة إليه هو أن حياة الكسكوس لم تكن هزلا كلها فقد كان يحدث ما يستدعي الجد فلا يتوانى الكسكوس ولا يتلكأ، ومن ذلك مصاحبته سيده ضون ألفارو التوزاني في البحث عن الجندي الذي قتل زوجه (مليكة). وقد كان عليهما ليتمّا إلى صفوف الجيش القشتالي، حيث يوجد الجندي السفاك، أن يتنكرا في زي الجنود، وأن يتحدثا بلهجتهم، وهو ما استصعبه الكسكوس إذ خاطب سيده :

أنت الذي تتحدث لغتهم جيدا
أنت الذي لم تسقط أسيرا بين أيديهم
أنت الذي تشابههم في الملامح
أكيد أن أمرك سينطلي عليهم،
وأنا الذي لا يجيد النطق مثلهم،
أنا الذي كنت أسيرا لديهم،
أنا الذي لم ألبس قط مثل هذه البذلة،
كيف أتجنب العقاب ؟ (84)

لكن سيده يشير عليه أن يتظاهر بالبكم، فيقول له الكسكوس :

وإن أحد أراد معرفة
شيء عني ؟
يجيبه ضون ألفارو : لا تجبه
فيقول الكسكوس : من لا يستطيع ألا يجيب ! (85)

ولقد عمل بإشارة سيده، لكن (بكمه) لم يمنع ظرفه وملاحته أن يبدوا من خلال حديثه إلى نفسه، فحين يبادئه جندي بالحديث ينظر إليه وهو يقول في قرارته :

أكلم، ولا أجيب !
صبرا !
وإذا قال جندي وقد رآه لا ينبس ببنت شفة :
أبكم هو !
قال الكسكوس في نفسه :
وقد توقع أن يعاقبوا بالحبس فيحبس معهم :
شيئان يسببان حزني
المشادة والصمت
بل إنها ثلاثة إن أحسنت العد
واحد، إثنان، ثلاثة
نعم، تصبح ثلاثة :
الحبس، والصمت، والمشادة (86).

☆ ☆ ☆

تلك جملة ملامح تطالعنا بها صورة الموريسكي في بعض آثار الأدب المسرحي الإسباني. وهي، طابقت التاريخ أو خالفته، تعبير عن وجهة نظر في (الموريسكي) بقدر ما نستكشف فيها (موقف) هذا الكاتب أو ذاك من شخصية الموريسكي في جدها وهزلها نستكشف (موقف) عصره وبيئته من نفس الشخصية باعتبار أن كل رؤية في (الإبداع) جماعية حتى ولو كان مصدرها فرديا. ومن هنا تكتسب تلك الملامح، في اعتقادنا، صيغة (الاحكام)، ومن هنا تكتسب (وثقيتها)، وفي هذه تكمن أهمية دراستها.

تطوان د. حسن الوراكلي

الهوامش

1) انظر بيبليوغرافيا وافية بذلك في الكتب التالية :

1 ـ Caro Baroja, Julio : Los Moriscos del reino de Granada. Ed. Istmo Madrid. 1976, pp. 265 - 281.

2 ـ García Arenal, Mercedes : Los Moriscos. Ed nacional - Madrid 1975, pp. 287 - 318.

3 ـ Dominguez Ortiz, Antonio y Vincent Bernard : Historia de los Moriscos Ed. Biblioteca de la Revista de Occidente. Madrid, 1978. pp; 291 - 313.

4 ـ Luis Cardaillac : Morisques et Chrétiens. Un affrontement polémique (1492 - 1640) Ed. Klincksieck 1977.

2) تجدر الإشارة إلى أن آدابا أخرى شاركت الأدب الإسباني في رصد حياة الأقلية الموريسكية وتصوير مأساتها، وفي طليعة تلك الآداب أدب الموريسكيين أنفسهم سواء في صورته العربية، وأهم ما نعرفه فيها القصيدة لموريسكي مجهول رواها المقري في كتابه «أزهار الرياض» ج 1 ص 105 ـ 1512) ويستنجد به لحماية الإسلام والمسلمين المعتدى عليهما في إسبانيا.

وأهمية هذه القصيدة فيما تكشف عنه من الظروف السياسية والدينية، والاجتماعية التي كانت تكتنف حياة الموريسكيين يومئذ، وفيما تضمنته من إشارات إلى وقائع تاريخية، كإحراق الكتب العربية في غرناطة من طرف الكاردينال ثيسنيروس سنة 1499، ومثل هذه الإشارات هي التي أعانت مونرو في دراسته القيمة لهذه القصيدة على تحديد تاريخ تأليفها بسنة 1501، أي في السنة التي صدر فيها الأمر بتنصير الموريسكيين الغرناطيين.

انظر : García Arenal, Mercedes Los Moriscos : 33

أما الأدب الموريسكي في صورته الخميادية أو المستعجمية Literatura aljamiada morisca، أي المكتوب في لغة رومانثية إسبانية (برتغالية أو قشتالية أو أراغونية أو قطالانية) بحروف عربية فإننا لا نقع فيه على نصوص إن لم تكن تصور حياة الموريسكيين الخاصة فإنها تعمق لدى قارئيها من أبنائهم وعيهم الديني والقومي.

انظر، نفس المرجع ص 73.

3) أنظر حول أهمية هذه القصائد التاريخية والاجتماعية الدراسة المعمقة التي كتبها خوسي فراديخاس لبريرو José Fradejas Lebrero ونشرتها مجلة «Cuadernos de la Biblioteca española de tetouan» Num. 2 pp. 39 74 (Noviembre 1964).

4) أنظر عنها دراسة الأستاذة ماريا سوليداد كراسكو في كتاب Historia y Critica de la literatura española Ed. Critica (Barcelona) pp. 314 - 317.

5) متضمنة في الجزء الأول من رواية معيلة الزمان ألفاراتي « La Vida de Guzman Al Farache وقد نشر لأول مرة بمدريد سنة 1599.

6) انظر، د. سهير القلماوي ود. محمود علي مكي : أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية - فصل في الأدب ص 132 - 133.

7) نفسه، ص 133.

8) أنظر، طوماس غرسية فيغراس : 43 - Miscelanea de estudios africanos, pp. 35

9) نفسه، 35.

10) أنظر، ماريا سوليداد كراسكو : El Moro de Granada en la literatura, p. 81

11) نفسه، ص 81.

12) نفسه، ص 81.

13) أنظر، Un Morisco de Tunez, Admirador de Lope , Revista AL Andalus, volumen I (1933) pp. 409 - 450.

14) منها ثلاثة، استلهم في اثنين منها سيرة بعض أمراء المغرب، وصور في ثالثة سلوك خادمة مسلمة إسمها سليمى، والمسرحيات الثلاثة هي :

1 - الأمير الوفي El prince constante

2 - أمير فاس العظيم السيد بالطاسر دي لويولا El Gran Principe de Fez, On Baltasar de Loyola

3 - حديقة فلرينا El Jardin de Falerina

15) هي في جملة مترجماتنا من المسرح الإسباني.

16) أهم الكتب التاريخية التي تضمنت مادة مستفيضة عن هذه الثورة كتابان، أولها «حرب غرناطة التي شنها الملك فليب الثاني ضد موريسكيي تلك المملكة من ثوارها » Gerra de Granada Que hizo el Rey Don Felipe II contra los moriscos de aquel reino sus reveldes ومؤلفه هو دييغو هرطادو دي منضوثا. أما الكتاب الثاني فهو : « تاريخ ثورة موريسكيي مملكة غرناطة وعقابهم » Historia del revelation y Castigo los Moriscos del Reino de Granada

ومؤلفه هو لويس دي مرمول كربخال، والمؤلفان من معاصري الثورة وشهودها.

17) انظر، د. لطفي عبد البديع، مقدمة ترجمته لمسرحية «ابن أمية أو ثورة الموريسكيين» لما رتينث دي لاروسا، ص 7.

18) أنظر : el moro de granada en la literatura pp. 319 - 320.

19) نفس المصدر ص 90.

20) هو رينيه دو شاتوبريان René de Chateaubriand (1768 ـ 1848) أحد أعلام الرومنطيقية الفرنسية، ومن أشهر أعماله Les aventures du dernier Abencérage وقد ترجمها المرحوم الأمير شكيب أرسلان بعنوان « آخر بني سراج ».

21) أنظر : El moro de Granada p. 90

22) أنظر هامش رقم 16

23) أنظر : El moro de Granada p. 333

24) نفس المصدر ص 334.

25) نفس المصدر ص 335.

26) نفسه، ص 338.

27) أنظر مقدمة مارتينيث دي لاروسا لمسرحيته «ابن أمية...» الترجمة العربية ص 12.

28) أنظر، فرنسيسكو رويث رامون : Historia del teatro español pp. 414 - 417

29) أنظر مقدمة مارتينيث دي لاروسا لمسرحيته «ابن أمية...» ـ الترجمة العربية ـ ص 14.

30) أنظر منندیث بلايو Estudios de crítica histórica y literaria IV. 280 - 281

31) هي مسرحيتا كالدرون دي لاباركا :

١ ـ عشق بعد الموت Amar después de la muerte

٢ ـ صبية غومث أرياس La niña de Gomez Arias

ومسرحية مارتينيث دي لاروسا «ابن أمية أو ثورة الموريسكيين» ترجمة د. لطفي عبد البديع.

وقد كان بودنا النظر في مسرحيات أخرى مما أسلفنا الإشارة إليه في المدخل، غير أن عدم توفرنا عليها من جهة، وضيق وقتنا من جهة أخرى حالا، للأسف، دون ذلك.

32) أنظر، مارتينيث دي لاروسا : ابن أمية أو ثورة الموريسكيين. ترجمة د. لطفي عبد البديع، ص 38.

33) نفس المصدر ص 38.

34) نفس المصدر ص 40.

35) نفسه ص 40 ـ 41.

36) نفس المصدر ص 44.

37) نفسه ص 45.

38) نفس المصدر 51.

39) نفسه، ص 52 ـ 53.

40) نفسه، ص 26.

41) نفس المصدر ص 42 ـ 43.

42) نفسه، ص 64 ـ 65.

(43) أنظر Calderon de la Barca : despues de la muerte p. 143

(44) أنظر، ابن أمية أو ثورة الموريسكيين ص 79.

(45) نفسه، ص 81 ـ 82.

(46) أنظر : Amor despues de la muerte p. 211

(47) نفسه، ص 211.

(48) نفسه، ص 211.

(49) نفسه، ص 211 ـ 212.

(50) نفسه، ص 238 ـ 239.

(51) أنظر : José Fradejas Lebrero : Musulmanes y Moriscos en el teatro de Calderon. - Revistas Tamuda, Año IV, p. 199.

(52) أنظر Calderon de La Barca, La niña de Gomez Arias, p. 32

(53) نفسه، ص 33.

(54) نفسه، ص 33.

(55) نفسه، ص 34.

(56) أنظر : ابن أمية أو ثورة الموريسكيين ص 32.

(57) نفسه ص 33.

(58) نفسه، ص 27.

(59) أنظر : Amor despues de la muerte, p. 140

(60) أنظر، ابن أمية، ص 35.

(61) أنظر : Amor despues la muerte p. 142

(62) نفسه، ص 142.

(63) أنظر ابن أمية، ص 27.

(64) نفسه ص 36.

(65) نفسه ص 36.

(66) نفسه ص 34.

(67) نفسه ص 38.

(68) نفسه، ص 37.

(69) نفسه، ص 47.

(70) نفسه، ص 48.

(71) نفسه، ص 36 ـ 37.

(72) نفسه، ص 46.

(73) نفسه، ص 48.

74) أنظر : Amar despues de la muerte p. 143

75) نفسه، ص 177.

76) نفسه، ص 178.

77) نفسه، ص 178.

78) نفسه، ص 196.

79) نفسه، ص 196.

80) نفسه، ص 197.

81) نفسه، ص 198.

82) نفسه، ص 201.

83) نفسه، ص 204.

84) نفسه، ص 219.

85) نفسه، ص 220.

86) نفسه، ص 226.

المراجع

أ. بالعربية

- د. سهير القلماوي ود. محمود علي مكي
- في الأدب، فصل ضمن كتاب «أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية». ط. الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. (1970).
- د. لطفي عبد البديع :
- مقدمة ترجمته لمسرحية «ابن أمية أو ثورة الموريسكيين» لمؤلفها مارتينيث دي لاروسا سلسلة «من المسرح العالمي» رقم 53. وزارة الإعلام ـ الكويت.
- مارتينيث دي لاروسا
- ابن أمية أو ثورة الموريسكيين
ترجمة وتقديم : د. لطفي عبد البديع. سلسلة (من المسرح العالمي) رقم 53. وزارة الإعلام ـ الكويت (1974).
- مارتينيث دي لاروسا
- مقدمة مسرحيته : «ابن أميه» ترجمة د. لطفي عبد البديع سلسلة «من المسرح العالمي» رقم 53. وزارة الإعلام ـ الكويت.

ب - بالإسبانية

Calderon de La Barca, Pedro

Amar despues de la muerte Ed. Espasa - Calpe. Madrid

– Calderon [illegible] La Barca, Pedro

La niña de Gomez Arias. Ed. Biblioteca de Autores Españoles de Rivandeneyra. Tomo XIV.

– Carrasco Urgoiti, Soledad

El moro de Granada en la Literatura (del Siglo XV al XVII) Madrid. 1956.

- Francisco [illegible] Ramon

Historia del teatro Español (desde sus origenes hasta 1960) Alianza Editorial Madrid, 1967.

– José Fradeja Lebero

Musulman y Moriscos en el teatro de Calderon.

Rivista « Tamuda » IV, 1957.

– Mercedes Garcia Arenal

Los Moriscos. Editorial nacional. Madrid. 1975.

– Tomas Garcia Figueras

Miscelanea de estudios Africanos. Editora Marroqui. Larache 1948.

من معاهد العلم التاريخية بالمغرب:

الأزهر والأصدع

عبد القادر زمامة

إذا كانت قضية إنشاء مدارس ومعاهد الدراسة في المغرب، على المستوى الذي يحقق هذه الدلالة... ويعطيها طابع الواقعية التاريخية، ماتزال في حاجة إلى نصوص ودراسات تكشف الغطاء عن البدايات الأولى. أين كانت..؟ ومتى كانت..؟ فإن ملابسات بعض المصادر المهتمة بطبقات الرجال وتراجم الأعلام، تجعلنا نقف على معالم تنير لنا سبيل البحث والدراسة والاستنتاج في نطاق محدود...!

وقضية إنشاء مدارس ومعاهد الدراسة في المغرب، هي بطبيعة الوضع الحضاري، والثقافي ليست قضية تخص ناحية، أو مدينة، أو إقليما. فحيثما وجدت حياة مستقرة منتظمة، وجدت إلى جانبها مساجد تكون النواة الأولى لظهور المعلمين، والمتعلمين، وحفاظ القرآن الكريم، ودارسي مبادىء الدين والأخلاق والتربية، وما يعين عليها من نحو ولغة، وأدب...

وحصل في تاريخ المغرب أن مصادره الأولى أتى عليها الزمان. ولم يبق منها إلا نتفا، لا تروي ظمأ، ولا تطفيء غلة. عن الأوضاع السياسية والحضارية، والثقافية، التي كانت سائدة في أرجاء المغرب الواسعة الأطراف...

ولعل من أقدم مابقي من هذه النتف فيما يتعلق بقضية إنشاء المدارس، والمعاهد بالمغرب، مايتحدث به المؤرخون عن رباط شاكر بنفيس، ودار المرابطين بسوس... ومدرسة الصابرين المرابطية بفاس (1)... ومعاهد الموحدين في مراكش وغيرها... زيادة على ماكانت تقدمه (القرويين) من إشعاعات علمية منذ نشأتها...!

ففي غيبة النصوص نجد أنفسنا في هذه القضية وفي غيرها نتطلع إلى كل إشارة، أو أمارة، أو أثر شاخص، نستطيع أن نستنطقه عما يمكن أن يفيدنا به في الموضوع...

بهذه التوطئة، وفي هذا الإطار نتناول بالبحث التاريخي جانبا من جوانب معاهد العلم التاريخية بالمغرب... والأمر يتعلق بمسجدين عتيقين بمدينة فاس، كانا بإلى جانب القرويين، ملتقى بعض الأعلام في عصور غابرة لإلقاء دروس العلم، وفتح الكتب، والدواوين، للمطالعة، والمراجعة، والمناقشة، وما يتبع ذلك من صلات بين الأساتذة والطلبة... ومن أجل ذلك كتب لهما أن يظل إسمهما حيا في كتب التاريخ إلى الآن...

---

(1) انظر مجلة «البحث العلمي» ع 24 ابريل 1975 م ص 103.

فالمسجد الأول، اشتهر بإسم الأزهر، لكثرة الطلبة، والأساتذة، والدروس، التي كانت تلقى به في حقب طويلة من الزمان... نعرف بعضها في عصر الموحدين...

ويقع هذا المسجد في حي سكني قديم، يسمى حي عين الخيل، بين زقاق الرمان، وسوق عين علون. من أحياء عدوة القرويين داخل باب عجيسة... وهو في وضعه الحقيقي عبارة عن مسجدين اثنين أحدهما أعلى، والآخر أسفل (2)، ولكل من المسجدين مدخل خاص به من الخارج... ولكل منهما محراب ومرافق... وفي داخلهما منفق يصل بينهما... وقد جرت العادة أن تقام الصلوات شتاء في المسجد الأعلى، بينما تقام صيفا في المسجد الأسفل... وكذلك الشأن في الدروس...!

وصومعة المسجد من الناحية الشكلية متميزة بطابعها الخاص الذي يذكرنا بحضارة الموحدين في الغلو من زخرفة الجبص، والزليج، مع المتانة والفخامة...!

والصومعة قائمة على ساباط عال متين الصنع، متميز عن أشباهه. ومن أجل هذا الوضع المتميز لهذا المسجد، وصومعته، صار أهل المعرفة بالآثار والمعالم التاريخية بفاس يلغزون في المسجد فيقولون :

- أين يقع مسجد فوق مسجد.....؟

ويلغزون في صومعته فيقولون :

- أين تقع الصومعة التي يمر من تحتها الجمل....؟

---

(2) الحوالة الحبسية مخطوطة نظارة القرويين بفاس ومازال هذا الوضع قائما الى الآن..!

والمسجد إلى الآن في وضعه الذي كان عليه منذ عصر الموحدين. وربما قبل ذلك... ونفس الشيء يقال عن صومعته المتميزة عن شبيهاتها من الصوامع التاريخية...

وإزاء المسجد الأسفل توجد العين التاريخية الغزيرة المياه المسماة عين الخيل الشهيرة منذ قرون. بالعذوبة، والصفاء، وتصل مياهها إلى عدة أحياء... في قنوات خاصة...! منذ قرون...!

بهذا صورنا وضع هذا المسجد المسمى بالأزهر لنربط حاضره بماضيه. حيث إنه كان من معاهد العلم والمعرفة، وارتبط اسمه في التاريخ بإسم علمين اثنين كان لهما في عصر الموحدين ذكر وشهرة... وربما ارتبط اسمه قبلهما وبعدهما بأسماء أخرى محجوبة عنا الآن...!

فكتب التاريخ والطبقات تحدثنا عن شخصية مغربية رحالة، هي شخصية محمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الكريم التميمي الشيخ الصوفي، الذي ألف كتابه ، «المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد» كما تحدثنا أنه كان إمام مسجد الأزهر. وبه كان يلقي دروسه، ويتسابق طلبة العلم إلى حضورها والاستفادة منها. وأنه كتب فهرسة لشيوخه...!

والتميمي عاش بفاس، ورحل إلى عدة أقطار، ورجع إلى بلاده بعلم غزير أخذ ينشره بين الناس وكان ذا اتجاه صوفي في دروسه وتأليفه. وتوفي سنة 603 هـ ـ 1206 م (3) وليس إمكاننا ـ بناء على

(3) سلوة الأنفاس ج 3 ص 268. ط حجرية وفهرس الفهارس ج 2 ص 84. ط فاس 1347 هـ والتكملة ج 2 ص 662.

ما بأيدينا من مصادر ـ أن نجزم بأن التميمي وحده كان يلقي دروسه بهذا المسجد....! كما أنه لا يمكننا أن نجزم بخلاف ذلك... لأن المصادر شحيحة للغاية في هذا الموضوع....!

فالتميمي ألقى دروسه بهذا المسجد في عصر الموحدين هذا أمر محقق منصوص عليه... ولكن هذا لايعني أن غيره من العلماء، قبله وبعده، لم يقم بنفس العمل... وكل مافي الأمر أننا لا نملك لحد الآن نصوصا من عصور مختلفة توضح الغامض، وتفصل المجمل، وتشفي الغليل في الموضوع. بإلقاء أضواء على أسماء من درس به من الأعلام قبل وبعد التميمي...

وهذا لايمنعنا من تقديم دروس هذا الشيخ نموذجا لما كان عليه أمر هذا المسجد في حقبة معينة من تاريخ الموحدين.

ونحن نعلم أن هناك علماء سبق لهم أن أسسوا مساجد قريبة من منازلهم، واشتغلوا فيها بالتعليم وإفادة طلبة العلم فكانت تلك المساجد خاصة بهم، وقد لاحظ المؤرخون ذلك ونصوا عليه... ونسبوها إليهم...!

من ذلك مانجده في ترجمة أبي الحسن علي بن أحمد بن (4) أبي بكر الكناني المعروف بابن حنين الوافد على فاس.. وقد رحل من الأندلس إلى أقطار المشرق وأخذ العلم عن جماعة من الشيوخ فيهم أبو حامد الغزالي... وانتهى به المطاف إلى الإقامة بفاس وتأسيس مسجد. وملازمة الإمامة به، وتدريس العلوم، مايقرب من ست وستين سنة...!!

4) سلوة الأنفاس ج ا ص 149.

فهذا المسجد الذي أسسه ابن حنين ودرس به العلوم مدة طويلة.. أضيف إلى مؤسسه ابن حنين وعرف به فهو إذن ليس كمسجد الأزهر الذي لم يضف إلى التميمي ولا إلى غيره وانما عرف باسمه المشهور به، وهو الأزهر...

ومسجد ابن حنين هو الذي كان يعرف بمسجد ميزاب ابن حنين (5) وهو متهدم الآن أما ابن حنين فقد ترجمه كثيرون منهم ابن الأبار في التكملة، وابن عبد الملك في كتاب الذيل والتكملة، وابن القاضي في الجذوة، والكتاني في سلوة الأنفاس، وكانت وفاته سنة 569 هـ ـ 1173 م.

كما نعلم أن شخصيات علمية شهيرة في عصرها كانت تلازم التدريس في مسجد حي معين، وذكر ذلك في ترجمتها.. كما هو الشأن فيما يرجع للشيخ أبي بكر بن عثمان بن مالك الذي كان ملازما لتدريس بمسجد مازال معروفا إلى الآن.. وهو مسجد زقاق الماء (6) ... وكان الشيخ عثمان يدرس فيه خلال القرن السادس الهجري.... ودرس به العلم بعده كثيرون.. وذكر ذلك في تراجمهم.. واستمر ذلك إلى الأمس القريب...!

وكما ارتبط مسجد الأزهر بترجمة وشخصية محمد بن قاسم التميمي مؤلف كتاب المستفاد المتوفى سنة 603 هـ ـ 1206 م كذلك ارتبط بترجمة وشخصية الإمام ابن عربي الحاتمي الأندلسي النشأة الدمشقي الوفاة المتوفى سنة [illegible] هـ ـ 1240 م الصوفي الشهير...

---

(5) الحوالة الحبسية مخطوطة نظارة القرويين.

(6) جذوة الاقتباس ج 1 ص 305، ط. الرباط 1973 م والحوالة الحبسية.

وذلك أن ابن عربي كان وهو في الأندلس يتطلع إلى شيوخ يهتدي بهديهم، ويسير على مناهجهم فخرج للبحث عنهم في أقطار المغرب ثم في أقطار المشرق. وكتبه ولا سيما الفتوحات المكية، وروح القدس في محاسبة النفس، تشير إلى هذا المعنى، وتحكي صلاته بكثير منهم، وما وقع له معهم من قضايا يفسرها بتفسيره وبمشربه الصوفي الخاص... ! (7).

ومن هؤلاء الشيوخ الذين اتصل بهم اتصالا وثيقا شيخه محمد بن قاسم التميمي... ويذكر ابن عربي في كتابه الفتوحات المكية أنه نزل عند وروده على فاس بمسجد الأزهر... واتصل بإمامه محمد بن قاسم التميمي واستفاد من علومه، ومعارفه، وتجاربه الصوفية. وسمع من مروياته المتعددة التي رواها عن شيوخه في المغرب والمشرق كما سمع منه كتاب المستفاد... !

وبهذا يكون اسم مسجد الأزهر مذكورا في كتب هذا الإمام الصوفي... كما أن اسم امامه التميمي مذكور بها أيضا منذ القرن السابع، وإلى الآن...

ولعل الدافع الذي كان يدفع بعض أهل التصوف إلى الاعتكاف بمسجد الأزهر في بعض الأيام من السنة، والتفرغ للعبادة والذكر به هو أنهم كانوا يلاحظون أنه كان في يوم من الأيام مأوى الشيخ التميمي وتلميذه ابن عربي، وأنه كان معهدا من معاهد العلم... ! في القديم... !

---

7) الفتوحات المكية ج 4 ص 50، و60 و133.

وينبغي هنا ونحن نذكر مسجد الأزهر وعلاقة الإمام ابن عربي الحاتمي بشيخه التميمي إمام هذا المسجد التاريخي أن نذكر تلك الظاهرة التي نجدها عند هذا الإمام الصوفي في قسم الوصايا من كتابه الفتوحات المكية، وفي مجموع رسائله المطبوع بالهند سنة 1948 م.

وهذه الظاهرة هي أنه كان عند رحلته من الأندلس إلى المغرب الأقصى يبحث عن القطب...! وهذاه بحثه وتطلعه إلى أشياء كثيرة ومحاولات كثيرة (8)... وربما كان من جملتها إقامته بمسجد الأزهر بفاس...!

ولا يسعنا بعد هذا إلا أن نقدم النص الذي كتبه ابن عربي بقلمه في كتاب الكبير الفتوحات المكية...

يقول ابن عربي (9):

«... وما رأيت أحدا تحقق بمثل هذا في نفسه مثل الشيخ أبي عبد الله الدقاق بمدينة فاس من بلاد المغرب، ما اغتاب أحدا قط، ولا اغتيب بحضرته أحد قط...! قال هذا عن نفسه، وربما كان يقول، لم يكن بعد أبي بكر الصديق صديق مثلي...! ويذكر هذا. وكان نعم السيد، خرج ذكره ومناقبه شيخنا أبو عبد الله محمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الكريم التميمي الفاسي الإمام بالمسجد الأزهر بعين الخيل. من مدينة فاس، في كتاب له سماه، المستفاد في ذكر الصالحين من العباد

(8) مجموع رسائل ابن عربي الحاتمي طبالهند 1948 م ص 13.

(9) الفتوحات المكية ج 4 ص 503 طبعة دار صادر بيروت مصورة عن طبعة القاهرة.

بمدينة فاس وما يليها من البلاد.... سمعنا هذا الكتاب عليه بقراءته، أظن سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة....»

هذا ما أمكننا في دائرة المصادر التي بين أيدينا، أن نقدمه عن المسجد الأول، وهو مسجد الأزهر المرتبط بهاتين الشخصيتين.

المسجد الثاني : اشتهر في كتب التاريخ والطبقات وبعض الفهارس بإسم مسجد الأصدع ـ بالصاد ـ والأزدع ـ بالزاي ـ وهذه الكلمة في صورتيها تعني في تاريخ فاس القديمة، حسب الاستقراء والتتبع، إسم (حومة) حي من أحياء عدوة القرويين داخل باب عجيسة وهذا الحي هو ما يسمى الآن فندق اليهودي، بالتقريب... بل إننا نجد في نصوص مؤلف كتاب السلوة ما يفيد أن مسمى الأصدع والأزدع، هو مسمى فندق اليهودي فهما عنده إسمان لمسمى واحد....! (10).

في حين نجد ابن القاضي في جذوة الاقتباس ينص على أن الأصدع قرب فندق اليهودي... (11). وكلمة الأصدع ـ الأزدع، من الممكن أن تكون في أصلها اسم أسرة كانت شهيرة في عصرها.. أو لقب شخصية كانت لها مكانة وشهرة، أقامت بهذا الحي. أو كان لها به صلة من الصلات في القديم فنسب إليها ... على ما هو المعروف المألوف في أسماء البقاع، والأحياء في القديم... وقد نسي هذا الإسم مع مرور الزمان... وبقي الحي يحمل إسم فندق اليهودي وبه يعرف الآن...

---

(10) سلوة الأنفاس ج 1 ص 109

(11) جذوة الاقتباس ج 2 ص 491 ط الرباط 1974 م

والمسجد الذي نتحدث عنه الآن كان يسمى قديما بإسم جامع الأصدع، أو مسجد الأصدع. أو بعبارة أدق، كان معروفا بهذا الإسم في عصر دولة بني مرين.. ولا نعرف عن إسمه ومسماه شيئا قبل ذلك فيما نملكه من مصادر ومستندات..

والمؤرخون يذكرون مسجد الأصدع في عصر بني مرين وبعده باعتبار أنه كان في القديم من المساجد التي تلقى على كراسيها دروس علمية يلقيها بعض كبار العلماء ويحضرها عدد من طلبة العلم..

فنجد في ترجمة المفتي القاضي السفير أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الحق الزرويلي المعروف بأبي الحسن الصغير المتوفي سنة 714 هـ - 1319 م أنه كان يدرس بهذا المسجد أمهات كتب الفقه المالكي لعدد كبير من طلبة العلم.. ويفتح أمامهم ما ينيف على ثمانين كتابا...!

وترجمة أبي الحسن الزرويلي المعروف بالصغير شهيرة في كتب التاريخ والطبقات والفهارس.. وحيث إنه دخل غرناطة فهو على شرط لسان الدين ابن الخطيب ليترجمه في كتاب الإحاطة.. (12).

وفي هذه الترجمة التي كتبها ابن الخطيب لأبي الحسن الصغير نجده ينقل عن شيخه أبي البركات ابن الحاج البلفيقي من كتابه

---

12) الإحاطة ج 4 ص 188. ط القاهرة 1977 م وبها أخطاء لاتخفى.! والديباج المذهب لابن فرحون ص 212. ط القاهرة 1351 هـ وجذوة الاقتباس ج 2. ص 472. ط الرباط 1974 م والسلوة ج 3. ص 147

(المؤتمن) وصفا طريفا لوقائع درس حضره في مسجد الأصدع بفاس.. ألقاه أبو الحسن الصغير نفسه..

فأبو البركات ابن الحاج البلفيقي شيخ ابن الخطيب المتوفي سنة 771 هـ ـ 1370 م زار مدينة فاس واطلع على المعالم واتصل بالأعلام. ودفعته حاسة الاستطلاع إلى زيارة مسجد الأصدع لحضور درس من دروس أبي الحسن الصغير القاضي الشهير والفقيه الكبير.. ثم قال واصفا ذلك :

«حضرت مجلس إقرائه، وكان ربعة آدم اللون، خفيف العارضين يلبس أحسن زي صنفه، وأحسن ما فيه ليس بحسن.. وكان يدرس بجامع الأصدع من داخل مدينة فاس.. ويحضر عليه أكثر من مائة نفس....»

واستمر أبو البركات يصف ما سمعه وما رآه في مسجد الأصدع.. ومن كلامه الذي احتفظ لنا به تلميذه لسان الدين ابن الخطيب في الإحاطة ندرك مستوى الدرس، والكيفية التي ألقي بها، وعدد الحاضرين.. وماكان للأستاذ أبي الحسن الصغير من مقدرة وتبحر في العلم وسعة في الصدر.. وسماحة في الأخلاق ولم يخل كلام ابن الحاج من نقد....!

والطريف فيما يرجع لهذا الوصف الذي وصف به أبو البركات ابن الحاج، الدرس الذي حضره في مسجد الأصدع أثناء زيارته لفاس.. أن (محقق) كتاب الإحاطة، ظن أن هذا الوصف صادر عن لسان الدين ابن الخطيب نفسه....!

فكتب في تعليق له بالحاشية ما يأتي متسائلا...!!

«هذا القول مما يلفت النظر... لأن المترجم له توفي سنة 719 هـ وقد ولد ابن الخطيب سنة 713 هـ ومن جهة أخرى، فإنه لم يزر فاس لأول مرة إلا في سنة 755 هـ في عهد السلطان أبي عنان... ويحق لنا أن نتساءل... كيف اتفق مع ذلك أن يحضر مجلس قراءة هذا الفقيه في فاس، في هذا التاريخ المبكر...!!!» (13).

وهذا التساؤل ليس واردا بالمرة... لأن الوصف الموجود في ترجمة أبي الحسن الصغير... هو لأبي البركات ابن الحاج... وليس لابن الخطيب فيه إلا النقل...! وأستاذه فعلا زار مدينة فاس... وزار مسجد الأصدع... وسمع درس أبي الحسن الصغير به... ووصفه ذلك الوصف الطريف المفيد... ومن ترجمة الإحاطة نقل المؤرخون وكتاب الطبقات والفهارس هذا الوصف...! ولا حاجة تدعونا الآن إلى تتبع ذلك في المصادر والمراجع...! والإتيان بالنصوص...!!!

هكذا نجد مسجد الأصدع يأخذ هذا المكان المرموق في المصادر التاريخية بسبب دروس أبي الحسن الصغير التي ألقاها به... ومن يدري فلعل شخصيات أخرى قبل، وبعد أبي الحسن ألقت به دروسها...! غير أننا لا نجد حسب ما نملكه من المصادر والمستندات ما نستطيع به، ومعه، أن نجزم بشيء في الموضوع...! هذا من جهة... ومن جهة ثانية فإنه من الصعوبة بمكان، إذا قصدنا التحري والتثبت، وقد مرت قرون

(13) انظر الحاشية رقم 3 ص 186 ج 4 من الاحاطة

على حي الأصدع أن نعين بالضبط تعيينا جازما، مسجد الأصدع، التاريخي الذي كان في عصر من العصور معهدا من معاهد العلم... أو المكان الذي كان قائما به.. إن ثبت أنه تهدم....!! فالموجود والقائم الآن في الحي كما هو مشاهد عدد من الأضرحة، والمساجد الصغيرة، وبعض الزوايا.... فإذا كان مسجد الأصدع مايزال قائم الذات إلى الآن،فأين هو مما هو موجود الآن بهذا الحي....؟

وإذا كان قد تهدم فأين البقعة التي كان قائما بها....؟

والجواب الصحيح ينبغي أن يستند إلى نص ثابت... أو قرينة معينة.. أو استنتاج معقول.. ليمكننا بعد ذلك أن نتحقق من مسجد الأصدع الذي رددت ذكره المصادر التاريخية عدة قرون..

وفي استفسارات وتطلعات كثيرة، ومنذ مدة طويلة وفي مظان الإفادة، بذلت جهود ميدانية لتعيين مسجد الأصدع التاريخي.. كانت النتيجة التي نخرج بها.. ظنية، حدسية، لاسبيل - فيما يظهر - للجزم بها... حسب ما نعلم... والله أعلم...!

فمسجد الأزهر احتفظ باسمه ومسماه، منذ عصر الموحدين....! وإلى والآن.....!!

أما مسجد الأصدع فاسمه مازال مخلدا في المصادر والمراجع التاريخية.. والحي الذي يضاف إليه مايزال معروفا.... أما تعيينه بالذات فهو شيء مايزال رهن التنقيب والبحث....! إذا أردنا أن نخرج بنتيجة تطمئن إليها النفس...

ولم يغب عن ذهننا في هذا الموضوع ونحن نحاول تعيين مسجد الأصدع بالذات أن كثيرا من المهتمين بمعالم فاس وأعلامها في القديم يتحدثون ويشيرون إلى المسجد الموجود الآن بمجاورة الدار التي كانت لأسرة الجامعيين المعروفة... ثم انتقلت ملكيتها إلى آخرين... والتي يوجد في مدخلها قبر الشيخ (14) عبد الرحمن المكودي شارح ألفية ابن مالك... ومدرس كتاب سيبويه 807 هـ - 1404 م... أنه هو مسجد الأصدع التاريخي...!!!

ولكننا - بعد شكرهم - نسألهم :

- أين النص...؟ الذي يطمئن إليه البحث التاريخي المتثبت عندما يريد أن يعين معلما من المعالم... أو أثرا من الآثار التاريخية...!!

فإذا أفادونا به، كنا لهم من الشاكرين...!

فاس | عبد القادر زمامه

(14) سلوة الأنفاس ج 1 ص 187 - 189. ط فاس الحجرية.

المعرفة الإنسانية
أسسها القرآنية وآفاقها

د. فاروق حمادة

محنة وتحد :

إن العالم المعاصر يواجه محنة قاسية أخذت أشكالا شتى، ومظاهر متعددة وهي في أساسها محنة (معرفية) أجل إنها محنة المعرفة، التي تتكون وتبتدي بهذه الأشكال، لأن المعرفة ليس لها حدود. وليس دونها على وجه البسيطة أو في واقع الإنسان سدود أو قيود.

إن مد العلم في عالمنا المعاصر بلغ درجة كبيرة جدا لا يمتري فيها أحد، ولا يشك فيها عاقل. استطاع هذا المد أن يقرب البعيد ويسهل الصعب ويخترق الآفاق، ويأتي بالعجائب - ولكنه ترى هل أسعد الإنسان، أو هل خفف من عنائه وشقائه الذي كان يلاقيه قبل هذا الدفق الرائع ؟! وهل استطاع هذا العلم - والإنسان ما زال يمتطي صهوته في شتى المجالات - أن يشعره بغد باسم مشرق، فغدا بهذا الشعور متفائلا مغتبطا مسرورا ؟ لا أعتقد ذلك ومعي على هذا الرأي كثيرون، بل إن

الإنسان أصبح يعيش هاجس الموت والفناء في كل لحظة من لحظات حياته. بما لم يكن واقعا له قبل فترة من الزمن. والسبب في ذلك تقدم المعرفة. وتوهج عطاءات العلم.إن مفكرا كبيرا وفيلسوفا شهيرا وهو (برتراندرسل) يعبر عن هذه الحقيقة فيقول :

«إن حيوانات عالمنا يغمرها السرور والفرح. على حين كان الناس أجدر من الحيوان بهذه السعادة. ولكنهم محرومون من نعمتها في عالمنا الحديث».

أو على حد تعبير الشاعر العربي :

كل من ألقاه يشكو دهره ليت شعري هذه الدنيا لمن ؟!

إن المعرفة المعاصرة انطلقت من المادة والتجربة. ولم تعرج على ما سواها بل لم تعترف هذه المعرفة في غالب الأحيان بما لم يكن ماديا يخضع للتجربة والتركيب بأنه علم أو معرفة. وسارت في هذا الطريق. وحاولت أن تخضع بعض فروع المعرفة اللازمة لهذا المنهج حتى تطلق عليها علما. كبعض فروع علم النفس مثلا. وأصبحت كلمة علم أو (Science) دالة على فروع المعرفة التي يقبل موضوعها التجربة والاستقراء والمقاييس والكمية. ومن هذا المنزلق الخطير تلاحظون وأنتم داخلون إلى كلياتكم عنوان (كلية العلوم) هكذا مطلقة. وصوابها : كلية العلوم التجريبية.

أما بقية فروع المعرفة الإنسانية كالآداب. والأخلاق. والدين والفلسفة مما مصدره الذوق. أو الشعور الأخلاقي. أو التأمل العقلي. أو الوحي. فلا يدخل في هذا الاصطلاح بالمعنى الدقيق. وإن استعمل فيه أحيانا فعلى سبيل التجوز.

إن العلوم المادية والتجريبية قد تقدمت كما هو معلوم في منطقة من العالم ومحور محدد فيه لم يعده حتى الآن. وباقي العالم عالة على هذا المحور. هذا التمركز المعرفي في ركن من أركان العالم هو الذي يجابه ضميرك أيها المسلم كما جابهه بالأمس القريب، ويتحدى وجودك. وأنت الذي تدعي أنك صاحب معرفة راسخة وأسس علمية ثابتة. فإن استجبت لهذا التحدي ونهضت لمواجهته. وقدرت على ذلك فهو استمرار لوجودك وبعث وتلقيح لحضارتك. وإلا فإن العجلة تدور علـى رأسك لتطحنه. وتقصيك إلى ركن مظلم من أركان التاريخ.

وغير خاف على مفكر اليوم أن القيمة العليا في السوق الدولية (للمعرفة) ولهذا نجد بعض الدول تحاول انتزاع المعرفة السرية لدى دول أخرى فيما يتعلق بجانب الفضاء أو السلاح. أو الأقمار الصناعية. أو غير ذلك. والقضية في أساسها محاولة السيطرة على سر المعرفة المتقدم.

ومن هذا المنطلق أردت أن ألخص معالم المنهج المعرفي في القرآن الكريم الذي ينطلق المسلم منه عادة في مجابهة كل قضية تجابهه. لنرى الخطوط الكبرى في هذا المنهج محاولة منا أن تكون نصب عيني كل مسلم وهو يخوض هذه المعركة الكبرى التي لاحقته مع موجات الأثير.

ما هي المعرفة ؟

المعرفة هي تحصيل ما يمكن إدراكه في أي ميدان من الميادين بشكل منظم. فتشمل ما يدرك بالعقل كالرياضيات والمنطق. وما يدرك بالحس والتجربة. كالطب والفيزياء والكيمياء. وما يدرك بالذوق

والخيال والعاطفة كالجمال، أو ما يدرك بالنقل والسماع كاللغة، وعلوم الدين، والتاريخ.

فإذا ما قصرنا المعرفة على مفهومها الغربي فمعنى ذلك أن ما يمكن أن يجرب يمكن أن يوصل فيه إلى نتائج يقينية وما ليس كذلك فلا يتوصل به إلى نتائج من هذا القبيل. وفي هذا حجر على ركب العلم، إذ من المستحيل تطبيق طرائق التجربة علىما وراء الطبيعة أو تقدير القيم الجمالية ومن التصور والغباء أن مالا يوزن أو يكال أو يرى ينكر وجوده ولو فعلنا ذلك وقبلناه لنفينا جملة وافرة من ساحة المعرفة، وهذا ما لا يقبله أحد.

أهمية المعرفة في المنهج القرآني :

إن القرآن الكريم وهو يضع أساس التصور الصحيح للانسان في مسيرته الطويلة التي لا تنتهي بقرن أو قرون، جعل من أساسيات منهجه القيمة العليا والمطلقة للعلم والمعرفة وجعلها من ركائز الحياة، وأساسا ثابتا من أساسين اثنين يتفاضل بها الناس أفرادا ومجتمعات، فمن حاز النصيب الأوفى كان هو الأفضل والأرفع عند الله وفي الحياة الدنيا وهما العلم والعمل الصالح، وجاءت النصوص المذكورة التي ترفع شأن المعرفة والعلم وتعلي قيمتها، وتحض على الاستزادة منها ولا تخصها بجانب دون آخر، من ذلك قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم، وإذا قيل : انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات، والله بما تعملون خبير» المجادلة، الآية 11. وقال تعالى : «قل هل يستوي الذين يعلمون

والذين لا يعلمون ؟ إنما يتذكر أولوا الألباب» الزمر 9. وقال تعالى : «وقل : ربي زدني علما» طه 114. ويقول تعالى : «وفوق كل ذي علم عليم» وقد تكررت كلمة العلم ومشتقاتها في النص القرآني حوالي - 855 - مرة. وما ذلك إلا تنويه وتعظيم وتكريم لهذه الميزة التي تفرد بها الإنسان بين المخلوقات جميعها.

الإنسان مركز المعرفة (وسائل المعرفة ومصادرها) :

وفي هذه السبيل وضع القرآن الكريم أساسيات لا تنقض، وحقائق لا ترد فقد قرر، أولا أن الإنسان يولد صفحة بيضاء ليس لديه معرفة بمعلومات سابقة أو إدراكات مختزنة في كيانه يقول تعالى : «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا» النحل 78. ويقول تعالى : «علم الإنسان ما لم يعلم» العلق.

ثانيا : جهزه بوسائل المعرفة، ومنافذ على الوجود. وهذه الوسائل نوعان، نوع له إمكانيات محدودة، وهي الحواس الخمس. ونوع له إمكانيات أكثر من الحواس الخمس وأكبر ألا وهو العقل. وجعل هذه الوسائل أساس المعرفة، وقاعدة المسؤولية في هذه الحياة الدنيا يقول تعالى : «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا» وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون» النحل 78.

ويقول تعالى «إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا» الإنسان 2 ويقول تعالى : «إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا» الإسراء 36.

ونجد هنا أن الحقائق القرآنية ألغت فلسفات سابقة يأتي في طليعتها في هذا المجال فلسفة المُثل الأفلاطونية التي تدعي بأن حقيقة الكون أفكار وصور عقلية، والعالم المحسوس ما هو إلا ظلال لهذا العالم، فيولد الإنسان وفي عقله صورة لذلك العالم الحق الذي لا حق غيره عنده، وهو النموذج الذي تنعكس عنه الجزئيات المادية في عالمنا المشهود.

ومصدر المعرفة عند أفلاطون هو العقل وحده، وهذه المعرفة إنما هي تذكر لما انطبعت به النفس قبل حلولها في الجسد، وليست تحصيلا من تجربة أو استمدادا من حواس وهذه النظرية ترتكز على قضيتين فلسفيتين، إحداهما أن النفس موجودة قبل وجود البدن في عالم أسمى من المادة، والأخرى أن الإدراك العقلي عبارة عن إدراك الحقائق المجردة الثابتة في ذلك العالم الأسمى، والتي يسميها أفلاطون بـ (المثل) وكلتا القضيتين خاطئتان، لذ ذلك ناقدوا الفلسفة الأفلاطونية وتابعه على نظريته هذه عديدون قديمون ومحدثون ومنهم الشيخ الرئيس ابن سينا المتوفى سنة 428 هـ في قصيدته المشهورة :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

ولو كانت المعرفة قضية استذكار من عقل يطل على هذا العالم - كما يقرره المثاليون - مع هذا العقل المطل تصورات على عالم أسمى، لاستوى العالم والجاهل والغبي والذكي، والصغير والكبير، والمجرب وغير المجرب، ولهذا لم يكن لهذه النظرية سند من برهان.

وإننا نلاحظ أن النص القرآني دائما عندما يتحدث عن الجانب المعرفي عند الإنسان يمزج بين العقل والحواس، بل إنه يعطي أهمية كبيرة للحواس، ويجعلها المقدمة اللازمة بين يدي العقل والفكر والتأمل.

يقول تعالى : «ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون» البقرة 171. ويقول : «صم، بكم، عمي، **فهم لا يرجعون**» البقرة 18. ويقول تعالى : «**إن شر الدواب عند الله الصم البكم، الذين لا يعقلون**» الأنفال 22. وضرب الله مثلا لهذه القضية في النص القرآني بأجلى بيان وأوضح حجة على قيمة الحواس وأثرها في حياة الإنسان بقوله : «**وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء، وهو كل على مولاه، أينما يوجهه لايأت بخير، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم**» النحل 76. فمن لا ينتفع بحواسه ولا يهتدي بها إلى حقيقة وجوده كمن حرم هذه النعمة ولو كانت عنده، قال تعالى : «**مثل الفريقين كالأعمى والأصم، والبصير والسميع، هل يستويان مثلا، أفلا تذكرون**» هود 24.

وأنقل هنا النص القرآني الذي يؤكد على أهمية الحواس في تحصيل المعرفة وهو قوله : «**ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس، لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام، بل هم أضل، أولئك هم الغافلون**» الأعراف 179. وانظر الأعراف 195.

وعلى عكس المثاليين طوح الفكر الفلسفي بعيدا. وفي الاتجاه النقيض مع الحسيين والتجريبيين إذ يردون المعرفة إلى الحس وحده، ولا يعرجون على شيء سوى الحواس وينزلون بالإنسان إلى مستوى العجماوات التي لا تعي ولا تقدر ولا تفكر إلا بمقدار ما تأكل وتجري وتلعب وهذه الفلسفة المغرقة في المادية هي التي تركت بصماتها

واضحة على الحضارة الحديثة. وانتشرت معها في كل مكان حلت فيه. وكان أبرز دعاة هذه النظرية الفيلسوف الإنكليزي (جون لوك) وفصل ذلك في كتابه (مقالة في التفكير الإنساني) وتبنتها الماركسية. ودافع عنها (ماو تسي تونغ) بحرارة.

وكانت أسمى النظريات في ذلك نظرية الانتزاع التي بناها الفلاسفة الإسلاميون والتي تمزج بين تفاعل الذهن والحواس لمعرفة الواقع.

وهناك سبيل آخر للمعرفة لا يتوصل إليه بالحواس، وليس في متناول العقل وحده وقف أمامه الفلاسفة طويلاً، وحاولوا تفسير ظاهرته. لكنهم تفرقوا مذاهب قددا ولم يتفقوا على رأي حيال هذا المصدر الواضح في حياة الإنسان. ذلكم هو الوحي الذي يواجه الإنسان ويحمل له ما عجز عن الوصول إليه. فإذا ما أخذنا مفكراً كبيراً معاصراً كأرنولد توينبي ليلقي لنا ضوءاً على هذه الظاهرة خاصة وعلى سبيل المعرفة ومصادرها عامة. لوجدناه يقول: «إن هناك أسلوبين لإدراك الحقيقة. أولهما الأسلوب العلمي الذي يعتمد على التجربة والمشاهدة. والآخر هو الأسلوب الشعري الذي يفيض من الداخل. والحقيقة التي نصل إليها عن طريق الأسلوب الأول تسمى الحقيقة العلمية. بينما تسمى الحقيقة التي نحصل عليها عن طريق الأسلوب الثاني بالحقيقة الشعرية. ويقول: «إن المشاهدة القابلة للفهم على السطح الشعري من اللاشعور تسمى النبوة».

أما إليكسيس كاريل صاحب كتاب (الإنسان ذلك المجهول) فيشبه الوحي والإلهام بالمعرفة الصوفية ويقول: «إن الإنسان بترويض نفسه يحاول الوصول إلى حقيقة غير قابلة للمشاهدة بالرغم من أنها حقيقة

فطرية أسمى من العالم المادي. وفي سبيل هذا الهدف يعرض الإنسان نفسه لامتحانات خطيرة لا يمكن لأحد أن يجرؤ على التصدي لها. وقد يمكن لواحد من الناس أن يعتبر هذا الإنسان بطلا. بينما يرى إنسان آخر أنه مجنون وأياما كان الأمر فلا يصح لأحد أن يتساءل هل التجربة الروحية صحيحة أم لا ؟ هل هي مصطنعة أم مجرد وهم ؟ أم أنها رحلة روحية بعيدة عن أبعاد العالم المادي تنتهي إلى التحاق الروح بالحقيقة العليا. إن المعرفة تبعث الطمأنينة والرضا تجاه أسمى الأماني البشرية. أن القوة الداخلية، والنور الروحي، والحب الإلهي والسكينة اللا محدودة والوجدان الديني، ان كل هذه الظواهر حقيقة بنفس الدرجة التي نعتبر بها الحس الجمالي حقيقة. أن العارف بالله والشاعر يصلان إلى الحقيقة النهائية عن طريق تصور الجمال فوق البشري.

أما (مايلز) صاحب كتاب الدين ومستقبل العلم فيسمي الوحي ضوء البصيرة الداخلية. والواقع أن هؤلاء اصطدموا بهذه الحقيقة التي لا يمكن تجاهلها، ولكنهم حاروا في تفسيرها. واختلفوا ومهما يكن من أمر. فإن أقوالهم تجمع على أن هناك طريقا أو مصدرا للمعرفة غير العقل والحواس. وهذا الذي اضطر المفكر توينبي المؤرخ البريطاني الشهير إلى القول، إن نظرة المؤرخ لا تصادم الفكرة القائلة بأن الله قد أوحى إلى الإنسان لمساعدته على الخلاص الروحي حيث إن هذه الهداية كانت مستحيلة بجهوده المباشرة.

وما عبر عنه هؤلاء الباحثون قد أكده النص القرآني في آيات عديدة منها قوله تعالى . «واتقوا الله ويعلمكم الله، والله بكل شيء عليم» البقرة 282. وقوله تعالى . «فارتدا على آثارهما قصصا

فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا، وعلمناه من لدنا علما» الكهف 65، وقوله تعالى : **«يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا، ويكفر عنكم سيآتكم»** الأنفال 29.

وهنا هو الإلهام في حياة عامة البشر، ويكون ذلك حين تكون الحواس خاضعة لسلطان العقل، ثم يحلق العقل بأجنحة الروح، أما في حياة النخبة المصطفاة من البشر وهم الأنبياء والرسل، فالقضية فوق الإلهام يقول النص القرآني : **«وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك»** القصص، «نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين» «تنزيل من حكيم حميد».

ميدان المعرفة وآفاقها :

إن من يقرأ القرآن الكريم بتمعن وتدبر، ويتأمل الجانب المعرفي فيه يجد أن القرآن لم يحجر على معرفة شيء، أو البحث فيه سواء كان متعلقا بالخالق أم بالمخلوق بل نجد الحض الأكيد على البحث في هذين الجانبين، من المعرفة، الله والكون، يقول تعالى آمرا بمعرفته والبحث عن سبل الاهتداء إليه : **«فاعلم أنه لا إله إلا الله»** محمد 19.

وأما ما يتعلق بالكون فسأفصل القول فيه لكني قبل ذلك أقول : إن هناك أمورا استأثر الخالق بمعرفتها، يرى الإنسان أثر بعضها ولكي لا تضيع جهوده دون فائدة، جاء تعليم الخالق بأنه لا سبيل إلى معرفة ذلك وهي عدة أمور جاء النص بها وهي :

1 ـ سر الخلق، أو سر الحياة في المادة، فهل ينكر عاقل أن هناك حياة في طائفة كبيرة ومتنوعة من المخلوقات، لكن هبة الحياة لا تعرف كيفيتها وكنهها، وماهيتها وإن كنا ندرك جميعا آثارها.

إن ابراهيم النبي كان واحدا من الركب الطويل عبر المسيرة الإنسانية والذي حاول أن يتأمل الوجود بدقة ومظاهر الطبيعة بإمعان. وقد جهد أن يصل إلى الحقائق الكامنة خلف المظاهر وكانت محاولة ابراهيم منصبة على شيئين اثنين : الأول ، الصانع المبدع لهذا الوجود والثاني ، معرفة سر الحياة. وقد رأى بصبيته أن الأرض والأحياء يتأثرون بالكواكب فاعتقد أنها هي المؤثرة فيه. فلما أفلت وغربت أيقن أنها لو كانت هي المؤثرة لما كانت عرضة للتأثر والتأثير فيها. ثم رأى البدر يشع في كبد السماء. فقال : هذا أكبر وهو المؤثر الأعظم. فاعتقد فيه أنه الصانع المبدع. فلما اعتراه الذبول والأفول أيقن أنه لا يكون مبدعا من يكون خاضعا لتأثير غيره. فلما أشرقت الشمس. وهي أساس في حياة الإنسان وحجمها أكبر من سابقتها اعتقد أنها هي موضوع البحث. فلما غربت وحسرها الظلام الحالك أيقن أن هذه لا تصلح أن تكون مبدعا فاطرا لأنها مسخرة. فأعلن على الملأ أنه يعبد المسخر المتصرف بهذه الأجرام، المنظم لحركتها المدبر لسيرها وعملها.

يقول القرآن الكريم عن رحلة البحث الإبراهيمية هذه عن الحقيقة «**وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال : هذا ربي. فلما أفل قال : لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغا قال : هذا ربي. فلما أفل قال : لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال : يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي**

للذي فطر السماوات والأرض حنيفا، وما أنا من المشركين» الأنعام 75 ـ 79.

وبعد أن اهتدى بحواسه وعقله وفكره إلى فاطر السماوات والأرض، لاحظ الحياة فأراد أن يعرف سرها ويهتدي إلى كنهها، فقال: «رب أرني كيف تحيي الموتى، قال: أولم تؤمن قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي، قال: فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم» البقرة 260.

إن إبراهيم رأى سر الحياة، ولكنه لم ير كنهه وحقيقته، لأن الخالق (الله) استأثر بهذا العلم وحده، وأثره ممدود الرواق، واسع الأكناف يشاهده كل الناس في كيفيات مختلفة، بدءا بالخلية البسيطة، وانتهاء بسيد المخلوقات ألا وهي الذات الواعية العاقلة، التي تسمى (إنسان).

والاستئثار بهذه المعرفة جاء مصرحا به في النص القرآني فعندما طلب أناس الاطلاع على هذا الجانب، جاء الجواب الإلهي بأن ذلك من اختصاصه وحده «ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» الإسراء ▬.

إن الروح، وهي سر الحياة، كانت موضع اهتمام الإنسان وبحثه ولا زالت، يقول الدكتور كاريل: إننا لم نفهم الإنسان في حقيقته الكلية حتى الآن، ومعرفتنا في حقيقتها لا تتعدى التعرف على مختلف الأجزاء التي يتركب منها جسمه وهذه الأجزاء نفسها من تقسيمنا وتفريعنا نحن وفق الطرق التي اخترعناها.

إن الذين يدرسون القابت الإنسانية يوجهون إلى أنفسهم أسئلة كثيرة جداً لا إجابة عليها. ان مناطق واسعة من عالمنا الداخلي مجهولة ، كيف تتحد الجزئيات في المواد الكيماوية لإيجاد جسم الخلايا المعقد القصير ؟ كيف تقرر المادة التناسلية في نواة البيضة الطازجة خصائص فردها الذي يستخرج من تلك البيضة.

كيف تتجمع الخلايا ذاتيا من مجموعات الأنسجة والأعضاء. إن هذه الخلايا تعرف مسبقا شأنها شأن النمل والنحل. ما العمل الذي يجب أن تؤديه لابقاء مجموعتها على قيد الحياة ثم يقول كاريل :

لقد اكتشفنا الأجزاء التي توجد في البروتوبلازم كما عرفنا مقاديرها بكل ضبط ولكن الإنسان لا يستطيع خلق الحياة بتركيب هذه العناصر بنسبها المعروفة. إنا نركب نسب البروتوبلازم بكل نسبها الصحيحة، وبكل ضبط، ولكننا لا نستطيع خلق ذلك البروتوبلازم الذي يتمتع بالحياة والذي يوجد في أجسامنا الحية.

2 ـ علم الساعة، أو نهاية العالم. يقول تعالى : «إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير» لقمان.

وقد جمعت هذه الآية خمسة أمور غيبية أولها قيام الساعة، وقد كان الناس عصر نزول القرآن الكريم ولا زالوا حريصين على معرفتها، ولذلك كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عنها، قال تعالى : «**يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ قل : إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها الا هو ثقلت في السماوات والأرض، لا تأتيكم إلا بغتة، يسألونك كأنك حفي عنها، قل : إنما علمها عند الله، ولكن**

أكثر الناس لا يعلمون» الأعراف 187 وقال تعالى: يسألونك عن الساعة أيان مرساها، فيم أنت من ذكراها، إلى ربك منتهاها، إنما أنت منذر من يخشاها، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها» النازعات الآية ـ 46. وقال تعالى: «وعنده علم الساعة» غافر 85. وقال تعالى: «إليه يرد علم الساعة» فصلت 47.

أجل إن علماء الطبيعة اليوم، وبعد كشف (القانون الثاني للحرارة الديناميكية) يجزمون بأن عدم كفاءة عمل الكون يزداد يوما بعد يوم، ولا بد من وقت تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات، وحينئذ لا تبقى أية طاقة مفيدة (للحياة والعمل) وسيترتب على ذلك أن تنتهي العمليات الكيماوية والطبيعية وتنتهي تلقائيا مع هذه النتيجة الحياة. يقول السير جيمس جينز في كتابه عالم الأسرار: (تؤمن العلوم الحديثة بأن عملية تغيير الحرارة سوف تستمر حتى تنتهي طاقاتها كلية، ولم تصل هذه العملية حتى الآن إلى آخر درجاتها، لأنه لو حدث شيء من هنا لما كنا موجودين على ظهر الأرض حتى نفكر فيها. إن هذه العملية تتقدم بسرعة مع الزمن).

فمتى تنتهي هذه المهمة الكونية علمها عند ربي يقول تعالى: «إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى» ولو علمها الناس لتوقف النشاط البشري أو على الأقل اضعف.

3 ـ 4 «وما تدري نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس بأي أرض تموت» هكذا جاء النص القرآني. وفيه نفي معرفة الكسب في المستقبل، ونفي معرفة الإنسان لنهايته وحياته. وأن دراسات التنبؤ بالمستقبل قديمة نوعا ما، ولكنها لم تسفر عن شيء يذكر من الدقة والتحقيق، ولو استطاع الإنسان معرفة ذلك، وخاصة معرفة نهاية حياته

لشلت حركته وبطلت فاعليته، وتوقف عمله طالما كان في حوزته ما يكفيه من المال والمتاع، ولكن اخفاء هذا السر جعل الإنسان قتورا تارة عجولا تارة أخرى هلوعا حينا جزوعا حينا آخر، وكما قال تعالى : «وإنه لحب الخير لشديد» العاديات 8.

وفي هذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم : «يشيب ابن آدم ويشب - أي يقوى ويزداد - عنده خصلتان حب الدنيا وطول الأمل».

بعد هذه الأمور التي جاء النص على الاستئثار بمعرفتها دون الإنسان، أقف معكم لحظة أمام الآية الكريمة التي سلفت «**إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير**» لنلاحظ أن قول الله تعالى : «وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام» جاء بصيغة المضارع التي تدل على الحال والاستقبال وهاتان الكلمتان الكريمتان دون بقية الآية الكريمة ليس فيهما نفي العلم في هذا الجانب عن غير الله تعالى. فما استأثر الخالق بعلمه جاءت الصيغة فيه صريحة واضحة لا لبس فيها **(عنده علم الساعة) (ما تدري نفس ماذا تكسب غدا) (ما تدري نفس بأي أرض تموت)**، وأما الغيبان الآخران - وهما تقدير الخالق - فلم تنف معرفة الإنسان لهما، كما هو واضح لمن تأمل الآية، وعرف أساليب العرب وطرائق كلامهم وان الطب اليوم يستطيع أن يحدد جنس الجنين ذكرا كان أم أنثى من أسابيعه الأولى بعد الحمل، وكذلك تستطيع الأرصاد الجوية ونحن نتابعها كل يوم أن تتوقع لنا حالة الطقس للغد أو لبعد غد لمدة أيام مقبلة، ويكون التوقع في الحالتين قريبا من الصواب.

وأنقل كلمة لمتخصص في طب الأجنة والولادة في الموضوع. يقول الدكتور حسان حتحوت: فالسائل الأمنيوسي الذى يملأ الرحم ويسبح فيه الجنين غني بخلايا من خلايا الجنين منفوضة عن جسمه فإذا اخترقنا جدار الرحم وشفطنا بعض هذا السائل وصبغنا خلايا الجنين به استطعنا أن نطالع فيها تحت المجهر مؤشر الأنوثة الذي اكتشف عام 1949 إن كانت أنثى وليس في ذلك زعم بمعرفة الغيب، فمتى استحصلنا على خلايا الجنين فهي حاضر لا غيب فيه ولا هو يتنافى مع قول الله تعالى (**ويعلم ما في الأرحام**) **لأن هذا شامل** لتقلبات الجنين المستقبلية، وإسهاماته في السعادة والشقاء، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله. ثم يقول: والواقع أن معرفة جنس الجنين تشخيص بدائي بجانب عشرات الأحوال والأمراض الجنينية التي أصبح بالإمكان تشخيصها، سواء بالتحليلات الكيماوية لهذا السائل الأمينوسي أو باستزراع خلايا الجنين وفحص الصبغيات الوراثية. فضلا عن التحسس باليد أو الاستماع بالسماع، أو التصوير بالأشعة أو التصوير بالموجات فوق الصوتية التي تعمل عمل الرادار والتي أصبحت عماد مستشفياتنا وعونا بالغ المدى.

ومثل هذا يقال عن الأرصاد الجوية التي أصبحت عماد حركة الجو والبر والبحر، ولكنها ترصد الآفاق واتجاه الرياح فالأمر عندهم حاضر وليس غيبا، ومعرفة هذا لا يتنافى مع الآية الكريمة، وهذا العلم ليس كهانة ولا تنجيما واللذين لا مكان لهما في الإسلام. عبر عنه أبو فراس الحمداني شعرا فقال:

دع النجوم لعراف يعيش بها ... وانهض بعزم قوي أيها الملك
إن النبي وأصحاب النبي نهوا ... عن النجوم وقد ابصرت ما ملكوا

عالم الغيب وعالم الشهادة :

بعد هذا أقول ، إن القرآن الكريم قد قسم الوجود إلى قسمين ، أو عالمين، عالم الغيب وعالم الشهادة، يقول تعالى ، **«هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم»** الحشر 22 **«وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون»** التوبة 105، **«ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم»** السجدة 6.

فما هو عالم الغيب وما هو عالم الشهادة ؟

الغيب هو ما لا تدركه الحواس، ولا يقع تحت التجربة، وعالم الشهادة عكس ذلك، وعلى هذا فعالم الغيب واسع المدى رحب الأطراف مترامي الآفاق، إلا أن بعض أطرافه تتكشف أمامنا شيئا فشيئا بسعي الإنسان الحثيث إلى المعرفة في دوائر تتسع أمامه يوما بعد يوم ضمن ساحة لا تعلم نهايتها هي علم الله المحيط **«قل ، لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا»** فكم من شيء كان بالأمس غيبا مغيبا، وإذ به اليوم في ساحة المعرفة من عالم الشهادة والمحسوس، وهذه هي مكابدة الإنسان في طريق المعرفة، وتعلمه ما لم يكن يعلم، وقد وعد القرآن الكريم ووعد الله سبحانه وتعالى الإنسانية أن يريهم بعض الغيوب ليعلموا قدرة الصانع المبدع، يقول تعالى ، **«سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق»**.

وإن عوالم الغيب كلما تقدم الإنسان لاقتحام ساحتها ازداد معرفة بجهله في جوانب شتى ومنها معرفته بذاته بله العوالم الأخرى، ولذلك

فهناك أمور غيبية بينها القرآن الكريم بتفصيل لما لها من أثر في حياة الإنسان وسلوكه وتعايشه مع الآخرين. وهناك أمور غيبية كانت في وقت ما من عالم الشهادة بين له طرفا منها، وأمره باكتشاف ما يستطيعه.

أما الأمور التي بينها له بتفصيل فهي صفات الخالق العليا، وأسماؤه الحسنى، حتى إذا ما وقف هذا المخلوق في محرابه كيفما كان هذا المحراب، علماً أو عبادة وتوجه إلى خالقه عرف إلى من يتوجه فلا يضل ولا يزل، ولا ينخدع بمظاهر الطبيعة أو ببعضها فيتوجه إليها دون المعبود الحق فيستنصرها ويستغفرها.

إن تفصيل هذا الجانب الذي نسميه في اصطلاحنا (العقيدة) يمد الإنسان بطاقة إيجابية جد مهمة، ويحرره من الخوف، وسيطرة المخلوقات الأخرى، ويرفع مستواه فوق الخرافة التي قد تبتدعها بعض العقول الكليلة، والمشاعر الهزيلة، فالذي يعبد الوثن، أو الطاغوت أو يريق دماء الصلوات للأنهار أو البحار، والذي يقدم الأضاحي للأشجار والأقمار إنه يعتقد سيطرتها، وقدرتها على التأثير في حياته فاستعبدته ولهذا كان القرآن الكريم ناعيا على كل هذه الأشكال والأصناف.

ولتتكامل صفات المعبود الحق وخصائصه وما يجب له ويستحيل عليه أفاض القرآن في هذا الجانب وبين بالقطع والجزم أن الإنسان في حواسه القاصرة لن يصل إليه قال تعالى: **«لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير»**.

والجانب الآخر الذي فصله القرآن الكريم وهو من عالم الغيب هو اليوم الآخر وأحداثه، وما فيه من مسؤولية وحساب وجزاء، وجنة ونار، ونعيم مقيم وعذاب أليم، وما بين يدي ذلك من حياة برزخية.

والسبب في هذا التفصيل أمور عديدة منها أن هذا الغيب لا يمكن للإنسان تصوره بعقله أو الوصول إليه بتدبره وفكره، أو تجربته بمعمله ومخبره، ثم لتكون أمامه صورة كاملة عن العدل الإلهي الذي لا يظلم ولا يجور ولا يضيع لعامل شيئاً مهما صغر عمله قال تعالى : **«وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين»** وليكون أثر العدل والاستقامة في حياته بيناً واضحاً.

ثم إن الإنسان وهو يشاهد أيامه معدودة العدد بينة المقدار في رحلته الأولى، فمتى اطلع على وصف ذلك العالم الغيبي بقي مشدوداً إليه يعمل هنا ونظره هناك يسير في الدنيا ويعلم أن محط رحاله في الآخرة، فلا يبطر ولا يطغى.

وفي ذلك ترغيب للعاملين بالنعيم الذي أعد، وترهيب للعصاة من الحيف والعدوان.

وأما الغيب الذي توارى عن عالم الشهادة، ودعا القرآن إلى معرفته واستقصاء أخباره قدر المستطاع البشري فهو التاريخ بمعناه الواسع، ويدخل فيه الأدب، والسير، والأخلاق، والعمران، والحضارة، والنظم والقوانين للأمم السالفة القريبة والبعيدة.

ولقد أكد القرآن على هذه الدراسات كثيراً، واقتطف باقة من الآيات القرآنية التي تحض بقوة على ذلك يقول تعالى : **«قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين»** آل عمران 137 / 138 ويقول تعالى : **«فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد، أفلم**

يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور» الحج 45 / 46.

«قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة» العنكبوت 20.

«أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، وكانوا أشد منهم قوة» فاطر 44.

وقد وضع القرآن الكريم معالم جد هامة لمنهج الدراسات التاريخية وعني بالعناصر المكونة للتاريخ، من زمان ومكان، وأحداث وأشخاص، وأبطال. وبين لنا الغاية العليا والهدف الأسمى من هذه الدراسات ألا وهو الاستفادة من تجارب السابقين لصنع غد أفضل ومستقبل أرغد. أما مقولة العلم للعلم، فلا معنى لها في منهج المعرفة القرآني.

ووضع لنا أساسيات للبحث في هذا الصدد لا يمكن تجاهلها أو اغفالها في تفسير حقائق التاريخ أو نتائج التجربة، وذلك في مرتكزين اثنين.

أولها : أن التاريخ يعتمد في جملته على الخبر. فإذا أردنا الوصول إلى الحق فإننا لا نقبل الخبر إلا بشروط يرتاح العقل إلى صحتها ويطمئن إلى صدقها. وفي هذا يقول تعالى : «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين» الحجرات.

في ضوابط أخرى عرض لها العلماء المختصون، وأفضنا في بيانها في كتابنا (المنهج الإسلامي في الجرح والتعديل).

وثانيها : اجتناب الظن وعدم التمسك به على أنه حقيقة تفرض على الآخرين بمرتبة اليقين. وقد حذر القرآن الكريم من هذا المنزلق الخطير في آيات كثيرة منها قوله تعالى : **«إن الظن لا يغني من الحق شيئا»** يونس 36. ويقول تعالى : **«وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئا»** النجم 28. ويقول تعالى : **«يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم»** الحجرات 12.

فالقضية إذا لم تعد إطار الفرض والظن لا يمكن إلزام الآخرين بها أولا، ولا يمكننا أن نضعها أساسا لتفسيرات وبناء حقائق فوقها ثانيا.

وهنا مفرق طريق بيننا وبين المناهج الغربية الحديثة. فالمناهج الغربية خالية من أي ميزان موضوعي لتحقيق ما يتعلق بهذا الجانب - عكس مناهج البحث في المادة - بل هناك ما يسمونه بالمنهج الاستردادي أو التوسم أو الحدس، عمدته الأولى ما يتمتع به الباحث من عمق الملاحظة ودقة الوجدان واتساع دائرة الخيال. والأداة التي يستخدم بها الباحث ملاحظته ووجدانه وخياله، كل ما يقع تحت يده من آثار وأحداث ووثائق. وكيفية البحث هي أن يعكف الباحث على ما تجمع لديه فيقدح فيها الملاحظة والوجدان والخيال ليستنتج من وراء ذلك ما قد يطمئن إليه من مبادئ وأحكام ووقائع.

ولهذا فإننا نجد اليوم تعدد النزعات والمناهج والمشارب التي لا حصر لها في مجال الدراسات النظرية.

أما عالم الشهادة ، فقد كان من منهج القرآن أن يتجه إليه الإنسان بكل أبعاده وكل ما فيه. لأنه مدخل أساسي يستدل به على عالم الغيب

وهما مترابطان متلازمان. فما هي الموضوعات التي ركز عليها القرآن الكريم من عالم الشهادة ؟!

وقبل أن نبدأ بتفصيل هذا الأمر أذكر أن طائفة من أسماء السور القرآنية المائة وأربعة عشر تحمل أسماء مثيرة وملفتة للنظر من عالم الشهادة منها : البروج، النجم، القمر، الرعد، الضحى، الليل، النور، العصر، الفجر، البلد، الحجر، الكهف، الطور، الحديد، الأنعام، النمل، النحل، التين، العنكبوت، الإنسان، الناس، العلق، النساء، المائدة، الأحزاب، القلم، الدهر، الشمس، الزلزال، التكاثر... الخ.

وهكذا نجد أن هذه الأسماء مرتبطة بالواقع الذي يحسه الإنسان ويتقلب فيه فإذا ما تقدمنا إلى الآيات القرآنية وجدنا أنها تشد الإنسان شدا للتعرف إلى الواقع المحيط به وتأمله واستخراج ضوابطه وقوانينه (لأن معرفة الواقع هي بمثابة النور الذي يسقط دائما ظلالا حواليـــه) كما يقول باشلار، يقول تعالى : «فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا، فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا، وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا، وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم» عبس 24 ـ 32.

ويقول تعالى : «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا، ثم يجعله حطاما إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب» الزمر 21. ولئن كانت قواعد البحث عن الحقيقة عند ديكارت ولبها هو (تدريب العقل على التفكير المنظم الحر) وتركت هذه المقولة آثارا مهمة في مناهج الفلسفة والتربية على حد سواء، فإن هذه القواعد

واضحة تمام الوضوح في النص القرآني وبأجلى بيان. من ذلك قوله تعالى، وهو ينبه الإنسان إلى عالم التغيرات والمختلفات المحيطة به شيئا بعد شيء ليلحظ ويستنتج القاعدة العامة : «يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويحيي الأرض بعد موتها، وكذلك تخرجون. ومن أياته أن خلقكم من ترابه ثم إذا أنتم بشر تنتشرون. ومن أياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. ومن أياته خلق السماوات والأرض، واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين. ومن أياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله. إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون. ومن أياته يريكم البرق خوفا وطمعا، وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون» الروم 19 ـ 24.

ويدعو الإنسان إلى تأمل العقل في الظواهر المتغيرة وارتباطها ببعضها. يقول تعالى : «وأنزلنا من السماء ماء بقدر، وإنا على ذهاب به لقادرون. فأنشأنا به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة منها تأكلون» المؤمنون 18.

ويقول تعالى : «ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه، ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله، وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار. يقلب الله الليل والنهار، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار» النور 43 / 44

فأية حقائق علمية مادية أودعها الله تعالى في هذه الآيات أماطت المعرفة التجريبية الحديثة لثامها وأبانت عن صدقها ودقتها بما يقطع بأن الذي أنزل هذا الكلام هو خالق هذه الطبيعة.

وفي جانب التقدير وتحديد الكمية في عناصر الطبيعة يقول تعالى : «إنا كل شيء خلقناه بقدر» القمر 49. ويقول تعالى : «وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم» الحجر 21. «وكل شيء عنده بمقدار» الرعد 8. ويقول تعالى : «والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون».

ويؤكد على جانب الحساب والتقدير الزمني في هذا الوجود. يقول تعالى : «هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون» يونس 5. ويقول تعالى : «يسألونك عن الأهلة قل : هي مواقيت للناس والحج» البقرة 189. ويقول تعالى : «وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا» الإسراء 12.

ويقول تعالى : «وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون. والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم. والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم. لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون» يس.

ويلفت النظر إلى حقيقة هامة جدا من حقائق هذا الكون، ألا وهي وحدة الأصل مع تنوع الصفة والشكل، وقد اصبحت هذه الحقيقة موضع دراسات هامة وعديدة يقول تعالى : «والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء، إن الله على كل شيء قدير» النور 45.

إن الطبيعة في القرآن الكريم قد أفاضت الآيات في بيانها بشتى أوضاعها وحالاتها وما فيها صغيرا وكبيرا مادة جامدة أو حية متحركة وإليكم لوحة كاملة شاملة من سورة تحمل اسم مخلوق عجيب من سورة النحل يقول تعالى : «خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون خلق الانسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين، والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، ويخلق ما لا تعلمون، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين، هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر، والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه،

ولتبتغوا فضلا من ربكم ولعلكم تشكرون، وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم، وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون، أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون» النحل 2 ـ 17.

وإذا تأملت القرآن الكريم وأنت تقرأه وجدته يلفت انتباهك إلى حقائق قد نغفل عنها بالإلف والعادة، وكثرة الرؤية يقول تعالى : **«وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا، ومن النخل من طلعها قنوان دانية، وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه»** الأنعام 99. ويقول تعالى : **«وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل والنهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون، وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب، وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون»** الرعد 3 ـ 4.

وهكذا لا تخلو صفحة من صفحات القرآن الكريم إلا وفيها حقيقة من حقائق الطبيعة، وعالم الشهادة، الأرض السماء، القمر والنجوم، الشمس، الأنهار، الحيوانات، الحشرات، النبات الحدائق، الأمواج... الخ. والأمر الذي يجب أن يكون موضوع تأمل عميق منكم ومن الدارسين والباحثين هو أن هذه الحقائق على كثرتها وتنوعها، وفي غمرة القفزة التجريبية الهائلة التي قفزها إنسان القرن العشرين لم نجد هناك حقيقة علمية اكتشفها

الإنسان قد خالفت ما جاء في النص القرآني، أو حقيقة ألفت قاعدة أو مفهوما أرساه القرآن.

بل إننا نجد النص القرآني في الحقائق الكونية يمثل معالم هداية وإنارة أمام البحث التجريبي، بل أشبه ما تكون الآيات القرآنية قواعد وخلاصات للتجارب العلمية وإذا أردت التملي مثل واحد من مئات الأمثلة على هذا أذكر بقوله تعالى : **«والشمس تجري لمستقر لها....** إلى قوله تعالى : **وكل في فلك يسبحون»** يس ■ - 40. فقد أكد العلم الفلكي أن لكل كواكب مداره الذي يدور فيه ويسبح فيه وليس ثابتا ولا واقفا كما كان يظن سابقا.

وانظر إلى قوله تعالى : **«والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون»** الذاريات 47. إن العلم لم يتمكن من إعطاء صورة علمية مقبولة عن الكون إلا في العشرينات من هذا القرن، وتتلخص هذه الصورة في أن الشمس هي إحدى مكونات مجموعة مسطحة تتكون من 100 مليار نجم تسمى المجرة، وتوجد عدة مجرات أخرى غير مجرة الشمس منتشرة على حافات متباعدة عن بعضها البعض تصل إلى أبعاد تتراوح بين سنة واحدة وخمسة ملايين سنة ضوئية.

وقد كان أنشتين (1879 / 1955) أول من حاول تطبيق نظرية النسبية للحصول على معلومات عن حركية الكون وتبعه آخرون في هذا السبيل وقد أدت المحاولات المبنية على قواعد ونظريات الاحتمال إلى بيان ما يدل بشكل فيه الكثير من التأكيد على أن كثافة المادة دالة للزمن أي تتغير بتغيره، ويؤخذ مقياسا لذلك الكثافة المتوسطة في مدى

أحجام متناهية الكبر لا يؤثر عليها وجود المجموعات النجمية والمجرات، بحيث تكون النتائج على مستوى مرض من الدقة.

وقد أخذ ذلك دليلا على أن الكون يتمدد بسرعة معينة تتباعد عن الأرض تدريجيا، مما دحض النظرة الفلسفية السابقة التي تفترض سكون الكون واستقرار مكوناته في مواقعها.

وقد تمكن العلماء من تتبع ابتعاد المجرات عن الأرض وسرعة ذلك بطرق تعتمد على قياس طول موجة الضوء الأحمر، ومتابعة الإزاحة التي تطرأ عليها، ومن العلماء الذين ساهموا في ذلك الفلكي الأمريكي، أدوين هابل، والروسي فريدمان والبلجيكي جورج لامتير، ومن النتائج التي توصلوا إليها أن الكون يتمدد بسرعة متساوية في جميع الأطراف والاتجاهات، وبالتالي يحتفظ بتناسقه وانتظامه وتوازنه.

ويقول البروفسور ايدنجتون في هذا الصدد في كتابه (قصور العلم، أو حدود العلم) إن مثال النجوم والمجرات كنقوش مطبوعة على سطح بالون من المطاط، وهو ينتفخ باستمرار، وهكذا تتباعد جميع الكرات الفضائية عن أخواتها بحركاتها الناتجة في عملية التوسع الكوني.

ولقد عالج القرآن الكريم قضية من أخطر قضايا عالم الشهادة ألا وهو الإنسان، بدءا، وامتدادا، ونهاية، باعتباره محور المخلوقات كلها، وعالج بعده المادي، والداخلي النفساني والفكري.

ويأتي علم البيولوجيا والطب ليتابع ما قرره القرآن، ولولا خشية الإطالة لأفضت في ذلك وأكتفي بالقول بأن القرآن قرر أن الإنسان مخلوق من تراب، وطين، ومن تراب هذه الأرض. «يا أيها الناس إن

كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب» «والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا» ويزيد القضية إيضاحا في تدرج الخلق فيقول : «هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة، ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم، ثم لتكونوا شيوخا، ومنكم من يتوفى من قبل، ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون» غافر 67.

وكم هو مدهش أن يصل العلم اليوم لدعم الحقيقة القرآنية «إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا» الدهر 2 والنطفة الأمشاج هي المختلطة من حيوان الرجل ببويضة الأنثى، وهي البويضة الملقحة التي تعتبر بداية مرحلة خلق الإنسان، وتبدأ تلك البويضة بالانقسامات الداخلية الذاتية في نفسها لتصبح خلال أسبوع واحد أشبه بكرة جرثومية لا يزيد حجمها عن ربع ملمتر، أما تحديد جنس الإنسان ذكراً أو أنثى فيتم ذلك حسب تمازج الصبغيات التي في نطفة الذكر، مع صبغيات بويضة الأنثى، وصبغيات الرجل نوعان x و y وصبغيات الأنثى x فقط، فإذا التقى x مع y فالجنين ذكرا، وإذا التقى x مع x فالجنين أنثى، ولذا فالمسؤول عن تحديد نوع الجنين هو الرجل وليست المرأة.

ونتيجة لذلك رتب الإسلام على والده حقوقا وتشريعات جد مهمة وخطيرة منها حمل الإسم والوراثة، والنفقة... لأن ذلك ناموس الحياة، ونظام الكون.

وعرض القرآن الكريم لأمور كثيرة أخرى من عالم الشهادة، وواقع الإنسان وحسبي أن ألمت إليها بهذه الإشارة الموجزة السريعة لتكون

حافزا بين أيديكم لإطالة التأمل والفهم عن الله في كتابه المقروء، القرآن الكريم.

ومن دراسة آيات عالم الشهادة في القرآن الكريم نجد أمامنا عدة حقائق مترابطة مع بعضها وهي أسس في منهج المعرفة القرآني وهي :

1 ـ تحديد العلاقة بين الكون والإنسان، وبين الطبيعة والإنسان : فقد انتشرت وشاعت مصطلحات غير صحيحة في منهجنا مثل : الصراع مع الطبيعة الكفاح ضد الحياة. ولعلكم وأنتم تسمعون الآيات المتعلقة بالطبيعة أدركتم أن الأمر غير ذلك بل جاء النص صريحا أن الأرض والسماء والرياح والبحار والجبال خلقت مسخرة مطيعة للإنسان إن عرف قوانينها، وليست عدوا ولا حرباً له. يقول تعالى : **«وسخر لكم الليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم مسخرات بأمره، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون»** النحل 12. ويقول تعالى : **«ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة»** لقمان 20. ويقول تعالى : **«وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه»** الجاثية 13. وآيات كثيرة جاء النص فيها بلفظ سخر، فما على الإنسان إلا معرفة قوانينها وضابطها ليسهل مهمته في هذه الحياة كما قال تعالى : **«الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه...»**

أثر ذلك في حياة المسلم :

إن هذا المنهج حول الاتجاه في حياة الإنسان المسلم الذي تأثر بالقرآن الكريم وذلك من ناحيتين إثنتين :

أ) - إن المعرفة قبل نزول القرآن الكريم كانت متأثرة جدا بالفلسفة عموما، واليونانية خصوصا، والفلسفة آنئذ كانت قائمة على التأمل والبحث الميتافيزيقي التجريدي، وبعيدة عن التجريب والاتصال المباشر بالمحيط الطبيعي في حياة الإنسان. فلما وضع القرآن الكريم الإنسان أمام الطبيعة وجها لوجه ومن موقع السيادة عليها انطلق باحثا منقبا مجربا، مما أدى إلى قيام العلم التجريبي بكافة فروعه في ظلال الحضارة الإسلامية، وهذه نقلة جد هامة وقاعدة أساسية في تطور علوم المادة التي وصلتنا إليها اليوم، وقد شهد بذلك القاصي والداني من باحثي الفرنجة ولا حاجة بي إلى نقل شهاداتهم فهي كثيرة معروفة.

ب) - قبل نزول القرآن الكريم، وحتى بعد نزوله في المجتمعات التي لم تتأثر به كانت الأسطورة فاشية، والخرافة منتشرة في تعليل مظاهر الطبيعة، وأحداث التغير الجارية فيها فتعليل الظلام والنور، وسقوط المطر، واختلاف ألوان الزهر، وحمرة الشفق، والسحب وغيرها من الأمور كانت تدور في دائرة الأسطورة، ويتأثر بتفسيرها طائفة من الكهان والسدنة. فلما نزل القرآن الكريم بحمل حقائق العلم في تعليل الأشياء وترابطها مع بعضها انتهت الأسطورة والخرافة من ميدان البحث العلمي ولهذا لم يكن أدنى تأثير من ذلك في شخصية المسلم العلمية، بل من المعلوم أن الإسلام شدد النكير على من يصدق كاهنا أو عرافا... فهل بعد هذا تصدق من يقول، إن الإسلام، أو الفكر الإسلامي غيبي أو أسطوري أو... أو...

2 - أما الحقيقة الثانية التي تطالعنا ونحن ندرس آيات الطبيعة والكون في القرآن الكريم فهي أننا نجد أمرا لا ينفك عن هذه الآيات

ويلازمها ألا وهو أن معرفة المادة وقوانينها ترتبط بالدلالة على الله، وترشد إلى معرفة الخالق المبدع. وبالتالي فأهل هذه المعرفة المادية أقدر على معرفة الصنعة الإلهية والإيمان بالله. وأكتفي بذكر آيات قليلة جدا في هذا الصدد يقول تعالى . «ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء، ما يمسكهن إلا الله، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون. والله جعل لكم من بيوتكم سكنا، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين. والله جعل لكم مما خلق ظلالا، وجعل لكم من الجبال أكنانا، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر، وسرابيل تقيكم بأسكم. كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون» النحل 79. 81. وإن القرآن الكريم بين أن من يشهد لله بالوحدانية بعده سبحانه وتعالى هم الملائكة ثم أولوا العلم فقال تعالى . شهد الله أنه لا إله إلا هو، والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم» آل عمران 18.

وخاصة العلماء الذين يعنون بالبحث في مظاهر الطبيعة والحياة ويلمسون الدقة والإبداع والتوازن في ذلك. فهم يخشون الله ويخافونه أكثر من غيرهم يقول تعالى . «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك، إنما يخشى الله من عباده العلماء» فاطر 28.

ولا غرابة في الأمر إذا رأينا عالما أمريكيا كبيرا في الطبيعة أمثال كريسي موريسون يصدر كتابا بعنوان (الإنسان لا يقوم وحده)

وترجم بعنوان العلم يدعو للإيمان ويذكر العالم الهندي الدكتور عناية الله المشرقي وهو من أعظم علماء عصرنا في الطبيعة والرياضيات واقعة له مع السير جيمس جينز العالم البريطاني الشهير المتوفى 1946، وله أعمال رياضية وفلكية مترجمة إلى العربية أنه رآه ذات يوم في لندن وهو يسير تحت المطر الغزير والمظلة تحت إبطه وهو متوجه إلى الكنيسة فاستقرب الدكتور المشرقي وقال له، مثلك أنت الذائع الصيت في العالم تمشي إلى الكنيسة وما بالك تضع مظلتك تحت إبطك والمطر منهمر فابتسم وفتح مظلته وقال له، تعال إلي في المساء لتشرب الشاي معي وفي المساء عندما جاء إلى منزله انثال عليه بمحاضرة عن الأجرام والنجوم والفلك ثم قال له، يا عناية الله إنني عندما ألقي نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودي يرتعش من الجلال الإلهي، وعندما أركع أمام الله وأقول، إنك لعظيم أجد كل جزء من كياني يؤيدني في هذا الدعاء وأشعر بسكون وسعادة عظيمين، وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين أفهمت يا عناية الله لماذا أذهب إلى الكنيسة ؟ فقال له عناية الله المشرقي، يا سيدي لقد تأثرت بالتفاصيل العلمية التي رويتموها، وتذكرت بهذه المناسبة آية من كتابي المقدس فلو سمحتم لي لقرأتها عليكم، فهز رأسه قائلا، بكل سرور، فقرأ عليه «ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك، إنما يخشى الله من عباده العلماء» فصرخ جيمس جينز قائلا، لقد كان محمد

أمياً. ولا يمكن أن يكتشف هذا السر بنفسه ولكن الله هو الذي أخبره بهذا السر.

3 ـ أما الحقيقة الثالثة التي تطالعنا من خلال آيات الطبيعة في القرآن الكريم، أنها مخلوقة ومسخرة للإنسان لينتفع بها، ويسعد بها وتسهل له مهمته في هذه الحياة على وجه الأرض. **«الذي جعل لكم الأرض مهدا، وسلك لكم فيها سبلا، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى، كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى»** طه

«هو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه، ولتبتغوا من فضله ولعلم تشكرون» فإذا صرف الإنسان البحث في الطبيعة من حالة النفع والإسعاد إلى جانب الضر والإفساد والتدمير والإهلاك فقد انقطع التوفيق بين الإنسان وبينها، ووجهها وجهة غير التي أرادها الله لها.

ثم إن معرفة جانب النفع في الكون ليس ملكا لطائفة محجورا على قوم أو جنس أو قارة إنه للإنسانية جمعاء، مباح لكل قادر على تعلمه وتلقنه. فجعل هذه المعرفة سلعة يساوم عليها يمزع أوصال البشر، ويقطع أرحام العلم، ووشائج صلات التعاون، وهذا واقع يؤسف له في عالمنا اليوم.

يومنا وغدنا : بعد هذا القبس البسيط عن المعرفة القرآنية والأسس التي يضعها والآفاق التي يرسمها نجد أنفسنا مضطرين للوقوف أمام واقعنا دون التعريج على ماض مشرق مزدهر أضاءت قناديله مسارب السالكين في أنحاء الأرض، وأثمرت غراس علمه أينع الثمار وأطيبها

للآكلين من كل جنس ولون، دون هذا تقف أمام واقعنا لننطلق منه إلى تحديد مستقبلنا. فما يومنا إلا امتداد لأمسنا، وما يومنا إلا ركيزة بناء غدنا. وبما أن العالم تقاربت أطرافه وتلاحمت جنباته فإننا جزء لا يتجزأ من عالم شمخت فيه حضارة أوروبية غربية هيمنت على العالم بكل أبعاد كلمة الهيمنة. ولهذه الحضارة مفاهيمها وتصوراتها عن الكون والحيـاة والبشر.

إنهم سبقوا بقية العالم في معرفة الطبيعة وعلم المادة وبهذا هيمنوا وإنهم يحاولون بشتى الوجوه أن لا يسبقوا في ذلك ولن يتنازلوا إن استطاعوا عن منصة السبق. لذلك يحولون دون العقول التي تريد ولوج هذا الباب وهي ليست منهم. ثم إنهم يبيعون طرفا من هذه المعرفة بباهظ الأثمان. وما عهد صفقة الأواكس منكم ببعيد. وما حوار الشمال والجنوب إلا نوع مساومة بين أمم تملك المعرفة والتكنولوجيا وأمم تحاول انتزاعها. وما الحوار العربي الأوروبي إلا نوع من هذا.

وإن هذه المعرفة الغربية اتجهت الوجهة الخطرة على الأعم الأغلب وسخرت المقدرات في سبيلها. وجهة القوة قصد السيطرة على الأمم والشعوب واستغلالها. وما التنافس في نشر الصواريخ والقوة النووية إلا مظهر آخر من مظاهر المعرفة الخطرة والنار المستعرة التي يلعب بها أصحابها.

إن تكاليف رحلة واحدة من رحلات مكوك الفضاء الأمريكي أو الروسي مثلا يسعد ملايين الأناسي من شعوب فقيرة لا تجد سداد الرمق.

هذا التقدم التكنولوجي في الحضارة الحديثة لم يواكبه التقدم في علوم الإنسان والبحوث النظرية الخيرة التي تحفظ التوازن المعرفي بل

العكس من ذلك انحسر وضمر ضمورا بينا مما أوجد أجيالا قلقة معذبة متعبة لم تسعد بعطاء العلم يقول اليكس كاريل عن هذه الحضارة : (إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا. لقد انشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية. إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية. وشهوات الناس. وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا. إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا).

ويقول : يجب أن يكون الإنسان مقياسا لكل شيء والواقع هو عكس ذلك فهو غريب في العالم الذي ابتدعه. إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه. لأنه لا يملك معرفة علمية بطبيعته.

ومن ثم فإن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة. هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية. فالبيئة التي ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة لقوامنا. ولا بالنسبة لهيئتنا. إننا قوم تعساء. لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا.

إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف. والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها. ولكنها لا تدرك ذلك إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التي شيدها العلم حولها وحقيقة الأمر أن مدنيتنا مثل المدنيات التي سبقتها. أوجدت أحوالا معينة للحياة. من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة. وذلك لأسباب لا تزال غامضة.

أجل، إن الحضارة الحديثة اليوم في مأزق صعب. وواقعنا نحن معشر العرب والمسلمين وأبناء العالم الثالث كذلك صعب، ولكن من وجه آخر. إن مشكلة الغرب تقدم المعرفة المادية. ومشكلتنا نحن التخلف في هذا المضمار. ولا يبدو لي على المدى القريب أن يحدث هناك تقارب معرفي بين المتقدمين والمتخلفين. بل نلاحظ عكس ذلك أعني ازدياد اتساع الهوة وتباعد الجانبين ونلاحظ أن أي بلد من بلدان العالم الثالث عندما يعزم على فتح مؤسسة علمية أو كلية أو جامعة يتجه أول ما يتجه ـ بل يمل عليه ذلك ـ لفتح كليات الحقوق والآداب، والفنون الجميلة...

وما يدور في إطار الدراسات النظرية التي تصاغ على الطريقة الغربية ـ طريقة الغالب ـ وتكون نتيجتها تجريد هذا البلد من هويته وشخصيته وبروز أتباع وعبيد الغرب وينطلق هؤلاء مبشرين بأفكار الغرب.

أما كليات الهندسة، والطب، والعلوم التجريبية، فالتفكير في إنشائها بعيد وإن جاء فيأتي في مرحلة لاحقة وبعيدة. والمفروض أن يكون العكس.

إن مشكلتنا الأساسية اليوم ـ معشر المسلمين ـ تتلخص في مقدمتين لازمتين إن أردنا غدا أفضل، وفجرا مشرقا زاهيا. وقبل أن أحدد هاتين المقدمتين أشير إلى أن القضية ليست من السهولة بمكان بل هي صعبة جدا، وتحتاج إلى تضافر، وتعاون ووعي. لأن نظرة الغرب لنا وقد احتك بعالمنا وإنساننا طويلا، أصبحت تحمل رواسب تاريخية عميقة الجذور في الشخصية الغربية

يقول المستشرق النمساوي ليوبولد ڤايس الذي تسمى (محمد أسد) في هذا الصدد ، (إن موقف الأوربي عامة اتجاه الإسلام خلاف ما هو عليه موقفه من سائر الأديان والثقافات. إنه موقف كره عميق الجذور يقوم في الأكثر على صدود من التعصب الشديد. وهذا الكره ليس عقليا فحسب، ولكنه يصطبغ أحيانا بصبغة عاطفية قوية.

قد لا تتقبل أوربا تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوكية. ولكنها تحتفظ دائما فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلي متزن، ومبني على التفكير إلا أنها حالما تتجه إلى الإسلام يختل التوازن، ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب، حتى إن أبرز المستشرقين الأوربيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام. ويظهر في جميع بحوثهم على الأكثر كما لو كان الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع بحث في البحث العلمي. بل على أنه متهم يقف أمام قضاته. وبعض المستشرقين يمثلون دور المدعي العام الذي يحاول إثبات الجريمة، وبعضهم يقوم مقام المحامي في الدفاع مع اقتناعه بإجرام موكله، ولكنه يلتمس الأسباب المخففة).

وإن آخر ما رأيناه في هذا الصدد، ويؤكد هذا إسلام المفكر الفرنسي (روجيه غارودي) إذ قرأنا لهذا المفكر قوله ، أردت أن تكون قضية إسلامي بلا ضجة ولا صخب لأنها قضية شخصية محضة. لكن بعض الدوائر أصرّت على إثارة الزوابع حولها. ويعلن هذا المفكر للصحافة. بأنه (تلقى عديدا من رسائل التهديد بالاغتيال لأنه أعلن إسلامه ودخل في هذا الدين) وهذا في عالم يدعي الحرية والديمقراطية، وهو فعلا عالم

للديمقراطية والحرية ولكن لغير الإسلام والفكر الإسلامي والشخصيات المسلمة الحركية.

وفي جعبتنا الكثير من هذا !!

ولهذا فالقضية صعبة وخطيرة أمامك أيها العربي، أيها المسلم.

والمقدمتان هما:

١ - كسر طوق الاحتكار التكنولوجي الذي فرضه الغرب تجاهك، ولم يدعك تتخطاه وبدأ يبتزك ويساومك عليه ويراوغك. أذكرك بالحوار العربي الأوربي الذي بدأ عقب حرب 1973، وحوار الشمال والجنوب، ولم يسفرا عن نتيجة ولن يسفرا على المدى القريب، إنك أيها المسلم مدعو لكسر هذا الطوق من منطلق المعرفة القرآني والمعرفة ليست شرقية ولا غربية إنها ملك الإنسانية جمعاء، وليس هناك دين سماوي أو مبدأ وضعي فتح أبواب المعرفة وحض عليها وفرضها كما هو الشأن في الإسلام فإن استطاع العالم الإسلامي أن يكسر هذا الطوق، فسيكون مركزه العالمي غير ما هو عليه الآن وستكون العلل غير هذه التي نراها، وإن الصين قد دخلت مسرح الكبار عندما فجرت قنبلتها النووية.

إن القادة المسؤولين، الذين يضيعون الجهود، ويصرفون الطاقات، ويبددونها للحيلولة دون هذا الهدف العالي، والمقصد الغالي، إنهم يرتكبون خطأ فادحا ليس في حق شعوبهم فحسب، بل في حق التاريخ والإنسانية كلها.

إن أولئك الذين يعتقدون بأن تقدمنا هو ركوبنا السيارات الفارهة، وسكنانا العمارات الشاهقة، ولو كنا نستوردها من الخارج مخطئون إن

تقدمنا هو صنعنا للسيارات وعدم احتياجنا لاستيراد أدوات وتجهيزات البنايات بل تصنع في بلادنا، حتى لا ندفع دماءنا ثمنا لذلك.

وكما نلاحظ أيها القارئ الكريم أن القضية ليست قضية الإسلام، بل هي قضية المسلمين، وليس تقاعس الإسلام بل تقاعس المسلمين وخمولهم.

ثم إن هذه العلوم يجب أن تكون مرتبطة بالله سبحانه وتعالى وبمعرفته، والنفع الإنساني العام، وإن وجهتها التي تتجهها اليوم خطر على البشرية وعلى أصحابها فما أحوجها إلى وضعها في إطارها الصحيح، لتعود البسمة إلى شفاه التعساء الذين عبر بلسانهم برتراندرسل، وكارليل وغيرهم !!!

ٍ ـ تعديل مناهج الدراسات النظرية الغربية، وعدم الاستسلام، إننا قد نستفيد من بعض جزئياتها في التنظيم، إلا أن إطارها العام منطلقا وهدفا يجب أن يمحص ويخضع للنقد. يقول محمد أسد في هذا (إن تعليم الأدب الأوربي على الشكل الذي يسود الكثير من مؤسسات العالم الإسلامي يقود إلى جعل القيم الإسلامية غريبة في عيون الناشئة ومثل هذا ولكن إلى حد أبعد يصدق على التعليل الأوربي للتاريخ العالمي إذ لا يزال الموقف القديم فيه رومانيون وبرابرة يظهر بجلاء، ثم إن لمثل هذا العرض في التاريخ هدفا خفيا، ذلك أنه يدلل على الشعوب الغربية ومدنيتها أرقى من كل شيء جاء أو يمكن أن يجيء إلى هذا العالم، وهذا يمكن خلق نوع من التبرير الأدبي لسعي الأوربيين إلى السيطرة، وإلى القوة المادية.)

ثم يقول : (إن دراسات التاريخ بالطريقة الغربية يظهر كما لو أن العالم قد أوجد من أجل أوربا ومن أجل مدنيتها فقط، وكما لو أن سائر الشعوب والمدنيات قد خلقت لتكون حواشي تناسب بهاء أوربا وحدها.

أما التأثير الوحيد الذي يمكن أن يتركه هذا التثقيف التاريخي في عقول الأحداث من غير الشعوب الأوربية، فإنما هو شعور هذه الشعوب بالنقص فيما يتعلق بثقافتهم الخاصة وبماضيهم التاريخي الخاص، وبالفرص السانحة لهم في المستقبل، اللهم إلا إذا كان مستقبلا مستسلما للمثل العليا الغربية).

وإن ابتكار مناهج جديدة للدراسات النظرية من أهم الواجبات الملقاة على عاتقنا للإنقاذ ولتوجيه الفكر الإنساني بعيدا عن موارد الهلاك التي يسوقنا إليها الفكر الغربي. وهذه من أخطر القضايا التي تواجه الحضارة الغربية المعاصرة.

فهل يتقدم المسلم لهذه المهمة السامية وفي سبيل هذا يدفع الثمن غاليا. ولا ضير ان الأمم جميعها دائنة ومدينة في تراث الحضارة الإنسانية، وما من أمة إلا ولها عطاءات في هذا التراث الإنساني.

وليكن أمامنا هذه السنة الكونية التي قررها القرآن الكريم وأكدها :

«ولا تهنوا ولا تحزنوا، وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين، إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس».

صدق الله العظيم

القنيطرة   د. فاروق حمادة

المـراجـع

القرآن الكريم	
الإسلام والفكر العلمي	الأستاذ محمد المبارك ط 1 ـ دار الفكر
نظام الإسلام العقيدة والعبادة	الأستاذ محمد المبارك ط 6 ـ دار الفكر
الإسلام ومشكلات الحضارة	الأستاذ سيد قطب
الرؤية الصالحة للحضارة المعاصرة	الدكتور فاروق حمادة
الإسلام يتحدى (مدخل علمي للإيمان)	الأستاذ وحيد الدين خان
الدين في مواجهة العلم	الأستاذ وحيد الدين خان
الإسلام على مفترق الطرق	الأستاذ محمد أسد
كبرى اليقينيات الكونية	الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي
فلسفتنا	السيد محمد باقر الصدر
دلائل الحق في عظمة الخالق	الدكتور عزت محمد خيري
لمحات نفسية في القرآن الكريم	الدكتور عبد الحميد الهاشمي
المنهج الإسلامي في الجرح والتعديل	الدكتور فاروق حمادة
الموسوعة العربية الميسرة	
مجلة عالم الفكر الكويتية	المجلد الثاني عشر
مجلة منار الإسلام	السنة الثالثة

هواجس (*)

-2-

علي الصقلي

حُلُقُ الظلم عريـــــــقُ ما نجا منه غريـــــقُ
ألِذا ضاع الطريـــــقُ ؟ وسبى العينَ بريـــقُ ؟
هو وهْمٌ بل حريـــــقُ !

ليتَنا جوعانُ يمضي مثلَ أعمى دونَ ومْـــضِ
مَن لنا فيه بنَبْــــضِ راحةٌ إذ نحن نُمضِـــي
عيشَه في شر (1) رَضْـــضِ !

ليتَنا لا طالَ لَيْــــلاَ فاجعاً فينا بليلَـــى
قد أحالَ الرأسَ ذيـــلاَ والحقيرَ النذلَ قَيْـــلاَ
يازَبونَ أتخمني سيـــلاَ !

(*) سبق نشر القسم الأول في العدد السابع والعشرين من مجلة المناهل
(1) أصله : وضعَ النصل : جعله بين حجرين لطحنه - ثم دقه ليرق

رَبِّ أتبعه بصُبحِ لم يُشَب حقّاً بقُبحِ
في سناه كلُّ رِبحِ لِذوي سَبحٍ (2) وَضَبحِ (3)
دونما صوتٍ لنُبحِ

ربِّ ذاتِ القلبِ ذابا لك حبّاً وانجذابا
ذاتِ صِدقاً، لا كِذابا فاسقِهِ الشوقَ عِذابا
وَهْوَ أنتَ التّوابا

مَن تُرى يُفرجُ كَربي سالكاً بي خيرَ دربِ
إن قسَى الدهرُ بحربي غيرُ مَن ألقاه قُربي
يَجزلُ الفضلَ ويُربي ؟

إنه، واللهِ غالي غيرُه إن عُدَّ مالي
هُوَ كنزي وآمالي عن يميني وشمالي
جلَّ موفورَ الكمالِ

في هواهُ لم يُقَضَّ بي هُوَ مَن بالحُسنِ يَسبي
إنه اللهُ، وحسبي... فاسمُه الأعظمُ كَسبي
وهوَ إن أجدبتُ، وَسْبي (4)

---

(2) لمن يتقلبون وينتشرون في الأرض
(3) أصله: ضبحت الخيل ضبحا: أسمعت من أفواهها أصواتا ليس بصهيل ولا حمحمة
(4) من وسب المكان: كثر عشبه

جَلَّ من ليس يُماقِبُ　　خَلقَه فيما يراقِبُ
كم ظلامٍ جِدَّ واقِبْ (5)　　عَمَّه كالنور ثاقِبُ
إنها إحدى المناقِبْ

لَيس إلاَّ لك حمدُ　　أَإلى غيرك قصدُ ؟
دونك الأكوانُ عَبدُ　　ما لها إلاك عقدُ
وتَقي يا جوهرُ غمدُ

الربـــاط　　علي الصقلـــي

(5) منتصر.

التنبيه
على أوهام تحقيق التعريف

د. حسام سعيد النعيمي

«التعريف في اختلاف الرواة عن نافع» كتاب في القراءات القرآنية قال عنه مؤلفه الإمام أبو عمرو الداني: «هذا كتاب أذكر فيه إن شاء الله الاختلاف بين أصحاب أبي عبد الرحمن نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني رحمه الله الذين أخذوا القراءة عنه تلاوة وأدّوها إلى الناس حكاية وهم أربعة، وذكر اسماعيل الأنصاري واسحاق بن المسيب وقالون وورش» (ص 159 ـ 160).

حقق الكتاب الدكتور التهامي الراجي الهاشمي وطبع تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر إحياء التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة 1403 ـ [illegible] م.

بذل المحقق الفاضل جهدا كبيرا في المقدمة والحواشي والفهارس بحيث أحال لوحات المخطوط الثماني إلى أربع وسبعين وأربعمائة صفحة ! فيها الكثير مما ينفع القارئ ويزيده علما بموضوع الكتاب

ويعرفه بالأعلام المذكورين فيه زد على ذلك ما فيه من جداول وتشجيرات توضيحية.

وقد قرأت الكتاب قراءة مستفيد فوضعت في حواشيه ما رأيت لأهميته أن عليّ أن انشره على الناس لتعم الفائدة ولولا أن الكتاب في القراءات القرآنية ما نشطت للنشر.

أقول ومن الله سبحانه استمد الحول والقوة والسداد :

1) قال المحقق الفاضل : (ورغم أنني أتوفر (كذا) على نسخة مصورة من نسخة التعريف المودع بالخزانة العامة بتطوان تحت رقم (؟) فإني لم أعد إليها لأثبت الخلاف الموجود بينها وبين نسخة الرباط. اعتقادا مني أن خلافات الرسم في كتب القراءات إن اثبتت ستشوش على القارئ ولن تساعده على فهم المراد من هذا الفن. لذا حاولت أن اقدم حسب المستطاع نصا كاملا تاما مقروءا اعتقد أنه هو الذي أراده الإمام الداني رحمه الله (ص 143).

أقول : ها هنا جملة امور ينبغي الوقوف عندها :

الأول : أنه لا يختلف اثنان من علماء التحقيق في أن المحقق إذا وجد نسخة ثانية من المخطوط فإن عليه أن يقابلها بما عنده ويثبت الخلاف بين النسختين في الهامش ليدع المجال لغيره من أهل الصنعة كي ينظروا فيما رجحه من المختلف فلعله يكون قد اختار المرجوح فينبه على ذلك. بل إن بعضهم يتشدد في ذلك حتى انه يثبت في الخلاف نحو رحمه الله، وعليه الرحمة، ونحو سبحانه وتعالى، وعز وجل وغير ذلك من ألفاظ الثناء على الباري سبحانه.

وقد كان اثبات الخلاف سببا في تنبيه المحققين إلى كثير من الأوهام فيما أثبتوه مما يعين على ضبط النص وتصحيحه. يحضرني ما وقع فيه الأستاذ عبد السلام هارون في تحقيقه كتاب سيبويه فقد رأيته في مواضع متفرقة يختار المرجوح فنبهت إلى شيء من ذلك طلبتي في محاضراتي التي ألقيتها عليهم من كتاب سيبويه فمن ذلك مثلا اختياره في ج 1 ص 425 حيث اختار عبارة (وذلك قولك مررت برجل ضاربه رجل) من عدة نسخ وأهمل عبارة (وذلك قولك مررت برجل ضارب زيد) وقد وردت في عدة نسخ أيضا وهذه الثانية أصوب عند التحقيق لأن سيبويه كان يتكلم على حمل المظهر على المضمر في هذا الباب فالنسخ التي مثلت بالمظهر أصوب من التي أعادت التمثيل بالمضمر. وقراءة النص كاملا في الصفحة المذكورة يري صحة ما ذهبنا إليه. فلولا أنه أثبت الخلاف بين النسخ ما عرف الصواب. الثاني ، دعواه بأن خلافات الرسم تشوش على القارئ نوع من حسن التخلص، لأن الاختلاف بين النسخ لا يكون في الرسم وحده، وهذا أظهر من أن نقف عنده.

الثالث ، قوله إنه حاول أن يقدم نصا كاملا تاما مقروءا.. الخ غير مسلم له، فكيف حاول ذلك وقد اهمل المقابلة بين النسختين.

الرابع ، لم يذكر المحقق أي وصف لنسخة تطوان ولم يذكر لم اختار عليها نسخة الرباط مع أن هذه الثانية لم يعرف ناسخها كما ذكر في ص 143 ولم يشر إلى تأريخ النسخ أهو موجود أم لا. فهل نسخة تطوان غير مؤرخة أيضا ولا يعرف ناسخها وما الذي جعلها أقل أهمية من نسخة الرباط ؟ ولماذا ترك مكان رقمها خاليا ؟

إن ترك المقابلة أضعف التوثيق العلمي للنص وأوقع المحقق في هفوات كان في غنى عنها بل إن ذلك أدى إلى عدم تنبهه إلى ما أصاب النص من تحريف خلال نسخه من المخطوط فاستطعنا أن نصحح له أكثر من خطأ في النقل مستفيدين من صورة الصفحتين اللتين نشرهما للمخطوط في صدر الكتاب كماسيأتي.

2) بين الصفحة الخامسة والسادسة وضعت صورة صفحتين من المخطوط قال عنهما المحقق إنهما الصفحة الأولى والأخيرة منه (ص 143) وعند النظر فيهما ظهر ما يأتي :

الأول : أنهما الصفحتان الأولى والثانية من المخطوط لا الأولى والأخيرة كما ذكر، وهذا واضح من ارتباط الكلام ومن التعقيبة في أسفل الصفحة الأولى التي هي تنبيه لما سيأتي في أول الصفحة التالية، حيث قال في آخر الأولى : وقال : قرأت بها، وكتب في أسفل الصفحة كلمة : القرآن، وهي الكلمة الأولى من الصفحة التالية، وتكون الجملة : وقال : قرأت بها / القرآن كله على فارس بن أحمد... الخ. كما أن نهاية الصفحة الثانية ليس فيها ما يدل على أنها الصفحة الأخيرة، إذ آخر ما فيها قوله : ذكر أسانيد رواية.. وتنتهي الصفحة.

الثاني : تختلف صورة الصفحتين عن المتن المثبت في الكتاب في مواضع، مع أنها النسخة الوحيدة التي نقل منها المحقق الفاضل المتن، وذلك في الآتي :

1. في ص 1 س 1 من المخطوط بعد العنوان قال : رضي الله عنه وأرضاه ونفع به وبأمثاله. وقد سقطت ونفع به وبأمثاله من المطبوع.

2 ـ في ص 1 س 7 من المخطوط قال ، وأذكر عن كل واحد منهم روايتين إلا عن ورش وقالون. وفي المطبوع ص 160 قال ، .. روايتين إلا ورش وقالون، فأسقط (عن) وجعل في العبارة لحنا، لأن الصواب حينئذ أن يقال ، إلا ورشا وقالون.

3 ـ ص 1 س [illegible] من المخطوط قال ، ورواية أحمد بن فرج.

وفي المطبوع ص 161 ، أحمد بن فرح، بالحاء، وقد اضطرب المحقق في هذا فمرة يثبته بالحاء كما في هذه الصفحة وفي الحاشية [illegible] ومرة بالجيم كما فعل في ص 255 وص 269 وص 270 وص 272 بل إنه في فهرس الأعلام كتبه بالجيم، وهو لم يرد في صورة المخطوط المنشورة إلا بالجيم وذلك خطأ من الناسخ فقد نص ابن الجزري على أنه ابن فرح بالحاء (غاية النهاية ج 1 ص 95) ولذا كان على المحقق الفاضل أن يضبط الاسم في الكتاب كله، وينبه على خطأ الناسخ.

4) ص 1 س 13 من المخطوط قال ، وهذه الروايات عن المشهورات عن هؤلاء. وفي المطبوع ص 163 قال ، وهذه الروايات هي المشهور عن هؤلاء.

5 ـ ص 1 س 14 ، 15 من المخطوط قال ، طلبا للإيجاز ورغبة في الاختصار. وفي المطبوع ص 163 قال ، طلبا للإيجاز ورعاية في الاختصار.

6) ص 1 س [illegible] من المخطوط قال ، قرأت على أبي عمر الدوري. وفي المطبوع ص 168 قال ، قرأت على أبي عمرو الدوري.

ومعلوم أن كنية الدوري أبو عمر وليس أبا عمرو.

7) ص 1 س 22 من المخطوط قال ، عبد الباقي بن الحسين المقرئ. وفي المطبوع ص 168 قال ، عبد الباقي بن الحسن المقرئ.

وعرف بالعلم في أسفل الصفحة من غير إشارة إلى خطأ النسخة. والغريب أنه جاء في ص 179 وفي ص 191 وكتبه عبد الباقي بن الحسين وكذلك فعل في ص 172 في الحاشية 22.

8) ص 1 س 24 من المخطوط قال ، ذكر إسناد رواية المسيب. وفي المطبوع ص 172 قال ، ذكر أسانيد رواية المسيب.

9) ص 1 س ▒ من المخطوط قال ، وقال قرأت بها... وفي المطبوع ص 172 قال ، قال قرأت بها...

10) ص 2 س 1 من المخطوط قال ، وقال لي قرأت بها على عبد الباقي بن الحسين وقال لي قرأت بها على...

وفي المطبوع ص 172 قال ، وقال قرأت بها على عبد الباقي بن الحسن وقال قرأت بها... فأسقط (لي) مرتين. وصحح العلم من غير إشارة إلى الأصل.

11) ص 2 س ▒ من المخطوط قال ، بن جعفر بن خراساني.

وفي المطبوع ص 173 قال ، بن جعفر بن خواستي. وترجم له في الحاشية من غير إشارة إلى خطأ الأصل.

12) ص 2 س 6 من المخطوط قال ، الضريري المقرئ.

وفي المطبوع ص 174 قال ، الضرير المقرئ. ولم يشر إلى خطأ الأصل. مع أن أمثال هذه الأوهام يعطي فكرة عن الناسخ.

13) ص 2 س 10 من المخطوط قال ، حدثنا عبيد الله بن أحمد المقرئ بن أحمد بن جعفر بن ثوان قال... وفي المطبوع ص 177 قال ،

حدثنا عبيد الله بن أحمد المقرئ بن أحمد جعفر قال، وأشار في الهامش إلى أنه بعد كلمة جعفر كلمة غير مقروءة. وعندما عمل جدولا لهذه الرواية في الصفحة التالية لم يورد فيها أحمد جعفر الذي أثبته هنا. والذي أميل إليه أن الناسخ قد اخطأ هنا وكان على المحقق أن يفصل في الأمر، مستفيدا من نسخة تطوان.

14) وهذه مسألة لها أهميتها ولكي تتضح للقارئ سأبدأ بإيراد ما في المطبوع ثم أنتقل إلى أصل ذلك في المخطوط ،

قال في ص 177 ، وقرأت القرآن كله على فارس بن أحمد وعلى غيره. وقال لي فارس بن أحمد ، وقرأت بها على عبد الباقي بن الحسن أحمد بن عثمان.

وعقب على ذلك في حاشية ص 178 فقال ، لم يذكر الداني رحمه الله هذا الراوي ولا ذكر الراويين بعده أما الذي اشرت إليه بعلامة فلا أستطيع أن اثبته دون أن اكون على يقين تام منه. أما الراويتان (كذا) الأخيران فقد اثبتهما نظرا ليقين الأخذ عنهما وإن اغفلهما في النسخة الموجودة عندنا.

أقول ، يشير بهذا إلى الجدول الذي عمله في الصفحة نفسها بعنوان الفرع الثاني حيث كتب ، فارس بن أحمد وتحته عبد الباقي بن الحسن ثم ترك فراغا يشمع لسطر ثم كتب ، أبو نشيط وكتب تحته قالون. وواضح أن العلامة التي لم يذكرها حقها أن توضع على السطر الخالي بين عبد الباقي وأبي نشيط. وتطوع رحمه الله بإثبات أبي نشيط وقالون ليقين الأخذ عنهما كما قال مع أن النسخة الموجودة عنده قد اغفلتهما. هكذا قال. والصحيح أن المحقق الفاضل قد اغفلهما كما أغفل

أحمد بن عثمان حيث اضطرب في النسخ عن المخطوط في ص 2 من السطر الحادي عشر إلى السطر الرابع عشر ولو نقل النص صحيحا ما وقع فيما وقع فيه ولو كان قابله مع نسخة تطوان لتنبه إلى السقط وهذا هو النص منقولا من الصورة المنشورة، ص 2 س 11 ـ 14 من المخطوط قال،

وقرأت بها القرآن كله على فارس بن أحمد وعلى غيره. وقال لي فارس بن أحمد قرأت بها على عبد الباقي بن الحسين وقال قرأت على ابراهيم بن عمر المقرئ وقال قرأت على أبي الحسين أحمد بن عثمان المقرئ وقال قرأت على أبي حسان أحمد بن محمد وقال قرأت على أبي نشيط وقال قرأت على قالون وقال قرأت على نافع.

15) ص 2 س 16 من المخطوط قال،

قرأت بها القرآن كله على

وفي المطبوع ص 179 قال،

قرأت القرآن كله على.

فأسقط (بها).

16) ص 2 س 19 من المخطوط قال،

قرأت بها على الباقي بن الحسين.

وفي المطبوع ص 179 س 13،

قرأت بها على عبد الباقي بن الحسين. ولم ينبه في الحاشية إلى سقوط كلمة عبد من المخطوط. كما أثبت الحسين خطأ والصواب الحسن. على ما حققه في موضع سابق.

17) ص 2 س 22 من المخطوط قال،

قرأت بها على الحسن بن صالح ومحمد بن حمدون وقالا لي قرأنا على أبي عون.

وفي ص 180 س 6 من المطبوع قال :

قرأت بها على الحسن بن صالح ومحمد بن حمدون وقال لي قرأت على أبي عون.

18) وهذه مسألة أخرى لها أهميتها اضطرب المحقق الفاضل فيها في النقل عن المخطوط فأخل بالنص وأسقط منه. ونقول مرة أخرى - على أن التكرار ممل - ليته قابل بنسخة تطوان بل ليته قابل ما نقله بنسخة الرباط.

ص 182 من المطبوع قال :

وأما رواية القاضي فحدثنا بها طاهر بن غلبون قراءة مني عليه قال حدثني أبي رحمه الله قال حدثنا محمد قال حدثنا ابن مجاهد قال حدثنا القاضي عن قالون عن نافع. وقرأت بها... الخ.

والنص الصحيح في المخطوط :

ص 2 س 24 :

وأما رواية القاضي فحدثنا بها طاهر بن غلبون قراءة مني عليه قال حدثنا أبي رحمه الله قال حدثنا محمد بن جعفر بن محمد قال حدثنا اسماعيل القاضي عن قالون عن نافع.

وحدثنا بها أيضا محمد بن أحمد قال حدثنا ابن مجاهد قال حدثنا القاضي عن قالون عن نافع. وقرأت بها.

ترى لو أن المحقق الفاضل كان قد اقتنع بضرورة المقابلة بين النسخ أكنا نصل إلى مثل هذا بالنظر في صورة صفحتين من المخطوط ؟!

3 هناك ملاحظات ووجهات نظر تتعلق بالمقدمة أكتفي بمسألتين منها :

1) ذكر شيوخه وتلامذته :

ص 8 شيوخـه

ذكر أحد عشر شيخًا من شيوخ الداني من ص 8 إلى ص 12 والذي لفت نظري أمران :

الأول : الشيخ رقم 7 حيث قال عنه : 7 ـ مؤلف كتاب «المنشأ» يعني به منشأ القراءات في القراءات الثمان. أنظر العلم رقم 5 أعلاه.

أي أن العلم رقم 7 هو نفسه العلم رقم 5 فلم إذن إعادة ذكره ؟ أمن الصواب أن يعاد ذكر الشيخ خمس مرات. إذا كان له خمسة كتب مثلا ؟

الثاني : لم يكن إيراد الأعلام على وفق ضابط معين فقد بدأ بمحمد بن أحمد المتوفى سنة 399 هـ وبعده خلف بن ابراهيم المتوفى سنة 402 هـ وبعده طاهر بن غلبون المتوفى سنة 399 هـ وهكذا فهو لم يبن ذكرهم على الوفيات كما لم يبنه على الحروف الأولى من أسمائهم. أما أكثر الشيوخ أثرًا في المصنف فلم يذكر لنا المحقق ذلك ولكننا رأينا أكثرهم أثرًا فيه في هذا الكتاب فارس بن أحمد وذكره المحقق تحت رقم 5 فقد وجدنا كل قراءاته التي أورد رواياتها عن نافع كانت على فارس بن احمد إلا رواية أبي يعقوب عن ورش فقد ذكر أنه قرأ بها على خلف بن ابراهيم. فأثر الشيخ إذن لم يكن في حساب المحقق الفاضل. ولذا يبقى السؤال قائمًا على أي أساس كان ترتيب الأعلام ؟

ص 13 تلامذتــه

ذكر ما يزيد على العشرين من تلامذته من غير ضابط كما فعل بسرد شيوخه فالأول : شاكر بن خيرة المتوفى بعد سنة 470 هـ

والخامس : غالب بن عبد الله المتوفى سنة 446 هـ والثامن : خلف بن محمد لم يذكر سنة وفاته وهكذا.

2 التعريف بالمخطوط

ص 142 وما بعدها: عقد المحقق الفصل السادس من المقدمة للتعريف بالمصنف الذي يحققه وكتب في ذلك اثنتي عشرة صفحة إلا أن التعريف بالمخطوط جاء في الأربعة الأسطر الأولى لا غير أما الأسطر والصفحات الباقية فقد خصصت للتعريف بجيران المخطوط. فقد كان من حسن حظ ثمانية وعشرين مخطوطا أن جاورت كتاب الداني في مجموع واحد فرأى المحقق الفاضل أن من حق الجار على الجار أن يقوم بالتعريف بمخطوطات المجموع ولا أدري لم لم يكرم مخطوط الداني أكثر من ذلك فيعرف بالمخطوطات التي كانت مع هذا المجموع في درج واحد !

4) الـكـتـاب

1 - في ص 155 بدأ كتاب الداني وقد كتب المحقق الفاضل تحت العنوان : ألفه أبو عمر عثمان.. وهكذا كتب على الغلاف، وفي المقدمة والمتن كانت الكنية أبا عمرو حيث ورد وهو الصحيح. فلا أدري أهو عند المحقق أبو عمر أم أبو عمرو ؟!

2) ص 167 :

قال : فأما رواية أبي الزعراء

الفرع الأول من الرواية : فحدثنا بها...

أقول : قوله : الفرع الأول من الرواية زيادة ليست في الأصل ولذا كان ينبغي أن توضع بين معقوفتين لتعلم زيادتها وهكذا ينبغي أن يكون في المواضع الأخرى التي وردت فيها التفريعات.

3) ص 167

قال : فحدثنا محمد بن أحمد بن علي البغدادي (15).

وعلق المحقق في الحاشية 15 بقوله : أعتقد أن الذي حدثه بهذه الرواية هو محمد بن أحمد بن علي بن حسين أبو مسلم الكاتب البغدادي... وأقول أعتقد أنه يروي عن هذا لأنه قد يكون روى أيضا عن قارئ يحمل نفس الاسم الذي ذكره وهو محمد بن علي البغدادي سيما وأن هذا الثاني وهو أبو منصور البغدادي الزاهد المعروف بالخياط مؤلف كتاب المهذب في القراءات، وأنه أقرأ سبعين ألفا... فغير مستبعد أن يكون من بينهم الحافظ أبو عمرو الداني.

أقول : الاعتقاد ينبغي أن يبنى على حجة مرجحة ولم يبين لنا المحقق سر اعتقاده لنشاركه ذلك، هذا أولا.

ثانيا : لا نوافقه في أن المسألة بها حاجة إلى اعتقاد بل لا نعتقد صحة إيرادها فأبو مسلم الكاتب لا يمكن أن يلتبس اسمه على قارئ مع أبي منصور الخياط والأول اسمه محمد بن أحمد وهو الذي ورد ذكره في الكتاب أما الثاني فهو محمد بن علي فأين ابن أحمد من ابن علي. لست أدري من أين دخل الشك على المحقق الفاضل وهو الذي أورد محمد بن أحمد تحت رقم 1 من شيوخ الداني ولم يذكر هناك محمد بن علي في شيوخه.

4) ص 168

قال : وقال قرأت بها على عبد الله بن الحسين البغدادي (18) وقال قرأت على ابن مجاهد.

وقال المحقق في الحاشية 18 ، أنظر اللوحة (ب 2) والترجمة رقم 47 من الفصل الخامس وهي اللوحة المعنونة ب طريق الحلواني والطرق إلى ابن أبي مهران».

أقول ، اللوحة التي اشار إليها تقع في ص 113 من الكتاب وليس فيها عبد الله بن الحسين البغدادي وإنما فيها كلمة (السامري) وفوقها رقم 47 فقط وفي ص 114 قال ، 47 السامري ، ترجمته ، غاية النهاية الجزء الأول صفحة 415 الترجمة 1761... ولم يرد في التعريف أي ذكر لعبد الله بن الحسين البغدادي فهل يصح هذا في أصول التحقيق وما كان يضيره لو رفع اللبس وذكر الإسم كاملا ولا سيما أن القراءة التي وردت هنا تصل البغدادي بابن مجاهد كما هو واضح، واللوحة التي أشار إليها مع الرقم تصل السامري بابن شنبوذ. وعلى ذكر اللوحات، لا أدري لم صنع المحقق الفاضل لوحات وتشجيرات لأسانيد ورش وقالون وأغفل أسانيد اسماعيل بن جعفر الأنصاري وأسانيد اسحاق بن محمد بن المسيب مع أن الداني قدم ذكر اسماعيل واسحاق على ورش وقالون. ومع أن المحقق الفاضل وعد بتقديم لوحات لقراءة نافع الواردة في هذا التحقيق حيث قال (ص 91) ، «وتبسيطا لهذا الأمر أقدم في لوحات متتابعة قراءة نافع التي تهمنا في هذا التحقيق الذي أقدمه اليوم ثم اتبعها برواته فالطرق التي تشجرت عنهم، وفي الصفحة التي تليها كتب تحت عنوان ، البدور والرواة والطرق الأولى ، نافع 1، قالون 2، ورش 3.

وعندما انتهى من تشجيرات قالون وورش التفصيلية اشار إلى إسماعيل وإسحاق ضمن جدول الخلاصة في ص 164 تحت عنوان أصحاب نافع والرواة الذين رووا عنه ذكرهما مع قالون وورش. فهل هما عنده من

غير البدور والرواة والطرق الأولى حتى أهمل التشجير لمن روى عنهما أو قرأ عليهما. والترجمة لهم ؟

5 ص 170

محمد بن أحمد شيخ الداني اسمه الكامل : أبو مسلم محمد بن أحمد بن علي البغدادي الكاتب وهذا يعني أن على المحقق الفاضل الذي اختار وضع اصطلاح لكل علم أن يضع له اصطلاحا واحدا. أما أن يكون اصطلاحه في ص 170 ، ماعب. لأن الداني ذكره هنا باسم ، محمد بن أحمد بن علي البغدادي وفي ص 175 يكون الاصطلاح ، ماك. لأن اسمه ورد هكذا ، محمد بن أحمد الكاتب. وفي ص 181 يصبح الاصطلاح ، أما. لأن الداني ذكره هكذا ، أبو مسلم محمد بن أحمد البغدادي. فهو أمر غريب حقا.

6) ص 170

دأب المؤلف على عمل جداول للروايات، وجعلها فروعا، بل إنه أدخل التفريع في المتن من غير أن ينبه عليه بمعقوفتين كما ذكرنا. وهذا التفريع في النفس منه شيء. فالداني استخدم كلمتين الأولى حدثنا. والثانية قرأت بها. وقد التزم بذلك في الروايات التي أوردها في كتابه جميعا إلا في رواية ابن فرح الواردة هنا. ففي أسانيد رواية اسماعيل قال ، حدثنا محمد بن أحمد بن علي البغدادي، وذكر الإسناد ص 167 الذي فيه ابن مجاهد - أبو الزعراء - الدوري - إسماعيل - نافع، وقال ، وقرأت بها القرآن كله على شيخنا فارس بن أحمد ص 168 وذكر إسناده. وفي أسانيد رواية المسيبي قال ، فأما رواية ابنه محمد فحدثنا بها محمد بن أحمد ص 172 وذكر الإسناد ثم قال ، وقرأت بها القرآن كله على فارس بن أحمد ص 172 وذكر إسناده.

قال وأما رواية محمد بن سعدان فحدثنا بها عبد العزيز بن جعفر ص 173 وذكر الإسناد ثم قال ، وقرأت بها القرآن كله على أبي الفتح الضرير ص 174 وذكر الإسناد. وفي أسانيد رواية قالون قال ، فأما رواية أبي نشيط فحدثنا بها أبو محمد عبد الله بن محمد ص 177 وذكر الإسناد ثم قال ، وقرأت بها القرآن كله على أحمد بن فارس ص 177 وذكر الإسناد.

وهكذا صنع في الروايات جميعا يبدأ الرواية بحدثنا ويذكر إسنادها، ثم ينتقل إلى قوله قرأت بها على فلان ويذكر الإسناد. إلا رواية ابن فرح فقد بدأها بقوله ، وأما رواية ابن فرح فإني قرأت بها القرآن كله على فارس ابن أحمد وهي ظاهرة تلفت النظر. كان ينبغي أن ينبه المحقق إليها. وهل يمكن أن يقال إن الرواية سقطت من نسخة الرباط وبقيت القراءة. أما أنا فأجدني ميالا إلى ذلك لأن المنهج الذي التزم به الداني في ذكر الرواية ثم القراءة لكل الأسانيد يفرض علينا ذلك. ومن هنا نقول أيضا إن التفريع الذي صنعه المحقق لم يكن موفقا. فالرواية واحدة في الإسناد يتبعها التطبيق العملي لها بقراءتها على الشيخ الذي أخذها بالتطبيق العملي عن شيخه وهكذا... وقد أكد الداني ذلك في آخر الكتاب ص 340 حيث قال ، فهذا جميع ما اختلفوا فيه عن نافع من الطرق المذكورة على حسب قراءتي وروايتي.م فهما إذن قراءة ورواية.

فقوله قرأت بها توثيق تطبيقي للقراءة التي حدث بها رواية. وبهذا تستقيم عبارة الداني حين قال في ص 160 بعد أن ذكر أصحاب نافع الأربعة ، وأذكر عن كل واحد منهم روايتين إلا عن ورش وقالون فإني أذكر عنهما ثلاث روايات. فيشتمل الكتاب على عشر روايات عنهم عن

نافع)، ولو عددنا الروايات المبدوءة بحدثنا فسوف نجدها تسع روايات، بسبب سقوط الرواية عن ابن فرح. أما التطبيق العملي المبدوء بقرأت فقد بلغ اثني عشر موضعا وكانت القراءة في أحد عشر موضعا منها على شيخه فارس بن أحمد، وفي موضع واحد على شيخه خلف بن ابراهيم، وهي القراءة برواية أبي يعقوب عن ورش في ص 185 حيث قال : (فأما رواية أبي يعقوب فحدثنا بها أبو الحسن طاهر بن غلبون... وذكر الإسناد، ثم قال : وقرأت بها القرآن كله على شيخنا خلف بن ابراهيم... وذكر الإسناد.

7) قال في ص 172 :

وقال قرأت بها على أحمد بن محمد المروزي (22) ببغداد...

فقال المحقق في الحاشية (22) : لا أدري أي مروزي هذا الذي قرأ عليه عبد الباقي بن الحسين (الصواب : بن الحسن) أمحمد بن اسحاق بن ابراهيم بن عثمان بن عبد الله المروزي، الذي أخذ اختيار خلف عرضا عن أبيه أم أبوه اسحاق بن ابراهيم ؟ لأن البلبلة كبيرة في كتب التراجم، والإمام الداني غير فصيح في هذا الباب.

أقول : يا سبحان الله ! هذا أمر عجيب، كيف لا يكون الداني فصيحا وقد نقل عن عبد الباقي بن الحسن قوله : وقرأت بها على أحمد بن محمد، وكيف يختلط أحمد بن محمد بمحمد بن اسحاق أو باسحاق بن ابراهيم. أين هذا من هذين يا سيدي ؟ وإذا كان المحقق الفاضل قد امسك باللقب (المروزي) ونسي الاسم فما ذنب الإمام الداني حتى يقال عنه إنه غير فصيح في هذا الباب ؟

لقد كان شيئا حسنا لو أن المحقق الفاضل وقف في كتب التراجم عند الشيوخ وشيوخهم، على من قرأ هذا ومن أقرأ، وعلى من قرأ ذاك ومن

أقرأ. وإذن لاستطاع أن يثبت لنا الذي قرأ عليه عبد الباقي بن الحسن وهو أحمد بن محمد. بعد أن يصحح لنا لقبه، فهو كما جاء في غاية النهاية بضبط ج. برجستراسر، المروروذي لا المروزي قال في غاية النهاية ج 1 ص 107 و 108 الترجمة رقم 495 ،

(أحمد بن محمد بن بشر بن علي بن محمد بن جعفر المعروف بابن الشارب أبو بكر الخراساني المروروذي... نزيل بغداد. قرأ على... وأبي بكر محمد بن يونس... قرأ عليه... وعبد الباقي بن الحسن).

والإسناد الذي في هذه الصفحة من كتاب التعريف يروي فيه عبد الباقي بن الحسن عن أحمد بن محمد ويروي أحمد بن محمد عن أبي بكر محمد بن يونس.

8) ص 172 ،

قال ، وقال ، قرأت بها على أبي بكر محمد بن يونس المقرئ (23) وقال...

فقال المحقق الفاضل في الحاشية 23 ، هناك قارئان بهذا الإسم. أولهما. أبو بكر الاسكاف الدمشقي... وثانيهما... أبو بكر الحضرمي البغدادي... وترك الأمر هكذا من غير أن يقطع أو يرجح.

أقول ، مهمة المحقق أن يرجح أحدهما أو أن يقطع به بالنظر في أسماء شيوخ أحمد بن محمد المروروذي أو المكان الذي يغلب على الظن أنه التقى أحدهما فيه والنظر في كتب التراجم يزيل اللبس.

فقد ذكر ابن الجزري في غاية النهاية محمد بن يونس الاسكاف الدمشقي في ج 2 ص 289 في الترجمة رقم 3569 وقال ، توفي سنة أربعمائة بدمشق لا أدري على من قرأ.

وذكر محمد بن يونس الحضرمي البغدادي في ج 2 ص 289 ـ 290 في الترجمة رقم ▬▬ وقال، روى القراءة عرضا وسماعا عن اسماعيل بن يحيى بن عبد ربه.. روى القراءة عنه. وأحمد بن محمد بن بشر المروروذي.

والإسناد الذي أورده الإمام الداني في التعريف فيه محمد بن يونس وقد قرأ عليه أحمد بن محمد وقرأ هو على اسماعيل بن يحيى ابن عبد ربه. فهل يصح مع هذا أن يقول المحقق الفاضل ما قال ؟ وهل هناك مجال للبس أو عدم الترجيح ؟

9) ص 173

قال : .. قال حدثنا أبو طاهر بن أبي هاشم قال ، حدثنا محمد بن عيسى (24).. فقال المحقق في الحاشية (24) : هو محمد بن عيسى بن ابراهيم.. راجيا أن اكون غير واهم.. توفي سنة 253 هـ أو 242 هـ..

أقول ، هذا الشك يثبت أو يزول بمعرفة مولد أبي طاهر. أو معرفة سنه عند وفاته. وقد ذكر المحقق الفاضل أنه توفي سنة 349 هـ كما جاء في ص 191. أي بين وفاة كل منهما ستة وتسعون عاما أو مائة وسبعة أعوام على الرأيين في سنة وفاة ابن عيسى.

فإذا علمنا أن أبا طاهر قد توفي وقد جاوز السبعين كما ذكر في غاية النهاية ج 1 ص 477 أي هو لم يبلغ الثمانين. كان من المحال أن يدرك أبو طاهر محمدا هذا.

ولذا فإن على المحقق الفاضل أن يبحث لأبي طاهر عن شيخ آخرغير الذي ترجم له. بعد أن يتثبت من الإسم بالنظر في نسخة تطوان فلعله محمد بن يحيى مثلا !!

10) ص 173 :

قال : .. قال حدثنا أبو طاهر بن أبي هاشم قال : حدثنا محمد بن عيسى (24) وقال حدثنا عبيد بن محمد المروزي (25) وقال...

أقول : ذكرت هذا الموضع لأنبه على أمر في منهج المحقق الفاضل في التراجم. فقد ورد ذكر أبي طاهر هنا فلم يترجم له. وإنما ترجم له بعد ذلك عندما تكرر في ص 191. وعندما ترجم لمحمد بن عيسى ترجم له على شك كما قدمنا. أما عبيد بن محمد فقد نقل ترجمته من طبقات القراء لابن الجزري هكذا (غاية ما جاء عنه في طبقات القراء لابن الجزري : هو عبيد بن محمد المروزي ثم البغدادي المكتب روى القراءة عن محمد بن سعدان. روى القراءة عنه). وقطع النص من غير إشارة إلى جزء أو صفحة. وتمامه : روى القراءة عنه عبد الواحد بن عمر ونسبه وكناه) غاية النهاية في طبقات القراء ج 1 ص 497 الترجمة 2067.

وهكذا فهو تارة يترجم وتارة لا يترجم وتارة يرجئ الترجمة إلى موضع قادم. وقد يذكر الجزء والصفحة ورقم الترجمة من الكتاب الذي يأخذ عنه وقد يكتفي بذكر اسم الكتاب من غير جزء أو صفحة... وهكذا.

11 ص 175 :

في جدول رواية محمد بن سعدان أخطأ في اسم أبي طاهر حيث كتب : أبو طاهر بن هاشم ولذا جعل اصطلاحه : أط وعندما كتبه بصورة صحيحة في ص 193 (أبو طاهر بن أبي هاشم) صار اصطلاحه : أطا !

كذلك بدأ الفرع الثاني بأبي الفتح الضرير وجعل اصطلاحه ، أض بناء على أن الداني قال في الصفحة السابقة وقرأت بها القرآن كله على أبي الفتح الضرير المقرئ. وفاته أن أبا الفتح هنا هو فارس بن أحمد شيخ الداني الذي جعل اصطلاحه فا في غير هذا الموضع سواء قال قرأت على فارس بن أحمد كما في الجدول الثاني في الصفحة نفسها أو قال قرأت على أبي الفتح من غير كلمة الضرير كما في الجدول الثالث ص 181.

12) ص 178 ،

الجدول الثاني يصحح على وفق ما أوردناه من اختلاف صورة المخطوط عن المنشور تحت رقم 13.

13) ص 183

الجدول الأول يصحح على وفق ما أوردناه من اختلاف المخطوط عن المنشور تحت رقم 17 ومما ورد هناك من تصحيح ينبغي أن يعمل المحقق جدولا ثانيا فيه محمد بن أحمد ـ ابن مجاهد ـ اسماعيل القاضي ـ قالون ويكون الجدول الثاني على هذا ثالثا.

14) ص 185 ،

ورد ، جعفر بن احمدان بن خاقان. وقال في الحاشية 30 ، هو أستاذ ضابط... توفي بمصر سنة 402 كما سبق أن قلنا. ولم يذكر أين قال هذا وقد لفت نظرنا اسم أحمدان فبحثنا عن الموضع الذي ذكره فيه فوجدناه في ص 8 وهناك حمدان من غير همزة في أوله. ولا ندري أهي مزيدة هنا من الناسخ أم المحقق أم هي زيادة من المطبعة ؟

15) ص 188

قال : فأما رواية عبد الصمد فحدثنا بها أحمد بن عمر القاضي الجيزي قراءة مني عليه في الجامع العتيق بمصر (41).

وقال المحقق في الحاشية 41) هكذا في النسخة المخطوطة التي بين أيدينا أما الصواب فهو أحمد بن محمد بن عمر بن محمد بن محفوظ أبو عبد الله المصري الجيزي القاضي، وأعتقد أن ما ذكره الإمام الداني في التيسير وهو بصدد عرض إسناد قراءة نافع هو أصح مما قاله هنا في التعريف، لقد قال في صدر التيسير صفحة 10 فحدثنا أبو عبد الله أحمد بن محفوظ القاضي وهو ما يقارب كثيرا ما سميته صوابا.

أقول : أولا كان ينبغي أن يقارن بنسخة تطوان ليتأكد من نسبة الخطأ إلى المؤلف أو الناسخ.

ثانيا : ما دام لم يقارن فليس له أن ينسب الخطأ إلى الداني على سبيل الجزم بقوله : إن ما ذكره في التيسير هو أصح مما قاله هنا فمن أدراك أنه قال هذا هنا ولم لا يكون ذلك خطأ من الناسخ ؟

ثالثا : لا يتصور أن يخطئ العالم في اسم شيخه الذي قرأ عليه ولذا كان على المحقق الفاضل أن يرجح أن الأمر خطأ من الناسخ ويصحح المتن على وفق ما ثبتت عنده صحته.

رابعا : قوله يقارب كثيرا ما سميته صوابا. غريب إذ ليس في تحقيق الأعلام ما يقارب فإما أن يكون العلم هو هو أو لا والعلم هنا هو هو مادام في هذا الإسناد سواء أقال حدثنا أحمد بن محفوظ أو أحمد بن محمد بن محفوظ أو أبو عبد الله أحمد أو أبو عبد الله بن محفوظ. ألم يقل في شيخه فارس بن أحمد تارة قرأت على فارس بن أحمد وأخرى قرأت على أبي الفتح وأخرى قرأت على أبي الفتح الضرير.. وهكذا. وما

توهم المحقق في اصطلاح محمد بن أحمد البغدادي شيخ الداني وجعله إياه ثلاثة عنا ببعيد وما ذلك إلا بسبب الزيادة والنقصان في إيراد العلم.

16) ص 191، 192 :

رواية أبي بكر الاصبهاني فيها اضطراب ظاهر لا سيما بعد أن اقحم المحقق الفاضل في النص التفريع والفرع الإضافي، وكذلك الجداول في ص 193 فيها اضطراب. فالرواية التي أطلق عليها المحقق الفرع الأول تنتهي بالإصبهاني وهو محمد بن عبد الرحيم عن أصحابه عن ورش وجاء الجدول الأول مسقطا كلمة عن أصحابه ووصل الاصبهاني بورش. ترى من هم أصحاب الاصبهاني هؤلاء ؟ أيمكن أن يكون الفرع الإضافي الذي أورده المحقق مقحما في الرواية بفرعها الثاني. ويكون أصحابه مواس بن سهل ويونس بن عبد الأعلى وداود ابن أبي طيبة ؟ قد يكون هذا. وقد يكون الناسخ أسقط شيئا لا نستطيع أن نقطع فالمحقق الفاضل لم يترجم لمواس بن سهل الذي قرأ على يونس بن عبد الأعلى الذي ذكر لنا ولادته في سنة 170 هـ ولم يذكر لنا سنة وفاته (توفي سنة 264 هـ) وقرأ مواس أيضا على داود بن أبي طيبة الذي قرأ على ورش ولم يذكر لنا المحقق سنة وفاة داود (توفي سنة 223) فأوقعنا في حيرة فورش توفي سنة 197 هـ والاصبهاني توفي سنة 296 هـ أي بين وفاة الرجلين تسعة وتسعون عاما. فكم عُمّر الاصبهاني ؟ أكان أخذه عن ورش مباشرة أم بوساطة أصحابه كما ورد في الرواية الأولى. وأما رواية الاصبهاني فأخبرني عبد العزيز بن أبي الفضل الفارسي (لم يخبرنا المحقق من هو ؟) أن أبا طاهر بن أبي هاشم حدثهم قال، حدثنا محمد بن أحمد بن محمد قال حدثنا محمد بن عبد الرحيم (الاصبهاني) عن أصحابه عن ورش عن نافع.

أما القراءة فهذه هي بعد طرح تفريعات المحقق الفاضل ، وقرأت بها القرآن كله على فارس بن أحمد وقال لي قرأت بها على عبد الباقي بن الحسين قال قرأت بها على أبي عبد الله ابراهيم بن عبد العزيز الفارسي وقال قرأت القرآن كله على أبي بكر بن عبد الرحيم (الاصبهاني) وأخبرني أنه قرأ على جماعة منهم مواس بن سهل وقرأ مواس على يونس بن عبد الأعلى وعلى داود بن أبي طيبة وقال (الصواب ، وقالا) على ورش وقال ورش على نافع.

ترى أسقط تمام السند بين كلمة أبي بكر بن عبد الرحيم وأخبرني أنه.. الخ أم أن السند متصل ويكون المتحدث ابراهيم الفارسي والمخبر الاصبهاني ؟ هذا ما كان على المحقق الفاضل أن يفتي فيه بناء على ما بين يديه من كتب التراجم، لا أن يقحم كلمة ، الفرع الإضافي من الرواية في هذا الموضع، ويعمل جدولا يظهر فيه يونس بن عبد الأعلى آخذا عن داود بن أبي طيبة وهو سهو ظاهر، لأن مواسا قرأ على كل من يونس وداود كما هو واضح في النص، ويجعل فاعل أخبرني فارس بن أحمد من غير دليل مع أنه توفي سنة 402 هـ ومواس الذي لم يذكر سنة وفاته وزعم المحقق أن فارس بن أحمد قد قرأ عليه كما في الجدول الثالث مواس هنا قرأ على يونس المولود سنة 170 هـ !

إن على المحقق الفاضل أن يحذف تفريعاته من النص، ولا سيما كلمة الفرع الإضافي في الرواية، ويعيد ترتيب جداوله في ضوء ما يأتي :

محمد بن عبد الرحيم الاصبهاني أخذ القراءة عن مواس بن سهل، ومواس أخذها عن كل من يونس بن عبد الأعلى، وداود بن أبي طيبة.

قال في غاية النهاية ج 2 ص 316 وهو يترجم لمواس بن سهل :
أخذ القراءة عرضا عن يونس بن عبد الأعلى، وداود بن أبي طيبة، روى القراءة عنه عرضا... ومحمد بن عبد الرحيم الاصبهاني...

وقال وهو يترجم للاصبهاني ج 2 ص 169 :
أخذ قراءة ورش عرضا عن أبي الربيع... وعبد الرحمن... ومواس بن سهل...

17) ص 200 :
قال : كان اسماعيل والمسيب وقالون يخيرون بين ضم ميم الجمع (57) وبين اسكانها في جميع القرآن.

وكتب المحقق الفاضل حاشية يوضح فيها المقصود بميم الجمع وكأنها مما يشكل على شداة المتعلمين بله قراء أمثال هذا الكتاب، وأبى إلا أن يزيد الأمر إيضاحا فقال : وأرجو أن يخرج القارئ الكريم الميم الأصلية كالتي توجد في تكلّم ويعلم.

فهذا الإمام الداني يقول ميم الجمع، والمحقق الفاضل يخشى من أن تلتبس علينا بنحو ميم تكلم ويعلم، ولا أدري لم فاته أن يحذر من ميم أم ولم ؟

18) ص 204 :
قال : وعند الفواصل ونحو قوله : (إن كنتم تعلمون) 68 و (بارئكم) (69) فاقتلوا) (70) وشبهه.

أقول : الواو في ونحو لا موضع لها، كان ينبغي عدم اثباتها إن وردت في المخطوط.

في الحاشية (68) ذكر المواضع التي وردت فيها كلمة إن كنتم تعلمون، ومنها السورة 16 النمل والصواب : النحل بالحاء. والسورة 32 المؤمنون. والصواب السورة 23.

في الحاشية (70) قال : في النسخة التي عدت إليها (باربكم فاسمعون) ولا معنى له.

أقول : ما كان له أن يسقط الكلمة بدعوى أنها لا معنى لها. بل ينبغي أن يحسن الظن بالمؤلف ويلتمس العذر للناسخ في خطئه، ويفتش عن الصواب الذي لا يستدعي أكثر من حذف الألف التي أقحمها الناسخ - إن كانت هكذا في المخطوط ! - بين الباء والراء. فيكون الصواب : (بربكم فاسمعون) وهي من الآية 25 من سورة يس : (إني آمنت بربكم فاسمعون...)

19) ص 209 :

قال : (اوتمن) (79) و (يا صالح اتينا) (80) و (لقاءنا ايت) (81) و (ياخذ) و (يأكل) و (يامر) و (استأجره) و (إن خير من استأجرت) و (مامنه).

أقول : بعد تصحيح يا صالح اتينا إذ الصواب يا صالح ايتنا. إن على المحقق أن يلتزم منهجا واضحا في الحواشي. أما أن يحيل مرة ولا يحيل أخرى فليس هذا بمنهج صحيح. وهذا نموذج من الإحالات. فهنا تسع كلمات من تسع آيات ذكر في الحاشية الآية والسورة لثلاث فقط وأهمل الباقيات. وهكذا يصنع في الكتاب كله.

20) ص 216

قال الإمام الداني : وروي أيضا عن ورش ترك الهمزة المحركة في نحو قوله تعالى... وذكر ألفاظا اكرمنا المحقق الفاضل بأن جعل كل لفظ

بين قوسين من غير ضبط أو احالة وفيها من الاضطراب ما يشير بوضوح إلى تقصير الناسخ وغيره. قال :

و (رأيته) و (رأيتك) و (رأيته) و (رأيتك) و (رأيته) و (أرأيتموه). وهكذا تكررت رأيته ثلاث مرات. ورأيتك مرتين.

أما أرأيتموه. بهمزة في أوله فليس في كتاب الله تعالى. وإنما الذي فيه (رأيتموه) في الآية 143 من سورة آل عمران.

وأما (رأيته) التي كررها ثلاث مرات. فهي أيضا ليست في كتاب الله تعالى بهذه الصورة. وإنما فيه (الرأيته) في الآية 21 من سورة الحشر. والراجح أنها (رأينه) بالنون. وهي في الآية 31 من سورة يوسف.

وأما (رأيتك) التي كررها ثلاث مرات أيضا. فهي كذلك ليست في كتاب الله تعالى بهذه الصورة. والذي فيه ، (أرأيتك) في الآية 62 من سورة الإسراء.

ولست أدري أين كانت نسخة تطوان ؟

21) ص 218 ،

قال ، روي أيضا عن ورش تحقيق الهمزة في ليلا ومؤذن حيث وقعا تفرد بها إذن كله عن ورش.

أقـــول ،

أولا ، كلمة بها اذن كله قلقة في هذا الموضع وبها حاجة إلى أن تقارن بنسخة تطوان وتصحح.

ثانيا ، قوله تحقيق الهمزة. بالقاف. في النفس منه شيء. فقد قال الداني في ص 304 عند الكلام على ما في سورة يوسف ،

قد ذكرت رأيت، ورأيتهم، ورأيته (في المطبوع رأيته بالتاء وهو خطأ)، ورءياك، والرءيا ومؤذن في الهمز قبل هذا.

وهو يشير إلى هذا الموضع، وقد ذكر في الموضع الذي نقلت منه النص آنفا أنه روي عن ورش ترك الهمزة المحركة في نحو قوله تعالى، كأنه... الخ فالكلام على ترك الهمزة وليس على إثباتها.

ولذا فلعل الأصوب أن تكتب، تخفيف الهمزة بدل تحقيق الهمزة والله أعلم.

22) ص 219

قال، وأجمعوا عن نافع على ترك الهمزة في قوله، (بعذاب بيس) (123) في الأعراف.

فذكر المحقق الآية في الحاشية 123 من غير ذكر لرقمها وهي الآية 165 ثم قال، وأما قوله، وأجمعوا عن نافع على ترك الهمزة في قوله (بعذاب بئيس) فغير صحيح ذلك أن أبا قرة روى عن نافع (بئيس) على وزن فعيل مهموز.

ولتقريب ذلك إلى الأذهان قدم أسفله جدولا بقراءة هذه اللفظة، وصل جدولا فيه، الوزن، من قرأ بها، بيان ذلك. وكتب تحت كلمة الوزن، فعيل وتحتها فعل وتحتها فعل وتحتها فعل وتحتها فيعل وكل ذلك من غير ضبط.

أقول، ما ذكره الإمام الداني من أنهم أجمعوا على ترك الهمزة... الخ صحيح، لا كما توهم المحقق الفاضل فقد ذكر الداني في أول كتابه أنه يورد فيه الاختلاف بين أصحاب نافع وهم أربعة اسماعيل والمسيب وقالون وورش، وذكر عنهم عشر روايات، وليس فيهم جميعا ذكر لأبي قرة

الذي اتكأ عليه المحقق في تخطئة الداني، فهو عندما يقول، أجمعوا إنما يعني هؤلاء الأربعة بالروايات العشر. ثم ألم يكن الأولى أن يذكر لنا المصدر الذي أخذ منه رواية أبي قرة وهل يجوز أن يقول هاهنا خطأ لأن فلانا قال كذا. من غير أن يذكر لنا أين قال هذا، ثم هذا التقريب الذي شق على نفسه به أيمكن أن يكون تقريبا من غير ضبط وكيف رضي أن يضع تحت كلمة الوزن لفظ فعل مكررا ثلاث مرات من غير ضبط ؟ هذا على أن الكتاب كله وهو في القراءات جاء خاليا من الضبط في متنه وحواشيه مما يخل إخلالا كبيرا بالقيمة العلمية لتحقيقه.

23) ص 219 ـ 220 :

قال الإمام الداني، وأجمعوا عن نافع على ترك الهمزة في قوله (بعذاب بئيس) في الأعراف. وكذلك خففت همزة (الذئب) في الثلاثة المواضع في يوسف (125) وكذلك خففت همزة (البئر) في قوله تعالى (وبئر معطلة) في الحج.

فقال المحقق في الحاشية 125، في عبارة الإمام الداني غموض وعدم تفصيل وعلى كل يحسن ألا نأخذها على إطلاقها. إذ أن همزة (الذئب) لم تخفف دائما عند سائر رواة نافع فإذا كان الإمام ورش يروي عنه أنه لا يهمز لفظة (الذئب) في المواضع الثلاثة فإن اسماعيل بن جعفر يقول إن نافعا يهمزه... بل إن نافعا أجاب سائلا يسأله عن (الذئب) و (البئر) قائلا، إن كانت العرب تهمزها فاهمزها. ونحن نعرف أن الحجازيين يهمزون. لكن أبا عمرو حسب ما يرويه عنه عباس بن الفضل لا يهمز كما لا يهمز أبو جعفر وشيبة.

أقول ، لم أر في عبارة الداني هذا الغموض وعدم التفصيل الذي أشار إليه المحقق بل الغموض ولد من فهم المحقق الفاضل للعبارة وعدم النظر فيما قبلها وما بعدها. نعم قال المؤلف واجمعوا عن نافع.. ثم قال وكذلك إلا أن ما بعدها يفسر المراد بها فهو لم يقل وكذلك أجمعوا حتى نعترض عليه ونقول لم تخفف دائما عند سائر رواة نافع. بل الذي قاله وكذلك خففت، فقد مضى الحديث عن التخفيف والفصل كله معقود على تخفيف الهمزة بل يمكن أن يقال من غير تردد إنه معقود على قراءة ورش ما فيه همزة سواء أكانت في موضع الفاء أو العين أو اللام وسواء أكانت متحركة أم ساكنة والغالب على ذلك عنده التخفيف فإذا شاركه في ذلك أحد الثلاثة الرواة نبه الداني إلى ذلك. فقد بدأ الفصل بقوله في ص 209 ، كان ورش يخفف الهمزة الساكنة والمتحركة إذا كانتا فاء في الفعل.. ثم قال في ص 218 ، وقرأ الباقون بتحقيق الهمزة لفاءات الفعل وغيرها في جميع القرآن. ثم قال في ص 219 وخفف ورش همزة عين الفعل.. ثم ذكر إجماعهم عن نافع وعاد إلى حديث التخفيف بقوله ، وكذلك خففت.. الخ ثم قال وهو يختم الفصل بعد أربعة أسطر من النص الذي أوردناه ، وقرأ قالون واسماعيل بتحقيق الهمز في جميع ما تقدم.

لست أدري كيف يمكن أن نفهم أن الداني يريد بقوله وكذلك خففت همزة (الذئب) ان رواة نافع جميعا خففوا ذلك وهو الذي يقول بعد أربعة أسطر ذاكرا الثلاثة الرواة عن نافع ، وتابع المسيب ورشا على ترك الهمز في قوله تعالى (وبئر معطلة) في الحج لا غير. وقرأ قالون واسماعيل بتحقيق الهمز في جميع ما تقدم.

ثم إن الداني عندما انتقل إلى فرش الحروف قال في سورة يوسف ص 304 ، وقرأ ورش وحده (الذيب) بغير همز. وقد ذكر أيضا.

وهو يشير بقوله ، وقد ذكر، إلى هذا الموضع الذي نتكلم عليه. فهل يمكن أن يقال بعد هذا النظر في كلام الداني أنه عندما قال وكذلك خففت. كان يعني وكذلك أجمعوا عن نافع » أما قول المحقق الفاضل ونحن نعرف أن أهل الحجاز يهمزون لكن أبا عمرو حسب ما يرويه عنه عباس بن الفضل لا يهمز كما لا يهمز أبو جعفر وشيبة.

ففيه أمران ،

الأول ، أن التميميين هم الذين يهمزون لا أهل الحجاز فمن أين جاءته هذه المعرفة المخالفة ؟ نعم ذكر أن في أهل الحجاز من يحقق ولكنه خلاف الأصل قال سيبويه ج 2 ، 168 ، وتقول أقرئ باك السلام بلغة أهل الحجاز لأنهم يخففونها. وقال ، ج 2 170 ، وقد بلغنا أن قوما من أهل الحجاز من أهل التحقيق يحققون نبيء وبريئة. وذلك قليل رديء».

الثاني ، قوله لكن أبا عمرو... الخ لست أدري ماالهدف من إقحام أبي عمرو وأبي جعفر وشيبة هنا مع عدم التعريف بهم أو المصدر الذي أخذ منه ذكرهم. ومع أن الداني ألزم نفسه بالأربعة الرواة عن نافع.

24) ص 221 ،

قال ، وتابع المسيب ورشا على ترك الهمز في قوله تعالى (وبئر معطلة) في الحج لا غير. وقرأ قالون وإسماعيل بتحقيق الهمز في جميع ما تقدم (131).

وقال المحقق الفاضل في الحاشية 131 ، بعض الباحثين ومنهم الإمام الداني يعتقدون أن أبا عمرو كان إذا قرأ (البئر) وأمثالها في الصلاة

وأدرج القراءة أو قرأ بالإدغام لم يهمزه. وأرجو أن أنبه إلى أن (الإدراج) هو الإسراع وهو ضد التحقيق وليس معناه الوصل الذي هو ضد الوقف.

وظن بعضهم ومنهم الحافظ أبو العلاء أن لأبي عمرو في هذا الباب مذهبين ، أحدهما التخفيف مع الإظهار والتحقيق مع الإدغام على التعاقب والثاني التخفيف مع الإظهار. انتهت الحاشية.

أقول ، كتبت انتهت الحاشية حتى لا يظن أن هناك كلاما تركناه للاختصار. وهي حاشية من غرائب هذا التحقيق وليس لها موضع هنا فالداني لم يذكر أبا عمرو لا تلميحا ولا تصريحا في هذا الكتاب وليست هناك أية إشارة إلى مسألة الإدراج لا من قريب ولا من بعيد. ولست أدري من أين جاء بالاعتقاد الذي نسبه للداني وبعض الباحثين. وهل يريد أنهم لم يفهموا المصطلح فهو يفسره لنا ولهم ؟ عذر واحد يمكن أن نلتمسه للمحقق في هذا وهو أن تكون الحاشية من عمل المحقق في كتاب آخر واختلطت الأوراق فقفزت هذه هنا. والله أعلم.

25) ص 225 ،

قال ، و (من شيء إذا) (135)

وقال المحقق في الحاشية 135 ، كائنة في قوله تعالى ، (إنما قولنا لشيء إذا اردناه أن نقول له كن فيكون) الآية 40 ـ النحل 16.

أقول الذي في المتن من شيء وليس لشيء إلا أنه ليس في كتاب الله آية على الصورة التي في المتن. ولكن فيه لشيء إذا كما اشار المحقق وفيه من شيء إذ وذلك في سورة الأحقاف الآية 26 (فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله). وأرى أن الناسخ قد يجعل (إذ) (إذا) بسهولة، ولكن ليس من السهل

أن يجعل (من شيء) (الشيء) أو على الأقل زيادة الألف أسهل من تحويل من إلى لام. وما دام الأمر هكذا والمحقق ألزم نفسه بعدم الرجوع إلى نسخة تطوان للمقارنة فالأولى أن نحمل الأمر على زيادة الألف ليكون النص أقرب إلى ما كتبه الداني. وما دام الأمر يتعلق بكتاب الله تعالى فما كان ينبغي أن تقر (من شيء إذا) في المتن بل تصحح ويشار إلى الأصل في الحاشية.

26) ص 235 .

قال : كان ورش يسهل الثانية من الهمزتين المتلاصقتين ولا يدخل بينهما ألفا (160).

فقال المحقق الفاضل في الحاشية رقم 160 : أنا مضطر أن ابدي هنا ملاحظة أكره دائما أن ابدي مثلها. لقد ظهر لي - عفا الله عني - أن الإمام الداني غير واضح في قضية قراءة الهمزتين الملتصقتين عند ورش انه يقول هنا : (كان ورش يسهل الثانية من الهمزتين المتلاصقتين ولا يدخل بينهما ألفا. لكنه يقول في التيسير صفحة 32 (ورش يبدلها - أي الهمزة الثانية - ألفا) ويفهم منه أنه لا يسهلها لأنه يقول في التيسير قبل هذا الكلام.... وعندي أنه يقرأ بالتسهيل مع عدم الإدخال كما يذكر هنا لا كما يظهر في التيسير.

أقول : قوله أنا مضطر... الخ لا أرى ما يدعو إلى هذا الاضطرار لأن المطلوب من المحقق أن يخرج نصا صحيحا مضبوطا وعبارة الداني باعتراف المحقق الفاضل صحيحة هنا فما معنى اقحام رأي المؤلف في التسهيل هنا. لو كان الأمر معكوسا لاحتمل الأمر وكان له وجه أعني لو كان يحقق التسهيل ووقف عند وهم للداني صوابه في كتاب التعريف

لحق له أن يصحح، أما أن يكون الصحيح في الكتاب الذي تحققه ثم تذهب تفتش عن أوهام في كتاب آخر للمؤلف فغير سائغ. هذا على التسليم جدلا بأن ما في التسهيل مخالف لما في التعريف، فالتسهيل ليس تحت يدي والتقول ليس الحكم الفصل في مثل هذه الأمور لأنها غالبا لا تكون تامة وافية، وقد اعتدنا أن نرى فيها كل عجيب.

27) ص 246 :

في الحاشية 100 قال : في رواية عبد الصمد فرعان... والفرع الثاني وصله عن أحمد بن عمر بن أحمد الجيزي.

أقول نسي المحقق الفاضل أنه في الحاشية 41 في صفحة 188 قد رفض هذا الإسم وقال هناك... أما الصواب فهو أحمد بن محمد ابن عمر بن محمد بن محفوظ. فما هذا مما بدا ؟

28) ص 247 :

قال :

« بايمن، و مأيمن» و (لا يلاف قريش) و (ايلافهم)...

أقول : قوله بايمن وأيمن ليس من كتاب الله بل فيه (الايمن) في ثلاثة مواضع ولذا كان على المحقق أن يتثبت من هذين اللفظين من النسخة الثانية، فإن اتفقت مع نسخة الرباط أخرجهما من بين القوسين لدفع توهمهما من الآيات أو فتش عن بديل قريب في الرسم، كأن يكون (بأيمانهم) الآية 12 من سورة الحديد و (أيمان) الآية 108 من سورة المائدة.

29) ص 251 :

قال : اختلفوا في الدال (181) من (قد) عند أربعة أحرف لا غير وهي الضاد والظاء والذال والثاء

فقال المحقق في الحاشية 181 ، معنى هذا أن قالون يظهر دال قد عند الحرفين الضاد والظاء كما يظهر مع ورش طبعا في الصاد والزاي والسين والذال والجيم والشين.

أقول ، وهذه الحاشية لا علاقة لها بالمتن ولا سيما وقد بدأ بقوله ومعنى هذا وكأنه يفسر شيئا على أن قالون لم يرد له ذكر في هذا الموضع. وعلى أن الكلام على الدال مع أربعة أحرف فزادها في الحاشية حتى كانت ثمانية !

30) ص 252 ،

قال ، و (لقد تركن) وشبهه

أقول ، ليس في كتاب الله تعالى (لقد تركن) بل الذي فيه (ولقد تركنا) في الآية 35 من سورة العنكبوت.

31) ص 253 في الحاشية 192 ،

قال ، ومعلوم أن تاء التأنيث اللاحقة للفعل الماضي تظهر عند كل من ورش وقالون عند خمسة أحرف هي الجيم في مثل قوله ، (نضجت جلودهم).. الخ.

أقول ، هذا التعليق يوهم أنها لا تظهر عندهما مع غير هذه الخمسة الأحرف وليس ذلك كذلك ولم يقل به أحد. والصواب أن يقال ، إن من القراء من ادغمها في هذه الأحرف وهي مظهرة معها عند ورش وقالون.

32) ص 255 ،

قال ، واختلفوا في الذال عند التاء وذلك في موضعين في غافر والدخان عوذي عذت).

أقول : ينبغي حذف الواو من (واني..) لأنها لا توجد في غافر كي يستقيم التمثيل للسورتين.

33) ص 261 :

قال : .. و (النصارى) و (ترى) 216 و (يتوارى) وشبهه.

وفي الحاشية 216 قال المحقق : هناك لفظة لم أتمكن من قراءتها.
أقول : وأين كانت نسخة تطوان ؟!

34) ص 261 :

قال : ... الا قوله في (والنازعات) : (من ذكرها).

أقول : الصواب (من ذكراها) لأن الكلام على إمالة الألف وقد الزم نفسه بإظهار مثل هذه الألف في الخط في الكتاب كله.

35) ص 262 :

قال : وأقرأني أبو الحسن في الروايتين عن قالون حرف (هار) في التوبة بالإمالة الخالصة.

أقول : لعل الأصل (جرف هار) وهي الآية 109 من سورة التوبة. ونسخة تطوان تعين على تثبيت ما أراده الداني.

36) ص 262 :

قال : و (مازاغ) و (حاق) و (خاق)...
أقول : ليس في كتاب الله تعالى خاق بالقاف غلطها في الأصل خاف بالفاء.

37) ص 263 .

قال . و (المدبرات) و (الذكر) و (السحر)

أقول . ليس في كتاب الله تعالى السحر. فلعلها في الأصل السحر بالحاء.

38) ص 263 .

قال . و (قديرا) و (طيرا) ولا خيرا.

أقول . الصواب و (خيرا).

39) ص 263 .

قال . و (عمران) و (ارمنات) العادء

أقول . الصواب و عارمنات الصاد) إذا وافقنا رسمها وإلا ف . (إرم ذات العماد).

40) ص 264 .

قال . واقرأني ابن خاقان وغيره في مذهبه تفخيمها مع الهاء نحو (الطلاق) و (مطلع) و (معطلة) وشبهه.

أقول . الصواب مع الطاء لا الهاء والأمثلة تدل على ذلك لأن الكلام على تفخيم اللام.

41) ص 264 .

قال . بترقيق اللام مع الثلاثة أحرف حيث وقعت.

أقول . الصواب . مع الثلاثة الأحرف حيث وقعت.

42) ص 269 .

قال . وقرأ ورش واسماعيل في رواية أبي الزعراء والمسيب في رواية ابنه بضم الهاء بين (هو) وضمها من (هي) مع الواو والفاء واللام

وثم. نحو قوله تعالى (وهو على كل شيء قدير) و (فهو) و (ثم هو) و (هي) و (أهي) و (فهي).

وقرأ الباقون بإسكان الهاء في المذكر والمؤنث.

أقول : قوله : بضم الهاء بين (هو) خطأً صوابه بضم الهاء من (هو). وكذلك قوله و (ثم هو) و (هي) خطأً، صوابه و (ثم هو) و (وهي) لأن الكلام على (هي) مع الواو.

أما قوله ضمها من (هي) مع الواو... الخ فالظاهر أنه خطأً من الناسخ تبعه فيه المحقق من غير أن يفيد من نسخة تطوان. والصواب وكسرها من (هي)... لأن هاء هو قرئت بالضم وبالإسكان مع ما ذكر وهاء هي قرئت بالكسر وبالإسكان مع ما ذكر وليس بالضم وبالإسكان.

43) ص 270 :

قال : و (قردة خاسئين) و (من غل ومن ماء غير آسن).

أقول الصواب و (من غل) و (من ماء غير آسن) فهما من آيتين وليسا آية واحدة كما يوهم تقويسه.

44) ص 270 :

قال : وقرأ الباقون بالإظهار...(223)

وقال في الحاشية 223 : بعد هذا جملة من ستة ألفاظ لم أفهم مقصده منها، ولعلها من تحريف الناسخ...

أقول : أهكذا يكون التحقيق ؟ وأين كانت عنك نسخة تطوان ؟

45) ص 271 .

قال ، وقرأ ورش والحلواني والقاضي عن قالون (فقد ضل) بالإدغام. وقد ذكر أيضا (227).

وقرأ المسيب من رواية ابن سعدان بوصل هاء عليه في اللفظ في جميع القرآن.

وقرأ الباقون بإخلاص كسرتها. وقد ذكرت أيضا في الهمز (228) وقرأ ورش وإسماعيل بضم الياء من (البيوت) و (بيوتكم) و (بيوتا) في جميع القرآن.

وقرأ قالون والمسيب بكسرها وقد ذكرت ، (ءايات الله هزؤا) أقول ، ههنا أمور :

1) قال في الحاشية 228 ، أنظر الفصول المتعلقة بالهمز :

ولم يذكر أين ورد هذا الكلام في فصول الهمز مع أن الكلام على وصل هاء عليه فما علاقة ذلك بالهمز ؟ لا يبعد أن يكون هناك خطأ في النسخ أو سقط. كان يمكن أن يتدارك بالرجوع إلى نسخة تطوان. وإلا فلا أقل من الإشارة إلى ذلك. ثم كيف رضي مثل هذه الإشارة العامة ، أنظر الفصول... الخ وهو الذي حدد على وجه الدقة مواضع قول المؤلف (وقد ذكر) كما فعل في الحاشيتين قبل هذه أعني الحاشية رقم 226 حيث قال أنظر الحواشي 146 و 147... والحاشية رقم 227 حيث قال ، أنظر الحاشية رقم 183.

2) قوله بضم الياء في (البيوت)... الخ خطأ صوابه (الباء) الموحدة إذ من القراء من ضمها ومنهم من كسرها. وليس الخلاف في الياء المثناة

3) في كتابة السطور والتنقيط خلل ظاهر بحيث أدى إلى اضطراب المعنى فلا مكان للنقطة بعد قوله، في جميع القرآن. ولا معنى لبداية السطر بقوله، وقرأ قالون بل الكلام متصل بما قبله. وحق النقطة أن توضع بعد قوله، بكسرها. ويبدأ السطر بقوله وقد ذكرت... الخ من غير حاجة للتقطيع، وتكون الكتابة الصحيحة هكذا،

وقرأ ورش واسماعيل بضم الباء من (البيوت) و (بيوتكم) و (بيوتا) في جميع القرآن. وقرأ قالون والمسيبي بكسرها.

وقد ذكرت (آيات الله هزؤا) فيما تقدم.

46) ص 272،

قال، وقرأ اسماعيل وحده بإثبات الياء في الأصل في قوله، (واتقون يا أولي الالباب).

أقول، لعل الصواب بإثبات الياء في الوصل. أي في غير الوقف ولا معنى للأصل هنا.

47) ص 272،

قال، وقرأ اسماعيل وورش بإثبات الياء في (إذا دعان) خاصة.

وقرأ اسماعيل وحده بإثبات الياء في الأصل (في الوصل) في قوله، واتقون يا أولي الالباب).

وقرأ قالون والمسيبي بحذف الياء في الثلاثة المواضع (239) في العالمين. فقال المحقق الفاضل في الحاشية 239، لا أعرف المواضع الثلاثة التي يقصدها بالضبط. أو على الأقل لا أعرف الموضعين الآخرين لأن ما بقي في القرآن الكريم أربعة غير هذه بقي في البقرة الآية 41... وفي النحل الآية 2 2... وفي المؤمنون الآية 52.

أقول :

1) قال أربعة غير هذه وذكر ثلاثة ونسي الرابعة وهي في سورة الزمر الآية 16 : (ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون).

2) قوله لا أعرف المواضع... الخ فيه نظر، لأن الكلام على حروف سورة البقرة وهو هنا يتحدث عن اثبات الياء وحذفها. وقد ذكر إثباتها في (إذا دعان) وقد وردت مرة واحدة في البقرة. وفي (اتقون) وقد وردت مرتين فيها. فهذه ثلاثة. هذا مذهب. والثاني أن يكون هناك سقط كان ينبغي أن يتثبت منه من نسخة تطوان. والمذهب الثاني أعني القول بالسقط أحب إلي لكثرة ما أسقط الناسخ والمحقق كما مر. ويكون الكلام فيه على لفظ (الداع) و (دعان) و (اتقون). وقد نص على إثبات الياء في الداع أبو زرعة في حجة القراءات ص 126 حيث قال : (قرأ اسماعيل وورش عن نافع، وأبو عمرو : (دعوة الداعي إذا دعاني. بالياء في الوصل، والحلواني دخل معهم في الثاني).

48) ص 280 :

قال : إثبات الياء في الوصل في قوله تعالى : (ومن اتبعان، وقل) أقول الصواب : (ومن اتبعن وقل) وهي الآية 20 من سورة آل عمران كما ذكر.

49) ص 286 :

قال : وقد ذكرت (حملت ظهورهما) و (حرمت ظهورهما) و (فضل ربكم) وغير ذلك من الأصول.

وقرأت على غيره بالإسكان وبه آخذ وبذلك قرأ الباقون.

أقول : قوله وقرأت على غيره.. الخ لا علاقة له بما قبله ولا بما بعده، مما يدل على وجود سقط في النسخ. اما من الناسخ فكان ينبغي تداركه بالمقارنة مع نسخة تطوان. واما من المحقق الفاضل فلا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

50) ص 292 :

قال : وقد ذكرت (الآن وقد خفف الله عنكم) (289) و بالله التوفيق.

فقال المحقق في الحاشية 289. في النسخة الخطية التي اعتمدتها : (في الآن وقد خفف الخ) ولا معنى له.

أقول كره المحقق الفاضل دخول (في) في الآية وكان على صواب فأسقطها. ولكنه لم ينتبه إلى زيادة (وقد) فأقرها وهو خطأ والصواب (الآن خفف الله عنكم) وهي الآية 66 من سورة الأنفال كما ذكر.

51) ص 304 :

قال : قد ذكرت (رأيت) و (رأيتهم) و (رأيته) و (رءياك)...الخ

أقول : الكلام على حروف سورة يوسف وليس في هذه السورة رأيته بالتاء. بل لم ترد رأيته بهذه الصورة في كتاب الله تعالى والذي فيه (لرأيته) في سورة الحشر الآية 21. والصواب (رأينه) بالنون وذلك في الآية 31 من سورة يوسف.

52) ص 314 :

قال : في قوله تعالى : (إلى شيء نكرا).

أقول : الصواب : إلى شيء نُكُر.

وفي الحاشية 338 قال : فتول عنهم يمم يدع... والصواب يوم يدع...

53) ص 318 ،

قال ، وقرأ ورش والحلواني عن قالون (لأهب لك) بالياء (349).

فقال المحقق في الحاشية 349 ، كما يقرأها بالياء أبو عمرو أي ليهب.

أقول ، الصواب ليهب، لأن الكلام على جعل همزة أهب مع اللام المكسورة ياء.

وفي الحاشية 350 ورد قول المحقق ، قرأها جميع القراء السبع...

أقول ، الصواب قرأها القراء السبعة جميعهم.

54) ص 321 ،

قال ، وقرأ اسماعيل وحده (ألا تتبعان أفعصيت أمري) بفتح الياء في الوصل.

أقول ، الصواب ، (ألاَّ تتَّبِعنِ أفَعَصيْتَ أمري).

55) ص 324 ،

قال ، قد ذكرت الاظهار والإدغام في قوله ، (كانت ظالمة) (361) و (بل ربكم) (362) وذكرت (هزؤا) (363) و (أفأنتم له).

أقول ذكر الآيات التي فيها الألفاظ الأولى والثانية والثالثة بالحواشي (361) وما بعدها وأغفل (أفأنتم له) ولا عذر له في ذلك لأن المؤلف ذكر أربع كلمات فلماذا أحال في ثلاث وأغفل الرابعة ؟ أيمكن أن يقال إن سبب ذلك كون الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي لا يذكر في معجم ألفاظ القرآن الكريم الحروف والضمائر ؟! والآية التي وردت فيها الكلمة في سورة الأنبياء وهي موضوع حديثه ، (وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون) الآية 50 من سورة الأنبياء.

56) ص 327 :

قال : و (عيدي) في الموضعين في ق.

أقول : الصواب و (وعيدي)...

57) ص 331 :

قال : و (أئمة يهدون) في السجدة في ذكرته.

أقول : الصواب قد ذكرته.

58) ص 332 :

قال : قرأ ورش والحلواني عن قالون من قراءتي على أبي الفتح (النبيء إن أراد) و (بيوت النبيء إلا) بتخفيف الهمزة الأولى وتخفيف الثانية.

أقول : احدى كلمتي (تخفيف) لا بد أن تكون (تحقيق) بالقاف. والراجح أنها الأولى لأنهما همزتان متفقتان من كلمتين وقد قال الإمام الداني في ص 240 ـ 244 من هذا الكتاب :

وقرأ ورش والحلواني عن قالون بتسهيل الهمزة الثانية بين الهمزتين (كذا في المطبوع والصواب من الهمزتين) المتفقتين بالفتح والكسر والضم من كلمتين نحو (جاء أجلهم) و (هؤلاء إن كنتم) و (أولياء أولئك).

وعلى هذا يكون النص الصحيح هكذا :

قرأ ورش. والحلواني عن قالون من قراءتي على أبي الفتح... بتحقيق الهمزة الأولى وتخفيف الثانية.

ويلاحظ وضع الفاصلة بين ورش والحلواني حتى لا يكون ورش قارئا عن قالون أيضا كالحلواني.

59) ص 332 :

قال : وقرأ ورش في رواية أبي يعقوب وعبد الصمد و (ءاباؤنا) في الصافات، والواقعة، بفتح الواو وتحقيق الهمزة بعدها.

والباقون وورش في رواية الاصبهاني يلغي حركتها على الواو فتتحرك بها وتسقط هي من اللفظ.

أقول :

1) لم يشر إلى موضع الكلمة في السورتين وهي من الآية 17 في الصافات، والآية ■ في الواقعة. وكتابتها (ءاباؤنا) خطأ ظاهر، إذ ليس فيها واو بعدها همزة، وهو موضوع الكلام. والصواب (أو ءاباؤنا) بهمزة الاستفهام وواو العطف، وهذه الواو هي التي تفتح، وقد سكنها بعض القراء. قال أبو زرعة في حجة القراءات ص ■ : (قرأ نافع وابن عامر : أو آباؤنا الأولون، بإسكان الواو، وقرأ الباقون بفتح الواو، وهي واو نسق دخلت عليها همزة الاستفهام...).

2) قوله : يلغي حركتها...الخ خطأ نرجو أن يكون من المطبعة، والصواب : يلقي، بالقاف، لأن الكلام على القاء حركة الهمزة على ما قبلها، وإسقاطها من اللفظ، وليس القاء الحركة.

60) ص 332 :

قال : وقرأ اسماعيل وورش في رواية الاصبهاني (لكاذبون) (395) و (اصطفى البنين) (396) بوصل الألف ويبتدئها بالكسر.

أقول : الصواب : اصطفى البنات على البنين.

ثم هذا الفصل بين الآيتين يفوت المقصود، والواو التي بينهما مقحمة من الناسخ أو المحقق، ولا معنى لها. والصواب أن تكتب هكذا :

في رواية الاصبهاني (الكاذبون اصطفى البنات) بوصل الألف... الخ

ويشار في الحاشية إلى الآيتين 152 و 153 من سورة الصافات.

61) ص 336 :

قال : في رواية ابن سعدان : (يرضيه لكم)...الخ

أقول : الصواب (يرضه لكم) من غير ياء.

وبعد فإني لأرجو أن تكون هذه الملاحظات حافزا على إعادة النظر في الكتاب أو في الأقل داعية إلى تصحيح المتن وضبطه. والله الموفق.

الرباط — د. حسام سعيد النعيمي

قصة :

من غير رام

أحمد عبد السلام البقالي

جلس (عزيز يونس) في مكتبه بالجريدة المحلية يضع اللمسات الأخيرة على إفتتاحية الغد..

سمع طرقا خفيفا على الباب فلم يرفع رأسه.. لم يكن يجب أن يقطع أحد حبل تفكيره في هذه الأوقات...

انفتح الباب، ودلف البواب بهدوء، ووضع ورقة زيارة على مكتبه، ووقف ينتظر..

قرأ (عزيز يونس) السطر الأخير من الإفتتاحية، ووقعها. واتكأ إلى الوراء مسرورا من نفسه . وحينئذ فقط أحس بوجود البواب الشيخ الذي كان يعتبره أحد قطع الأثاث القديمة بمبنى الجريدة الهرم..

ـ ماذا ياعمي صلاح ؟

فاومأ الرجل بيد معروقة خشنة إلى الورقة أمامه :

ـ سيدي الكبير.. ابن عمتك.. يريد أن يراك..

والتقط (عزيز) الورقة ونظر إليها، وأمعن النظر وكأنه يحاول قراءة خط رديء... لم يكن يقرأ ما بالورقة. فلم يكن مكتوبا عليها إلا إسم «عبد الكبير» بخط صبياني يعرفه جيدا.. في الواقع. كان يقرأ لوح حياة ابن عمته عبد الكبير..

ابن عمته كان رفيق صباه في مدينته الصغيرة منذ خمس وأربعين سنة - ثم زميله في المدرسة الإبتدائية - وانقطعت زمالتهما الدراسية حين تخرج (عزيز يونس) من المدرسة الإبتدائية وذهب إلى مدينة أخرى لمتابعة دراسته الثانوية..

أما عبد الكبير فلم يتجاوز الدراسة الإبتدائية لعدة أسباب وظروف..

كان جميع أساتذته يقولون عنه أن رأسه ثقيل، والنساء كن يفسرن ذلك بأن أمه كانت تأكل الصلصال طول حياتها - وخصوصا بعد أن حملت به..

كانت أم عبد الكبير امرأة غاية في الذكاء والمرح.. كانت تملأ كل مكان تدخله ضحكا وانشراحا.. النكتة حاضرة دائما على لسانها حضور بديهتها.. كانت تنظر إلى الحياة من خلال منظار صنعه لها الصانع الأكبر من بلور التفاؤل والحب والسعادة والجمال..

وتزوجها أبوه الحاج بناصر.. وكان فقيها من خريجي القرويين عنيف الطبع قاسيا عنيدا، واصطدم الطبعان.. فأقفل الرجل على زوجته البيت وحرمها من زيارة أهلها وصديقات صباها اللواتي كن يتمتعن بأحاديثها الشيقة، ومنعها من استقبالهن في بيتها..

ولم تمض بضع سنوات على عزلتها حتى بدأت تذبل كالغصن الرطيب إذا انقطع عن الشجرة. أصفر جلدها.. ونحلت نحولا شديدا.. وكأنه كان يحقنها بإبر السم.. وفعلا كانت كلماته إليها كلها سما زعافا.. لماذا ؟ لأنها كانت من أسرة أشرف وأعرق من أسرته.. فكان يلتذ بإهانتها وإذ لا لها إنتقاما من أقدار الله فيها..

ولم يكن لها ملجأ منه إلا إلى صغيرتها سلمى. وصغيرها محمد الكبير.. ولولاهما لكانت جنت من الغضب المكبوت، والحزن الشديد الذي لم تعرفه طوال حياتها.

وانتظرت حتى كبر الطفلان قليلا، وقل اعتمادهما عليها، ثم غادرت. بعد أن امتص الفقيه المرير آخر قطرة من حيوتها ومرحها، وإنسانيتها..

لم يستغرب أحد لموتها.. فقد كانوا يعتبرونها ميتة منذ دخلت دار الفقيه الجهنمي..

ولم يندهش أحد من زوار قبرها حين وجدوا أنه، وبعد أسابيع قليلة من وفاتها، مغطى بالزهور النادرة التي تفتحت فوقه دون سائر القبور.. فكان الناس يأخذون الزهور من قبرها ليضعوها فوق قبور ذويهم.. وما تمر بضعة أيام حتى يتغطى القبر مرة أخرى بالزهور البديعة.

وتزوج الفقيه القاتل مرة أخرى بصعوبة شديدة بعد أن رفض يده عدد كبير من العائلات المحترمة خوفا على بناتهن من مصير زوجته المحبوبة الأولى.. وانتهى به الأمر إلى عائلة فقيرة كثيرة العيال فاشترطت عليه شروطا كثيرة لضمان سلامة البنت وصحتها الجسمية

والعقلية، فقبل مهزوما مدحورا بعد أن أصبحت البلد كلها تتجنبه كالكلب الجرب..

ونشأت سلمى ومحمد الكبير في بيت الزوجة الجديدة نشأة الربيبين البغيضين.. وكان الكبير ينام خارج البيت في منازل الأقارب أو على أعتاب المساجد في كثير من الليالي التي كانت زوجة أبيه توغر قلب زوجها عليه..

وفي هذه الظروف غادر الدراسة دون أن يشعر به أحد.. وعاش فترة مراهقته وشبابه متسكعا مهملا يتجنب طريق أبيه الذي ما يكاد يراه حتى تجحظ عيناه غضبا عليه بسبب وبدونه.. لمجرد وجوده.

وحين عاد (عزيز يونس) من الدراسة في الخارج، كان (محمد الكبير) أول من جاء للسلام عليه - عانقه وبكى.. وبكت عمته التي كانت ملجأه في أحلك أيامه ولياليه مع زوجة أبيه - كان مشهدا مؤثرا بدا فيه الشاب - الطفل متشبثا بابن عمته وكأنه مسك بطوق نجاة في بحر هائج وليل مظلم -

وبكى عزيز وأقسم في سره أن يعمل على اسعاد ابن عمته.. هذا البائس المظلوم الذي حرمته الطبيعة من نعمة الذكاء.. واختطف الموت منه أمه في سن مبكرة.. وسلبه المجتمع الظالم العطف والحنان..

مر هذا الشريط الملون بلون الدم والليل في ذهن عزيز يونس وهو ينظر إلى الصفحة الصغيرة.. مر بسرعة خاطفة.. على دفعات مركزة.. شحنات.. وانفجارات عاطفية امتزجت فيها مشاعر الرحمة والعطف الدافق على هذا الرجل الكبير الذي يعيش بداخله طفل صغير مضطهد خائف.

لايفهم الحياة ولا يدري ما يفعل. بمشاعر الغضب الصامت والكراهية للأب الذي تبرأ منه ورماه عاريا لمخالب الزمان..

ودخل محمد الكبير على ابن عمته فاتحا عينيه بقوة حتى بان بياضهما واسعا حول السواد. وكأنه يطل على العالم من داخل بئر عميق.. ووقف له عزيز وصافحه وعانقه مداعبا له بقوله:

ـ أين غيبتك «يا بورابي»؟

كان محمد الكبير يعرف أن ابن عمته راض عنه حين يناديه كذلك..

وأمسك عزيز بالرأس الكبيرة وضغط عليها بيديه كما كان يفعل أيام صباهما وقال:

ـ لا. لا ـ لم تنضج هذه البطيخة بعد.

وعاد إلى مقعده وسأله:

ـ هل أفطرت؟

ـ لا. لا حاجة بي إلى الفطور.

ـ معنى هذا أنك لم تفطر.

وضغط برجله على الجرس. فدخل البواب العجوز..

ـ أحضر لابن عمتي كأسا كبيرة من القهوة والحليب. ونصف خبزة بالزبدة.

وحين خرج البواب التفت إليه:

ـ ماذا جاء بك هذه المرة؟ هل طردوك من العمل الذي وجدت لك؟

وسارع محمد الكبير إلى الإعتذار والدفاع عن نفسه:

ـ لم يكن الذنب ذنبي.. المشرف على مكتب التعاون أعطى الجميع مستحقاتهم كاملة، ولم يعطني شيئا.. وحين أحتججت طردني.. اسأل من تريد ! وقد استخدم قريبا له بدلي.. اسأل عمتي.. أنها تعرف كل شيء.. هي التي قالت لي أن أجيء إليك.

وابتسم عزيز، وتصنع عدم التصديق :

ـ أيها العفريت.. لا بد أنك فعلت شيئا.

وبرزت عينا المسكين، وعزيز يداعبه ويهدئه، ويبكي بداخله رحمة به..

وأكل فطوره بشهية الجائع مدة طويلة، وهو يستمع إلى ابن عمته عزيز :

ـ أتعرف ما هو الحل لمشكلتك ؟

وفغر الكبير فمه :

ـ ما هو ؟

ـ أن تتزوج بامرأة غنية.

ورفع الكبير يديه إلى السماء وقد شاع السرور على وجهه :

ـ يارب اسمع من ابن عمتي !

وأضاف عزيز :

ـ ولكن حتى نجد لك المرأة الغنية يجب أن نجد لك عملا لا يطردك أحد منه.

وتوقف ليفكر لحظة فوقعت عيناه على كومة صور قديمة للجريدة فلمعت في ذهنه الفكرة :

ـ أتعرف ؟ لقد عثرت لك على العمل المناسب. ستكون حرا كالهواء الطلق. لا يتحكم فيك ظالم أبدا.

وسأل الكبير بشوق وسرور عظيمين :

ـ ماهو ؟

ـ مصور.

وظهرت الخيبة على وجهه :

ولكنني لا أعرف التصوير.

ـ سأعلمك. التصوير سهل للغاية.. سترى..

وعاد السرور إلى عيني محمد الكبير. فأعاد عزيز عليه الدعابة القديمة سائلا :

ـ ستربني شطارتك. حتى لا تبقى رأسك صالحة فقط. لمذا ؟

فرد محمد الكبير بابتسامة عريضة :

ـ لمشطها !

ـ أو لمذا ؟

ـ للتفريق بين أذنيّ !

وضحك عزيز. ورفع يده فمد محمد الكبير يده، هو الآخر، عبر الطاولة وضرب عزيز عليها بقوة. وتناول من صندوقه سيجارا حزّ رأسه بأسنانه وبصقه، وأشعله، واتكأ يدخن في التذاذ ورضى..

• • •

بعد أن مسحت الخادم مائدة الغذاء. وضع عزيز يونس أمام ابن عمه صندوقا من الورق المقوى.

وسأله : ـ متى عيد ميلادك ؟

- مرت عليه شهران

فأخرج من الصندوق آلة تصوير من النوع البسيط وناولها أياه قائلا :

- هذه هدية عيد ميلادك.

وبرزت عينا محمد الكبير من محجريهما :

- لي أنا ؟

- نعم، لك أنت.. متأخرة قليلا لأنك لم تخبرني بيوم ميلادك

وأمسك محمد الكبير بآلة التصوير الجميلة بيدين مرتعشتين، وانحنى ليقبل يد عزيز، فسحبها هذا ضاحكا :

- أتحسبني فقيهك ؟

ونادى مصور الجريدة، وشرح له الموقف، وترجاه تدريب محمد الكبير على استعمال آلة التصوير. فقبل الرجل بسرور.

ولم تمض ثلاثة أيام حتى كان محمد الكبير قد أتقن استعمال الآلة وتعلم مبادىء التحميض بسرعة أدهشت معلمه الذي توقع أن يتعب معه أكثر من ذلك.

وامتحنه ابن عمته في أخذ الصور بالضوء، وبالعدسة المقربة. فاندهش لتعلمه السريع، وقال له :

- الآن آمنت أن الذكاء أنواع. وإن ذكاءك. يامحمد في التصوير

فسأل محمد سعيدا :

- هل استطيع الخروج إذن إلى الشارع، والتقاط الصور للناس ؟

- ليس بعد.. مهنة التصوير تحتاج هي الأخرى إلى رخصة..

وبادره حتى لا يحزن :

ـ سأخرجها لك في أقرب فرصة. فلا تقلق.. وعليك الآن أن تتدرب على التصوير في الشوارع.. اذهب إلى حيث يتجمع الناس، وصور فيلما كاملا وحمضه بنفسك في انتظار الرخصة..

وفعلا قضى محمد الكبير بضعة أيام يتجول بين المرابع السياحية، والساحات الشعبية يلتقط صورا لكل ما يروقه..

وفي صباح اليوم الثالث جاءه ابن عمته بالرخصة، وساقه إلى ضريح مولاي العباس الفسيح حيث كان يلتقي الأهالي القادمون من جميع أنحاء المغرب، بالسواح الأجانب القادمين من جميع أرجاء العالم. وهناك فتح له باب السيارة، وزوده بالنصائح الأخيرة، ومحمد الكبير يحرك رأسه فاهما وموافقا وقد ملأه التحفز لمهنته الجديدة.

وظنه المصوران المحليان في البداية سائحا.. ولكن حين رأياه يعترض السواح والزوار، ويأخذ صورا لبعض الزبايِن، تحركت فيهما غريزة الدفاع عن الحق المكتسب..

وبينما هو يعرض خدماته على أحد الأجانب مقدما إبتسامته العريضة البريئة، إذ وقف الاثنان إلى جانبيه.

ووقف له السائح العجوز ليأخذ له صورة مع قبة الضريح، فرفع محمد الآلة، وصوبها نحو السائح، وفي اللحظة التي ضغط فيها على الزناد أحس بدفعة قوية في مرفقه حتى كادت تسقط الآلة الجديدة من يده.

وخرجت الصورة مهزوزة لا يبدو فيها إلا هلال الضريح والسماء.

وحين نظر إليها السائح العجوز ضحك وحرك رأسه مشفقا على المصور، وأعادها إليه، وذهب.

ونظر محمد الكبير بخيبة أمل إلى الصورة، وتوجه إلى الذي دفعه.

وقبل أن يقول شيئا بادره هذا :

- هل معك رخصة ؟

- نعم..

- أين هي ؟

وأدخل محمد يده في جيبه، وأخرج الرخصة الجديدة، ولوح بها أمامهما فاختطفها الأول من يده، وقال :

- الآن لم تبق معك رخصة.. اذهب من هنا.. يا الله.

فحاول الإمساك بخاطف الرخصة فمدها هذا إلى زميله خلف ظهره.. وحين أراد الإمساك به هو الآخر أعادها إلى صاحبه بنفس الطريقة.

وأذهله هذا الاعتداء الصارخ على حريته، فوقف ينظر إليهما حانقا وهما يتراقصان أمامه عارضين على الزبائن خدماتهما..

وخرج من ذهوله لحظة وصاح فيهما بصوت مبحوح :

- إذا لم ترجعا إلي الرخصة..

فقاطعه أحدهما :

- ماذا ستفعل ؟

- سأشكوكما للشرطة

- تفضل. اشكنا.

ونظر محمد الكبير حواليه باحثا بين أفواج الزوار على بدلة رسمية فلم يجد إلا جلابيب الحراس المحليين الخضراء.

وكان أحد الحراس الخمسة الذين يتجولون بين الزوار، ويعرضون، هم كذلك، خدماتهم على السواح، قد رأى ما كان يحدث بين المصورين

وبين محمد الكبير. ففجأهم بظهوره بينهم دون أن يشعروا. وكان فارع الطول. ممتلىء الجثة. ينطوي هدوؤه الظاهر على شراسة أحكم اخفاءها.. ولعنه المصوران بحنق مكبوت قبل أن يسأل :

ـ ما هذه الضجة ؟

وظهر الخوف عليهما رغم أن الحارس لا يمثل سلطة رسمية. فهو معين من شيخ الطريقة سادن الضريح العباسي.. وبالغريزة أدرك محمد الكبير أن للرجل سلطة ما عليهما. فبادر بالشكوى إليه.

ـ لقد أخذا رخصتي..

ـ رخصة ماذا ؟

ـ رخصة التصوير.

فأخرجها المصور الذي كانت في جيبه. ومدها له قائلا :

ـ كنا نمازحه فقط..

واعترض الحارس الضخم الرخصة فأخذها من يد المصور. ونظر إليها. ثم إلى وجه محمد عبد الكبير ليتأكد من هويته. وصرف المصورين

ـ اذهبا انتما لعملكما..

وذهبا. فأشار إلى محمد الكبير :

ـ تعال معي..

فتبعه كالكلب الأمين. بادي السرور والإرتياح والامتنان لمخرجه من مأزق ما كان يدري كيف يخرج منه.. فرغم أنه تعرض لمثل هذه المآزق مآت المرات في صباه وشبابه. بسبب «حالته الخاصة» فلم يستطع تكوين مناعة ضدها. أو يكتشف حلا دائما يواجه به تلك المآزق..

فكانت في غالب الأحيان تنتهي نهايات مأساوية دامية يخرج منها دائما مذنبا ملوما لعجزه عن رؤية الواقف بوضوح، والدفاع عن نفسه.

كان لسان حاله يقول : «وكفى الله المومنين القتال».

لم يكن يدري ماذا تخبئه له الاقدار على يد الحراس الزبانية.

وسار به الحارس إلى أحد المداخل الجانبية البعيدة عن الزوار. واوقفه هناك، ووقف ينظر إليه وإلى الرخصة، ثم قال :

ـ أنت تعرف أن التصوير ممنوع داخل حرم الضريح.

وفتح محمد الكبير فمه ليحتج مشيرا إلى المصورين خارج المدخل، فاضاف الحارس بعنف مكبوت :

ـ إلا برخصة طبعا.

وانفرجت أسارير محمد، ولكنها عادت إلى الانقباض حين لوح الرجل بالرخصة الجديدة في يده، وأضاف :

ـ وليست هي هذه.. هذه تسمح لك بالتصوير خارج الضريح..

وفتح فمه للخبر الجديد، وسأل ببراءة :

ـ وكيف أحصل على رخصة الضريح ؟

وفي تلك اللحظة انضم إلى الحارس أربعة حراس آخرون بجلابيبهم الخضراء فسلموا ووقفوا ينصتون في صمت.

قال الحارس مستأنفا :

ـ تحصل عليها منا نحن حراس الضريح..

ـ اعطوني الرخصة، إذن.

فنظر الحارس حواليه ليتأكد من خلو المكان من زائر غريب وقال :

ـ الرخصة لها ثمن.

ـ كم ثمنها ؟ أنا مستعد لدفعه من أول أرباحي.

ـ الرخصة ثمنها عشرون درهما.. في اليوم.. وتدفع مسبقا قبل بدء العمل.. هل معك عشرون درهما ؟

فبلع ريقه، وتوجس شرا أخطر مما تعرض له قبل قليل.. وأجاب :

ـ لا ليست معي.. ألا تنتظرون حتى أشتغل قليلا ؟

ـ الله يفتح.. يالله.. اجمع قلوعك، واذهب ولا تعد حتى تأتي بالعشرين درهما..

ولم يحك لابن عمته عزيز يونس، ما جرى له مع حراس الضريح، ولا مع المصورين المحليين، ولكنه اكتفى بسؤاله :

ـ هل احتاج إلى رخصة أخرى للتصوير داخل الضريح ؟

ـ من قال لك ذلك ؟

ـ فقط أسأل.

ـ لا.. لا تحتاج إلى أية رخصة غير التي معك.. ومن طلب منك رخصة أخرى يمكن أن تشتكيه للشرطة.

وفي صباح الغد عاد إلى الضريح، بعد أن جرب حظه في ساحة السوق الكبيرة فلم يسعفه الحظ.

وأخذ يعترض طريق السواح المغاربة والأجانب بابتسامته البلهاء مشيرا إليهم بآلة تصويره، ومرددا.

ـ صورة ملونة ؟ عشرة دراهم فقط..

ولم يكد يأخذ صورته الأولى لزبون حتى وقف إلى جانبه شرطيان خضراوان، وامسكت بكلتي ذراعيه قبضتان حديديتان، وسحباه من المكان يكاد ترتفع قدماه عن الأرض.

وقبل أن يدرك ما يراد به كانا ادخلاه إلى غرفة مظلمة. وأقفلا خلفهم الباب. ثم فتح ثالث لهم بابا داخل الغرفة المعتمة على حوش الولي الصالح الخلفي الخالي من الزوار. والمزروع باشجار الزيتون.. وهناك خرج له رئيسهم العملاق ذو النظرة القاسية وتوجه إليه قائلا :

ـ ألم أقل لك لا ترجع حتى يأتي بالرخصة ؟

فنظر إليه محتجا بعينين جاحظتين :

ـ قال لي ابن عمتي لا حاجة بي لرخصة غير التي معي.

ـ إذن ابن عمتك قال لك ذلك !

وأشار إلى زميليه برأسه ، فما كان منهما إلا أن ضربا ساقيه من الوراء بساقيهما فوجد نفسه طريحا على الأرض على ظهره في رمشة عين. وأمسك الأول بساقيه. ونزع الثاني حذاءه وجواربه. وأخرج رئيسهم قضيب سفرجل من وراء ظهره ونزل فيه ضربا مبرحا. وهو يصرخ. ويتلوى. ويستغيث ويستعطف دون جدوى..

وتوقف الحارس العملاق عن الضرب دون أن يبدو عليه أي تعب وسأل :

ـ هل تسمع كلامنا أو كلام ابن عمتك ؟

فرد محمد الكبير بلهفة الغريق ألقي إليه بطوق النجاة :

ـ كلامكم ! كلامكم !

وأشار إليهم الرئيس أن يطلقوا سراحه. فأطلقوه.. وانحنى لتناول حذائه فوقعت على مؤخرته ركلة قوية أوقعته على وجهه على الأرض الحجرية فشج في جبهته. وانكسر أنفه. وخدش وجهه كله. ونبتت عيناه بأعجوبة..

ووقعت فيه هراوات الحراس الخضر الخمسة حيثما اتفق. وأمسك هو برأسه بين ذراعيه وهو يحاول القيام والفرار دون جدوى..

وفي النهاية كفوا عن ضربه. وساقوه إلى باب جانبي يؤدي إلى زقاق ضيق خلف حوش الضريح..

وما كاد يخرج حتى ضم حذاءه وآلة تصويره إلى صدره. وأطلق ساقيه للريح..

ولم يستطع اخفاء مغامرته هذه عن ابن عمته. هذه المرة.

وغضب عزيز يونس غضبا شديدا حين رأى ماحل بقريبه الطفل الكبير. واغرورقت عيناه بالدموع. وهو يحاول أن يسرى عنه. ويمازحه بالقاء اللائمة عليه. والآخر يقسم له ببراءة الطفل المظلوم أنه برىء.

وفكر في ذلك المساء في عدة وسائل للرد على هذا الظلم الشنيع. بعضها كان مباشرا كالإلتجاء إلى القانون. أو الاشتكاء إلى شيخ الضريح.. وبعض الوسائل غير مباشر. كنشر الحادث في الجريدة. واستعداء القانون والشيخ معا على حراس الضريح المتوحشين.

ولكن الحل جاءه عن طريق الصدفة. وهو يتصفح مع محمد الكبير بعض الصور التي أخذها حول الضريح في أيام تدريبه قبل حصوله على الرخصة.. كان محمد يريد أن يريه الحارس الذي اعتدى عليه.. لفت انتباهه وجه يعرفه جيدا - وجه هولاندي يدعى بيرت هانسن يعيش في مدينة النخيل منذ عشرين سنة - هوايته جمع التحف المغربية القديمة من أسواق مدن الجنوب وقراها حتى أن منزله المغربي الكبير. بداخل المدينة القديمة تحول إلى متحف هائل يحتوي على نفائس لا تقدر بثمن.. كان يشتريها من ضحاياه بابخس الأثمان لبلاها وقدمها وجهل

صاحبها بقيمتها التاريخية والانثروبولوجية ـ وكان يتاجر في هذه القطع النادرة من حلى وأدوات منزلية أو صناعية، أوزرابي، مع أكبر متاحف أوروبا وأميريكا، ومع أصحاب المجموعات القديمة في كل مكان من العالم.

وتصفح عزيز يونس بعينه الصحافية الثاقبة الصور التي أخذ بعضها بالعدسة المقربة من بعيد فاكتشف أن (بيرت هانسن) كان يشتري من رئيس حرس الضريح احدى الزرابي الصغيرة النادرة التي كانت موضوعة أمام القبر..

رأى في الصورة الأولى (بيرت) وهو يسلم مبلغا ماليا للحارس الكبير، والأخر ينظر حواليه ليرى هل رآهما أحد.. وفي الصورة الثانية بدا (بيرت) يشير إلى الحارس إلى الزربية وهما داخل الضريح حيث قبر الولي مولاي العباس..

هذه الصورة وحدها كفيلة بقطع عيش الحارس الظالم، وطرده طردا نهائيا ؛ فدخول الأجانب، من غير المسلمين، إلى الضريح ممنوع منعا باتا.. ولم يكن الشيخ بحاجة إلى النهي عنه، فداخل الحرم في قداسه المسجد.

وفي صورة ثالثة بدا الحارس حاملا الزربية على كتفه.. وفي رابعة كان يضعها في صندوق سيارة (بيرت) في الزقاق الخلفي للضريح..

ودق قلب عزيز، وارتعشت يداه وهو يعيد النظرا إلى الصور..

وسأله محمد الكبير :

ـ هل هي جيدة ؟

ـ جيدة جدا، بل واجود مما تتصور.

ـ صحيح ؟

ولم يجبه عزيز.. كان يفكر في (بيرت هاتـن) وفي علاقته القديمة معه منذ خمس وعشرين سنة، حين كان (بيرت) شابا حديث العهد بالمغرب والجو العربي.. وكان حديثه عن الإسلام والعرب حديث عالم منبهر بهذا الدين وهذه الثقافة العريقة. وكان لا يجد فرصة إلا انتهزها فيها من الفرنسيين وجهلهم بالقيمة الروحية والتاريخية للمغرب.. وكان يتكلم عدة لغات بطلاقة عجيبة.. ففتن به الشباب، واصطحبوه للتجمل به في كل مناسبة..

ولم يعرف حقيقة أمره إلا عزيز وصديقه أمين.. وذلك بعد أن عادا من مقام طويل في أوروبا. فوجدوا أنه كان في عمقه استعماريا من نوع جديد.. أفعى ناعمة استطاعت أن تتسلل إلى خبايا وزوايا الشعب المغربي، وتستغل سذاجته وكرمه وطيبته لتسلبه كنوزه ونفائسه الخفية، وتهربها إلى أسواق التحف القديمة بالخارج..

ومن ثم قاطعوه، وهجروا مجالسه ـ ولكنهم لم يستطيعوا استعداء السلطات عليه لإتقانه حرفته.

وأخرجه من سرحته محمد الكبير قائلا :

ـ هذا هو الحارس الذي ضربني.

فوضع عزيز يدا حنونة على رأسه وقال :

ـ سيضربه الله.

ثم سأله بدون مناسبة ظاهرة.

ـ هل ما تزال تحفظ القرآن ؟

ـ بعضه. اقرأ الحزب في الجوامع أحيانا.. لماذا ؟

ـ هل تتذكر الآية : «ويمكرون ويمكر الله..»

فأتمها محمد :

ـ «والله خير الماكرين».

ـ والآية : «وعسى أن تكرهوا

فأتمها محمد :

ـ «..شيئا وهو خير لكم..»

فقال عزيز ساهما بعينيه في الفراغ :

ـ «يضع قوته في أضعف خلقه» إن لله طرقا غريبة لإظهار الحق وازهاق الباطل..

فسأل محمد :

ـ ماذا ؟

فاستأنف عزيز تذكيره بصوت عال وهو ساهم إلى الصور على المائدة

ـ «ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى..» صدق الله العظيم.

ثم التفت إليه وقال :

ـ لقد وضع الله في كفك سلاحا دون أن تدري يامحمد.

ـ أي سلاح يا بن عمتي ؟

ـ هذه الصور. وهي إذن لك بالاقتصاص.

ـ كيف ؟

ـ ستعرف فيما بعد.. أين الكليشيهات ؟

ـ عندي في المختبر.

ـ حافظ عليها..

ونهض قائلا :

ـ والآن.. لنا زيارة سنقوم بها.

***

أوقف عزيز يونس سيارته الصغيرة على باب الدرب الضيق. وخرج هو ومحمد الكبير. وقصدا دار الشيخ..

واستقبلهما على الباب حارس بجلباب أخضر كذلك. فأدخلهما إلى غرفة انتظار بجانب غرفة الشيخ الكبير. وأخذ اسميهما. وذهب.

وترامت إلى سمع عزيز أصوات عالية آتية من ناحية مجلس الشيخ. فأرهف سمعه.. واستطاع أن يفهم من العبارات التي كانت تصله إلى أن هناك محاكمة من نوع ماتقع أمام الشيخ..

وأطل من باب الغرفة. فلما لم ير أحدا خرج. وأصاخ بسمعه ناحية الصوت.. كان صوت رجل يدافع عن نفسه بأنه لا يدري كيف حدث شيء ما.. ويقسم بأغلظ الإيمان وبرأس الشيخ. ورؤوس أجداده الأولياء الصالحين.

وعاد الخديم الحارس وعلى وجهه علامة امتعاض لخروج عزيز من الغرفة. فبادره هذا بورقة من عشرة دراهم قائلا :

ـ خذ هذه البركة قهوة لك.

فاختفت نظرة الامتعاض. وحلت محلها ابتسامة شكر ومجاملة. واغتنم عزيز انفتاح الخديم وسأله :

ـ هل سيستقبلنا سيدنا قريبا ؟

ـ لا تقلق. لابد أن يستقبلكما حالما ينتهي من شغله هذا

ـ هل سيطول ؟

ـ لا.

ـ لابد أنها جلسة ساخنة.. هل يحدث هذا كل يوم أمام سيدنا الشيخ ؟

ـ لا، فقط اليوم

وانحنى عليه هامسا :

ـ لقد اكتشف سيدي اليزيد، ولد الشيخ، اختفاء زربية نفيسة من أمام قبر الضريح فجاؤوا بالحراس لاستنطاقهم.

فلمعت عينا عزيز يونس، وقال للخديم :

ـ اسمع، أدخل حالا عند سيدنا الشيخ، وقل له إن أحدا يريد مقابلته في نفس هذا الموضوع ـ موضوع الزربية المسروقة.

وفتح الخديم فمه. [illegible] عزيز، وسار خلفه.

وهرول الرجل حتى دخل الغرفة الكبرى حيث كان الشيخ يجلس في جلبابه الأخضر الفاتح، على مرتبه بصدر الغرفة مدعما بالوسائد الكبيرة المطرزة، وقد وضع قب جلبابه فوق عمامة بيضاء التف منها طيلسان تحت لحيته، وبان الجلال والوقار على وجهه المستدير المورد.

وهمس الخديم له، وأشار إلى الباب، فدخل عزيز يونس مسلما دون استئذان، وانحنى فسلم على الشيخ مقبلا كتفه، ومقدما محمد الكبير الذي انحنى هو الآخر، وتناول يد الشيخ فقبلها، وأشار الشيخ لعزيز أن يقعد إلى جانبه ففعل، وقعد محمد إلى جانب عزيز.

ونظر محمد إلى الرجل الذي كان مقعيا كقرد أمام الشيخ، فإذا هو حارس الضريح العملاق، وقد لمعت خداه من البكاء.. وحين رأى محمد الكبير امتقع لونه رغم سمرة وجهه الداكنة، وارتعشت شفتاه..

وهمس عزيز يونس إلى الشيخ مشيرا إلى محمد الكبير، وإلى جروح وجهه، وكسر أنفه، ثم إلى الحارس المقعي على الأرض.. وبعد ذلك أخرج من جيبه رزمة الصور ومدها إلى الشيخ قائلا :

ـ لاخوف على سلامة الزربية. فأنا أعرف الشخص الذي اشتراها، وأعرف مكانه. وسوف أستعيدها منه...

وكان وجه الشيخ يحمر من الغضب والانفعال. وهو ينظر إلى الصور، رغم رزانته ووقاره ، فأشار إلى الحارسين المقيمين خلف الحارس العملاق. وقال بصوت هادىء أجش :

كيف فعلتما هذا بهذا الولد ؟

فقاما يريدان أن يشرحا. فقال الشيخ :

ـ أرياني كيف فعلتما بالولد في مقدمكما مبروك...م

وبهت الحارسان. ولكنهما لم يترددا في التقدم نحو رئيسهما، والأخذ بذراعيه، وايقافه. ثم ضرب ساقيه من الخلف والقائه على الارض كالعجل المعد للذبح.

وجاء رجل ثالث بفلقة كانت معلقة على الحائط. فادخل فيها رجلي الحارس الممدد. ووجهوهما نحو الشيخ. ومد له عصا. وتناولها الشيخ. ونادى محمد الكبير وأعطاه أياها :

ـ قم ياولدي.. اضربه قدر ما ضربك.. ولا تشفق عليه. والا..

ولم يحتج محمد إلى تهديد الشيخ. ولا إلى إذن ابن عمته. فتناول العصا ورفعها. ولكنه توقف وتردد. فقال الشيخ :

ـ اضرب. مالك ؟

ـ لا أستطيع.

ـ بعد كل ما فعل بك. لا تستطيع !

ـ الضرب موجع للغاية.. وقد جربته. ولا أحبه لاحد.

ـ حتى لمن ضربك واهانك ؟ !

ـ علمني أساتذتي أن أعفو عند المقدرة.

فنظر الشيخ إلى عزيز يونس مستغربا من تصرف محمد الكبير، وعلق :

ـ هذا الولد ملاك.. إنه من طينة الأنبياء..

وتوجه إلى محمد قائلا :

ـ هات العصا يا ولدي، واقعد، إذا عفوت أنت، فالعدالة لا بد أن تأخذ طريقها ـ ولا بد للجاني أن يعاقب :

ومد العصا لخديمه، وأشار إلى القدمين في الفلقة، فتناول الخديم العصا، وهوى بها على القدمين العاريتين فصرخ الحارس :

ـ أنا في حمى الشيخ مولاي العباس.

وهوت عليه أخرى، فصرخ :

ـ أنا في حماك أسيدي..

وتوالت الضربات، والحارس يصرخ ويستغيث، وقام الشيخ إلى قضاء حاجة قائلا لخديمه :

ـ لا تتوقف وإلا حللت محله !

وحين عاد الشيخ كان الخديم قد أخذ منه التعب كل مأخذ، والحارس الضخم قد نزفت طاقته، ولم يعد قادرا على الصراخ والإستغاثة، فكان يئن، ويفتح فمه مع كل ضربه..

وأشار له الشيخ ليتوقف.. وصرف شركاء الحارس في الجريمة قائلا : إذهبوا الآن، ساعتكم آتية.

والتفت إلى عزيز يونس :

ـ شكرا لك.. وبارك الله فيك على ما فعلت.. تلك الزربية كانت لها قيمة لا تقدر، لأنها كانت من مقتنيات جدنا الشيخ صاحب الضريح.. كانت عزيزة عليه، فتركناها أمام قبره، فإذا استطعت الحصول عليها دفعنا ثمنها للذي اشتراها مضاعفا.

ـ لا.. لا حاجة لذلك، سأحصل عليها، إن شاء الله، دون مقابل.

ونظر الشيخ إلى محمد الكبير..

ـ وهذا الولد المسكين لا بد أن نعوضه عما أصابه على أيدي هؤلاء اللصوص.. إذا أراد أن يكون المصور الرسمي للضريح، فسأكتب له إذنا بذلك وسنصرف له أجرة حارس.. ولن يضايقه أحد بعد اليوم.

وشكره عزيز بحرارة، وقام محمد فامسك برأس الشيخ وقبلها، وبيده كذلك فلثمها، والشيخ يرضى عليه، ويربت على رأسه..

وهكذا أصبح محمد الكبير، الطفل التائه الخائف الساكن داخل جسد رجل في الأربعين، مصور الضريح الرسمي.. وتلاشت مخاوفه، وكثر أصدقاؤه من أطفال دائرة الضريح وزواره.

الرباط　　　　　　　　أحمد عبد السلام البقالي

التقليد والتدليس في الأدب والرسم

مصطفى القصري

اليوم كل الناس يكتبون، وهذا التعميم الديمقراطي قد يكون نعمة من نعم الله على الناس لو كان كل ما يكتبه الناس له فائدة تذكر. ويدرك بوضوح تام إذا نحن انطلقنا من قاعدة أن كل ما يكون واضحا في الذهن يسهل التعبير عنه قولا وكتابة.

ولولا تلك الفائدة وهذا الوضوح لما كان معنى للكتابة مطلقا. الكتابة رسالة يبلغها الكاتب إلى القارئ. وهذا الشرط لازم يلتزم الكاتب ضمنيا بالوفاء به، ويتعهد بتبليغه، وينتظره منه القارئ بصفة عفوية كصفقة تجارية بين البائع والمشتري. أو كحلف تعاهد عليه طرفان بأن يكتب الكاتب ويقرأ القارئ. أو كصاحب مطعم تعهد بأن يقدم الطعام إلى مشتهيه بعوض. أو كطبيب تعهد للمريض بأن يقدم له العلاج.

أنا رجل لا يشغلني من مللي ولا يزيل كآبتي إلا القراءة. فالخمرة تؤذي صاحبها فيؤدي ثمنها غاليا من ماله وصحته وعقله. ثمنا يرن في رأسه رنين الأجراس، ويطن طنين السنديان، وتتميع أفكاره من جرائها كالبيض الآفن. ويفقد من أجلها احترام الأصدقاء أنفسهم بله عامة الناس. كما يفقد ذلك السمت الذي ينبغي أن يتحلى به كل عاقل. وتحليل ما يقع لمن يشربها من الويلات بحر لا ساحل له. وليس هذا موضوعنا اليوم.

قلت إنني رجل مصاب بالكآبة. فلا يشغلني منها إلا الكتاب. فلا اللهو يشغلني من مللي، ولا الجمال نفسه. بل إن الجمال يزيد في عمق مللي وحدته. ويترك في كبدي رسوبا من أثره يطلب أياما وليالي لإزالته ومحو أثره. ولربما لا يزول بالمرة. لأني لا أزال في عمري هذا أعاني من أتعاب ما لقيته منه وأنا طفل عمري ست أو سبع سنين. وليس الجمال أيضا موضوعنا اليوم رغم أن لي معه حسابا طويلا قد أعود إليه في يوم من الأيام.

كما أن الملل لا يهمنا التحدث عنه اليوم بقدر ما يهمنا الحديث عن المطالعة ومشاهدة الألواح الزيتية.

قد تكون محادثة الأصدقاء وقد يكون الإنصات إلى الموسيقى الجميلة من المتع الروحية التي لا تعوض بثمن. غير أن للأصدقاء مشاغلهم. فهم ليسوا بعبيد لي أجدهم متى أشاء لأحدثهم بما أشاء أين أشاء. ولو كان ذلك لتحقق المستحيل.

أما الموسيقى الجميلة فهي أيضا مطالعة عن طريق الأذن عوض العين. فكما أنك تقرأ تسجيلا مكتوبا بالحروف، فإنك تسمع تسجيلا مكتوبا بالسولفيج. فالموسيقار أديب عن طريق السمع، والأديب موسيقار البصر. وكلاهما موجه إلى العقل، والقلب والروح.

وهذا هو المقصود من حديث اليوم.

إن العقدة التي تربط الكاتب بالقارئ شرط أساسي يلتزم به الكاتب أمام قارئه. وإلا فسخت العقدة من تلقائها ولم يعد هناك كاتب يبلغ رسالة، وإنما هنالك لص محتال ومخادع يحاول أن يغالط من يمكن أن يغالط من الناس. وقد يكونون كثيرين وبالأسف الشديد.

أثرت هذا الموضوع لما عانيته شخصيا من هذا النوع من الكتاب الذين حاولت أن استفيد من كتابتهم شيئا حتى أتيت على نهايتها وخرجت كل مرة بخفي حنين. فأخرج بنفس النتيجة وأبلغ نفس الغاية، الصفر المكعب.

أشعر بالمرارة وبأنني خدعت ووقعت في حبل شخص كنت أحسبه سيوفي بعهده وبشروط عقده. وأجدني أمام لص اختلس مني مالي وهو قليل، وأخذ مني وقتي وهو ثمين في مثل عمري. وأخطر من هذا وذاك أنه جعل مني أنا الرجل الديمقراطي، أفكر في ضرورة إقامة كومارية أخلاقية للوقاية أو محكمة للتفتيش للمحافظة على سلامة البشر بإلقاء القبض على هؤلاء اللصوص وتقديمهم أمامها لمحاكمتهم بتهمة اللصوصية والاختلاس والتحايل. والحكم عليهم بعدم شراء الأقلام وعدم تلطيخ الأوراق بالمداد ولو كانت أوراقا مذهبة. ومن بلاء الله أن تقوم في العالم محاكم من هذا النوع يمتحن الله بها عباده.

إنهم ليسوا فقط لصوص أقلام بل إنهم لصوص أرواح كذلك. فقد قرأت يوما كلاما في صفحة أدبية يمكن أن أنتج من أسلوبه الأطنان بدون أدنى تعب أو عياء. قلت إنه كلام وليس هو في الواقع بكلام، إذ أن الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع. ثم قرأته فاتهمت نفسي بالغباوة. ولكنني لم استطع أن اتهمها بالتعصب لمعرفتي بتسامحها الذي كم عانيت منه الأمرين. وأخيرا تأكدت أننا نعاني عالما أحمق معتوها مصطلكا. وأن صاحب ذلك القلم من نتائج ذلك الحمق، ومن مخلفات هذه الصطلكة.

ومن غريب ما سأخبرك به أيها القارئ أنني فتحت نفس الجريدة في صفحتها الأدبية في الأسبوع الذي تلا ما قرأته من سخف فوجدت تعليقا على ذلك المقال يقول ان لصاحبه يراعا لا مثيل له وأن محتوى المقال فيه من الثورية والتقدمية ما سيهز أركان الرجعية والاستعمار والإقطاعية ويشتتها اربا اربا إلى غير رجعة. ثم يحذر المعلق أو الناقد الأدبي حفظكم الله يحذر الرأي العام (على ما تبين لي إن كنت فهمت فعلا ما قرأت) من أن تستحوذ البورجوازية على المكتسب أي على هذا الأسلوب الأدبي الجديد الذي هو ملك للتقدمية فتحضنه ويصبح ملكا لها.

وانتقامي من الكاتب والمعلق معا هو أن انصح البورجوازية إذا كان من أخلاقها أن تحتضن كل مكتسب تقدمي لاستخدامه من أجل مصلحتها الخاصة ألا تفعل في هذه المرة. وأن تتبع نصيحة المعلق التقدمي لمرة فلا نتهم بأننا في صفوف مثل هؤلاء التقدميين.

سامحكم الله يا أصحاب الأقلام. كيف تلاقون الله وقد قرأتم كتابه ولم تتدبروا قوله تعالى. ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾

أقول هذا وأنا مدرك كل الإدراك بأن ذلك الكاتب لن يصده كلامي عن إعادة الكرة وتلطيخ الصفحات بهرائه معتقدا في قرارة نفسه بأنني أنا الذي لم أستطع أن أفهم كلامه وأصبح صيحة التنويه..

فليس كلامي هنا موجها إليه. وإنما هو موجه إلى الشباب المطلوب منه أن يستعمل حسن ذوقه وإيمانه بنفسه ومحك نقده لتمييز الكلام رديئه من محموده. وعدم الانصياع بسهولة إلى كل ما يقرأه ولو كان من كتب ذلك أستاذا جامعيا / تقدميا / فيتمثل به ويحاكيه عن طريق الموضة حتى يصبح مثله هراء في هراء. وليتدبر هذا الذي روى عن بديع الزمان الهمداني الذي كان يكتب الكتاب المقترح عليه ويبتدئ بآخر سطر ثم هلم جرا إلى السطر الأول حتى يخرجه مستوفى الألفاظ والمعاني.

كما أنصحه بتدبر كلمة العماد الأصفهاني هذه :

«إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن. ولو زيد كذا لكان يستحسن. ولو قدم هذا لكان أفضل. ولو ترك هذا لكان أجمل. وهذا من أعظم العبر. وهو دليل على استلاء النقص على جملة البشر»

انتبهوا لما ينشر من «أدبيات» على صفحات الصحف والمجلات العربية المختصة بالأدب من ترهات وخزعبلات يسميها أصحابها أدبا. وينتصب

آخرون ليدافعوا عنها وليقولوا بأنها الأدب الحق، وذلك باسم التقدمية وما إلى ذلك الأبشيات.

إننا منذ أزيد من عشرين سنة أمسينا نطلع على هذه الكتابات نظما ونثرا، ولا نجد من يتصدى للرد عليها ولتصحيح الوضع خوفا من أن يتهم بالإقطاعية والرجعية، والبورجوازية والتخلف، بل وقع أفظع من هذا، فإن بعض الصحف التي لا يمكن أن يتطرق الشك إلى جديتها ـ تفتح أركانها لأقلام من هذا النوع.

ومما يزيد الطين بلة أن بعض الشباب العربي أصبح يعتقد أن هذا الأسلوب هو العربية نفسها، وأن أسلوبا غيره قد يكون في الواقع هو العربية لا ينتمي للعربية في شيء، وهذا خطر لن نفتأ نندد به دفاعا عن العربية وحفاظا عليها مهما كلفنا ذلك من مشاق وأتعاب عملا بقوله صلى الله عليه وسلم : «من رأى منكم منكرا فليغيره».

إننا منذ أكثر من عشرين سنة نشاهد هذه الظاهرة تنتشر انتشارا فظيعا في العالم العربي من الخليج إلى المحيط، ولا نسمع إلا قليلا من الأصوات ترتفع لفضح هذا التزوير واستنكاره، ولا نكاد نسمع هذه الأصوات لكثرة الضجيج القائم في سوق الأدب على يد الأقلام / الجديدة والمجددة / التي تحسبها معاول ـ وهي معاول فعلا ـ قائمة نازلة تكسر العربية تكسيرا، وتمزقها أشلاء، وتهيء لها قبرا تدفن فيه إلى الأبد إذا لم تقم حركة منتظمة واعية إيجابية فعالة لإنقاذها من هذا الوأد المبيت لها.

كثيرا ما نتيقن بأن كل الويلات أتتنا من الغرب. إنما لنا اليقين في هذه المرة بأن تقليد الغرب هو الذي أدى باللغة العربية وعلى يدنا إلى هذا الحضيض الذي نتخبط فيه على مضض.

قلدنا الغرب في ملبسنا ومأكلنا ومشربنا. وفي ذلك ما يستحسن ويستساغ وفيه أيضا ما يستهجن ويعاب. ألا ترى مثلا إلى الزنجي الذي يمشي مشية الهيبي مرتديا الجينز الأزرق ومتحليا بشنبات تنزل إلى أسفل جانبي ذقنه كأجداد الفرنسيين الأولين مقلدا بذلك معاصره الشاب الفرنسي الذي صنع ذلك لأسباب اجتماعية وأخلاقية وعاطفية خاصة به وحده.

إن هذا هو ما فعلناه بالنسبة لفنون الأدب وخصوصا الشعر منها. لقد كنا نعيب على الاستعمار الفرنسي أنه كان يلقننا نحن ضحاياه في المدرسة بأن أجدادنا هم الغاليون. ثم أصبحنا بعد الاستقلال نتحلى بشنبات هؤلاء الغاليين كأننا حفدتهم بالفعل. فهل نلوم الاستعمار على هذا أيضا أم لا نلوم إلا أنفسنا ؟! ولقد كفى ما حملنا الاستعمار وأثقلنا كاهله بجميع عيوبنا وتهورنا وفساد أخلاقنا ونتائج سيرتنا وسيء أعمالنا في مختلف الميادين.

وإلقاء هذه التبعات على الاستعمار أمر هين بالنسبة لمسؤولية القيام بالنقد الذاتي والتحليل الصريح للأوضاع التي ترديها فيها خصوصا في ميدان الأخلاق، وهو أهم ميدان بالنسبة لنا. ولن يقوم لنا أمر بدون أخلاق. بل إن الأمة تموت إذا فقدت فيها الأخلاق. قلت إن تقليد الغرب في حركته اللغوية والأدبية وخصوصا الحركة الفرنسية جعل العربية تعاني اليوم أكبر الأخطار. فإذا كان للفرنسيين موقف من لغتهم يجعلهم

يكــرونها اليوم لخلق لغة جديدة تتناسب وعقليتهم المعاصرة وتخضع لتطورها التاريخي وذلك لخلق أدب جديد له مقاييــس ومعطيات جديدة ونـاتج عن تطور تاريخي معين ابتداء من لغة القرون الوسطى إلى الكلاسيكية إلى الإبداعية إلى الرمزية إلى السريالية إلى هذه المرحلة الأخيرة التي يوجد عليها الأدب الفرنسي اليوم. فإننا نحن العرب عرفنا بالعكس تطورا مغايرا آخر في لغتنا وأدبنا منذ الجاهلية إلى عصر الازدهار ومنه إلى عصر الانحطاط ومن هذا إلى النهضة العصرية الحديثة التي تزعمها رشيد رضا ومحمد عبده وجمال الدين الأفغاني والتي خلقت جيلا من عظماء الكتاب أمثال طه حسين والعقاد والزيات وأحمد أمين وغيرهم.

فإذا كان لنا أن نقوم بثورة لخلق أدب جديد ولغة جديدة مناسبين والعصر الذي نعيشه. فليست بالضرورة الطريقة التي نقلدها ونقتبسها من الفرنسيين هي الطريقة المناسبة لتحقيق هذا الهدف. بل علينا أن نحلل الأوضاع الخاصة بمجتمعنا العربي لنهتدي إلى التفكير الصحيح والمناسب للقيام بتلك الثورة.

إن هذا التقليد الأعمى واضح أثناء العشرين سنة الأخيرة في ميدان الرسم مثلا. فقد شاهدنا جيشا ممن يدعون أنهم فنانون يقومون بتلطيخ ألواح كانت أجمل لما كانت بيضاء ويقولون إنه الفن التجريدي. ورأينا الناس يحضرون مختلف هذه المعارض ليقال إنهم يشجعون الفن ويقفون أمامه وقفة المتأمل لئلا يقال عنهم أنهم يجهلون الفن. فأي رسالة يا ترى تؤدي هذه اللوحات الملطخة للمشاهد المحترم.

إن التقليد في ميدان الفن التشكيلي جعلنا نضيع ربع قرن من بداية عمره، فالتجريد في الغرب كان نتيجة تطور معين لهذا الفن، أما بالنسبة لنا فإنه لم يعد أن يكون تقليدا كما كان الأمر بالنسبة لفنون الأدب، غير أننا بدأنا اليوم نشهد أعمالا جدية في ميدان الرسم تستحق كل تشجيع، وياليت العدوى تنتقل إلى ميدان الأدب وخصوصا الشعر منه حتى نشاهد أعمالا تحول تشاؤمنا المهول إلى بصيص من الأمل نعقده عليها لإنقاذ لغتنا وبعث الروح في أدبنا وفننا، فإنه حقيق بأن تبعث فيه الروح من جديد.

الرباط　　　　مصطفى القصري

عَلى ضِفافِ أمِّ الرَّبيع

علال الهاشمي الخياري

يا نَهْرُ سامِرُ اللَّيالي   ما الحُبُّ... ما سِحْرُ الجَمال...
تَمْضي وَتُعرِضُ عَنْ سُؤالي
وَتَغيبُ في خُضْرِ المَجالي
تَمْضي... وَكَأْسُكَ لِلنَّدامى وَالصَّبايا الفاتِناتِ
هَلاَّ وَقَفْتَ هُنا... تُغازِلُ في الهَوى... في الذِّكْرَياتِ

☆ ☆ ☆

في شَطِّكَ الزّاهي الظَّليلْ   يَخْتالُ مَوْكِبُكَ الجَميلْ
ثَمِلَ الخُطى... يَدْعوكَ يا أُمَّ الرَّبيعْ :
«أَنْتِ الهَوى... يا فِتْنَةَ الحُسْنِ البَديعْ
رَفَّتْ عَلى شَفَتَيْكِ ضِحْكَتُكِ البَريئَةْ
وَهَفَتْ لِحِضْنِكِ في الدُّجى الشُّهُبُ المُضيئَةْ»

يَا جَوَّكَ الزَّاهِي تُلَوِّنُهُ الغُيُومْ   يَنْدَى الرَّبِيعُ لَدَيْكَ... يَأْرَجُ بِالنَّسِيم
يُثْرِي... نَدِيَّ العِطْرِ... فِي ظِلِّ الخَمَائِلْ
لِيَبُثَّ شَوْقَكَ لِلزُّهُورِ وَلِلسَّنَابِلْ
مِنْ رَوْعَةِ الذِّكْرَى... وَمِنْ دُنْيَا شَبَابِكْ
أُنْشُودَةُ الطَّيْرِ المُرَفْرِفِ فِي رِحَابِكْ

☆ ☆ ☆

وَافَرْحَةَ الصَّبِّ المُوَلَّهِ إِذْ يَرَاكْ   مَاذَا لَوْ أَنَّكَ قَدْ وَصَفْتَ لَنَا هَوَاكْ
لَوْ قُلْتَ لِي مَاذَا بِقَلْبِكَ مِنْ حَنِينْ
وَرَوَيْتَ لِلْعُشَّاقِ مَلْحَمَةَ السِّنِينْ

☆ ☆ ☆

فِي ضَوْءِ فَجْرِكِ يَا ضِفَافُ... وَفِي دُنْيَاكِ البَاسِمَةْ
عَادَ الرُّعَاةُ مَعَ القَطِيعِ إِلَى المَرَاعِي الحَالِمَةْ
مَا زِلْتُ أَذْكُرُ فِي رِحَابِكَ مَلْعَبِي
أَرْتَادُ ظِلَّكَ... إِنْ أَسِرْ أَوْ أَتْعَبِ
أَشْدُو مَعَ الأَطْيَارِ أُبْكِرُ المُنَى
وَعَلَى يَدَيْكِ نَشَأْتُ يَحْضُنُنِي السَّنَا

☆ ☆ ☆

يَا نَهْرُ... يَا قِيثَارَ لَحْنٍ حَالِمِ   يَا رِحْلَةً لَكَ كَالشَّوْقِ الهَائِمِ
عَادَ الرِّفَاقُ إِلَيْكَ لَكِنْ لَمْ أَعُدْ مِثْلَ الرِّفَاقْ
سَارَتْ بِيَ الأَيَّامُ فِي دَرْبِ التَّنَائِي وَالفِرَاقْ
يَا مَا رَجَعْتُ إِلَيْكَ فِي قَلْبِي الجِرَاحْ
خُذْنِي كَظِلِّكَ... كَالشَّذَى... طَلِيقَ الجَنَاحْ

الرباط   علال الهاشمي الخياري

قصيدة رائعة في رثاء الأندلس
لشاعر أندلسي مجهول

للمرحوم عبد الرحمان حجي

قدم لندوة تاريخ الأندلس وحياة وآثار أبي مروان ابن حيان التي أقامتها وزارة الثقافة بالرباط نص قصيدة رائعة مبكية في رثاء الأندلس لشاعر أندلسي مجهول الاسم سبق للأستاذ الشاعر المرحوم عبد الرحمان حجي أن نشرها في مجلة الرسالة التي كان يصدرها أحمد حسن الزيات بالقاهرة (عدد 131 بتاريخ 6 يناير 1936)، وقدم لها بما يلي :

.... قصيدة بليغة من الأدب الأندلسي الرائع تصف أحسن وصف المأساة الأندلسية لم نعثر على قائلها، وقد طبعها لأول مرة على مايظهر الأستاذ الدكتور صوالح محمد بالجزائر سنة 1914 مع ترجمة فرنسية وبعض تعليقات بالفرنسية ذكر فيها أن هذه القصيدة من جملة قصائد بعثت إلى السلطان بايزيد العثماني بقصد الاستغاثة. وأشار إلى أن صحيفة الزهرة التونسية نشرت نتفا منها منذ سنوات وطلبت من الأدباء

أن يعلنوا عن صاحبها إذا عرفوه. ولكن لم يجب الصحيفة أحد. فبقي صاحبها مجهولا. وقد عرضتها على المؤرخ المغربي الكبير السيد محمد ابن علي الدكالي السلوي فذكر لي أن صاحبها كما يفهم من القصيدة من مدينة المرية. ولعله أبو جعفر بن خاتمة. وقد تكون مذكورة في كتاب له يسمى مزية المرية الموجود منه نسخة خطية بمكتبة الاسكوريال. ولقد أحببت أن أرسل إليكم نصها لكي تنشروه في مجلتكم الحافلة إذا راقكم لعل بين المشتغلين بالأدب الأندلسي من له معرفة بقائلها فيعلنه.

وهذا نص المرثية :

أحقا خبا من جوّ رندة نورهـا — وقد كسفت بعد الشموس بدورها

وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلـت — منازلها ذات العـلا وقصورهـا

أحقا خليلي أن رندة أقفـــرت — وأزعج عنها أهلهـا وعشيرهـا

وهدت مبانيها وثُلّتْ عروشهـا — ودارت على قطب التفرق دورها

وكانت عُقابا لاينال مطارهـا — ومعقل عز زاحم النسر صورهـا

هوت رندة الغراء ثم حصونهـا — وأنظارها شنعاء (كذا) عز نظيرها

وقد كن عقدا زين القطر نظمها — فقد فتح الآن البلاد نثيرهـا

وفرق شمل المؤمنين لهيبهـا — وقطع من أرحامهم زمهريرهـا

تسلمها حزب الصليب وقادهـا — وكانت شرودا لايقاد نفورهـا

وقد ذهبت أديانها ونفوسهـا — وقد دثرت تحت السباء دثورها

فباد بها الإسلام حتى تقطعت — مناسبها واستأصل الحق زورها

وأصبحت الصلبان قد عبدت بها — تماثيلها دون الاله وصورهـا

لقرع النواقيس اعتلى بمنارها ... كرائه أصوات يروع صريرها
فيا ساكني تلك الديار كريمة ... سقى عهدكم مزن يصوب غيرها
أحقا أخلائي القضاء أبادكم ... ودارت عليكم بالصروف دهورها
فقتل وأسر لايفادى وفرقة ... لدى عرصات الحشر يأتي سفيرها
لعمر الهدى ما بالحشا لفراقكم ... سوى حرق سجم تلظى سيرها
ولوعة ثكل ليس يذهب روعها ... ولاتنقضي أشجانها وزفيرها
ونفس على هذا المصاب حزينة ... يذوب كما ذاب الرصاص صبورها
وقلب صديع ماج فيه بلاؤه ... سويداؤه سوداء جم ثبورها

سأبكي وما يجدي على الفائت البكى
بعبرة حزن ليس يرقا عبورها

شآبيب دمع بالدماء مشوبة ... يساجل قطر الغاديات دورها
عويلا يوافي المشرقين بريحه ... وثكلا بأقمار قد أطفىء نورها
فوا حسرتا كم من مساجد حولت ... وكانت إلى البيت الحرام شطورها
ووا أسفاكم من صوامع أوحشت ... وقد كان معتاد الاذان يزورها
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى ... وآياتها تشكو الفراق وسورها
وكم من لسان كان فيها مرتل ... وحفل بختم الذكر تمضي شهورها
وكم من فتى ثبت الجنان مهذب ... يود المنايا وهو كان يديرها
يصول على الأبطال صولة ضيغم ... فيرهبه شبل الشرى وهصورها
له في سبيل الله خير نقيبة ... تزان لها عينُ الجنان وحورها
له في جناب الكفر أجدى نكاية ... وشعواء غارات يثاب مغيرها
يراع لها دين الصليب وحزبه ... ويخزى بها عنصالها ورميرها
وكم أنفس كانت لديه أسيرة ... فأضحى لعمر الله وهو أسيرها

تحكم فيه الشرك وهو موحـــد   كما قد قضى جبارها ونذيرهـا
وكم طفلة حسناء فيها مصونـة   إذا أسفرت يسبي العقول سفورها
تميل كغصن البان مالت به الصبا   وقد زانها ديباجهـا وحريرهـا
فأضحت بأيدى الكافرين رهينة   وقد هتكت بالرغم منها ستورها
وقد لطمت واحر قلبي خدودها   وقد أسبلت وادمع عيني شعورها
وإن تستغث بالله والدين لاتغث   وإن تستجر ذا رحمة لا يجيرها
وقد حيل مابين الشفيق وبينها   وأسلمها آباؤها وعشيرهـــا
وكم من عجوز يحرم الماء ظمؤها   على الذل يطوى لبنها ومسيرها
وشيخ على الإسلام شابت شيوبه   يمزق من بعد الوقار قتيرهـا
وكم فيهم من مهجة ذات ضحية   تود لو انضمت عليها قبورهـا
لها روعة من وقعة البين دائـب   أساها وعين لايكف هديرهـا
وكم من صغير حيز من حجر أمه   فاكبادها حراء لفح هجيرهـا
وكم من صغير بدل الدهر دينه   وهل يتبع الشيطان الا صغيرها
وكم من شقي يسرت هذه لـه   سبيلا إلى الصرى يحيف كفورها
كروب وأحزان يلين لها الصفـا   عواقبها محذورة وشرورهـــا
فيا فرحة القلب الذي عاش بعدها   وبالعمى عين رآها بصيرهـــا
ويا غربة الإسلام بين خلالهـا   ويا عثرة أنى يقال عثورهـا
ويا ليت أمي لم تلدني وليتني   بليت ولم يلفح فؤادي حرورها
وما خير عيش يعذب الموت دونه   ويغبط قل الأهل فيه كثيرهـا
فيا ليت شعري بعد ماصح موتها   أيرجى على رغم العداة نشورها
ويا ملة الإسلام هل لك عـودة   لارجائها يشفي الصدور صدورها
وهل تسمع الآذان صوت الآذان في   معالمها تعلو بذاك عقيرهـا

وبالعزاء المؤمنين لفاقـــــة   على الرغم أغنى من لديها فقيرها
لاندلس ارتجت لها وتضعضعت   وحق لديها محوها ودثورهـــا
منازلها مصدورة وبطاحهـــا   مدائنها موتـورة وثغورهـــا
تهائمها مفجوعة ونجودهــــا   وأحجارها مصدوعة وصخورهـــا
وقد لبـث ثوب الحداد ومزقت   ملابس حسـن كان يزهو حبورها
فاحياؤها تبدي الأسى وجمادها   يكاد لفرط الحزن يبدو ضميرها
فلو ان ذا إلف من البين هالـك   لذابت رواسيها وغاضت بحورها
على فرقة الدين الذي جاءها به   بشير الأنام المصطفى ونذيرها
ضالقة الحسناء ثكلى أسيفـة   قد استفرغت ذبحا وقتلا حبورها
وجزت نواصيها وشلت يمينها   وبدل بالويل المبين سرورهـا
وقد كانت الغربية الجنن التي   تقيها فأضحى جنة الحرب سورها
وبلش قطّت رجلها بيمينهـــا   ومن سريان الداء بان قطورهـــا
وضحت على تلك الثنيات حبرها   فأقفر مغناها وطاشت حبورهـــا
وبالله إن جئت المنكب فاعتبر   فقد خف ناديها وجف نضيرهـا
وسكُرها ▬ بُدل اليوم علقمـا   لها رجة نار الهيـام يثيرهـــا
وعرج على الاقليم فابك ربوعها   بـصب يضاهي المعصرات غريرها
وودع بها وفد النعيم فانهــــا   لما أدمع فيّن الدموع يبيرهـــا
الا ولتقف ركب الأسى بمعالـم   قد أرتج باديها وضج حضورها
بدار العلى حيث الصفات كأنها   من الخلد والمأوى غدت تستطيرها
محل قرار الملك غرناطة التي   هي الحضرة العليا زهتها زهورها
فما في العراقين العتيقين مثلها   ولا في بلاد الله طرا نظيرهـا
ترى في الأسى أعلامها وهي خشع   ومنبرها مستعبر وسريرهـــا

ومأمومها ساهي الحجى وإمامها   وزائرها في مأتم ومزورهــــا

لها حال نفس قد أصيب فؤادها   وبتت لها اليمنى وحم تبورهـا

فأنفسها في الصعق دون* إفاقــة   كنفس كليم الله إذ دك طورهـا

وقد ذعرت تلك البنيات حولها   فهن بواكي الأعين الرمد مورها

وقد رجفت وادى الاشى فبقاعها   سكارى وما استاكت بخمرثغورها

لقد اظلمت حتى لفرط حدادها   سواء بها نجل العيون وعورهـا

وبسطة ذات البسط ماشعرت بما   دهاها وأنى يستقيم شعورهـا

علي عظم بلواها وطول وبالهـا   وماكابدت من ذا المصاب نحورها

وما أنس لا أنس المرية إنهـا   قتيلة أوجال أزيل عذارهــــا

فلو أحرق الشكل المصابين أصبحت   تأجج من حر الوجيف بحورها

فيا أصدقائي ودعوها كريمــة   أو استودعوها من إليه أمورهـا

منازل آبائي الكرام ومنشئـــي   وأول أو طان غذاني خيرهـــا

وأقروا عليها من سلامي تحيــة   تجددها أصالها وبكورهـــــا

أماناتها ضاعت فضاعت رقابهـا   لقد عميت عين تبدد نورهـــا

أضعنا حقوق الرب حتى أضاعنا   وقصت عرى الإسلام الا يسيرها

وملتنا لم نعرف الدهر عرفهـا   من النكرفانظر كيف كان نكيرها

بما قد كسبنا نالنا ما أنالنـــا   كذاالسيرةالسوأى لدى مَنْ يسيرها

بشقوتنا الخذلان صاحب جمعنا   وبؤنا بأحوال ذميم حضورهـا

بعصياننا استولى علينا عدونـا   وعاثت بنا أسد العدا ونمورهـا

نعم سلبوا أوطاننا ونفوسنــا   وأموالنا فيئاً أبيحت وفورهـا

علوها بلامهر وما غمزت لهـم   قناة ولا غارت عليهم ذكورهـا

وقد عوت الافرنج من كل شاهق   علينا نوفت للصليب نذورهـا

وقد كثرت ذؤبانها وكلابـــها   وقد كسرت عقبانها ونسورهـا
وجاءت إلى استئصال شأفة ديننا   جيوش كموج البحر هبت دبورها
علامات أخذ مالنا قِبل بهـــا   جنايات أخذ قد جناها مثيرهـا
فلا تمتحي الا بمحو أصولهـا   ولا تنجلي حتى تخط أصورهـا
معاشر أهل الدين هبوا لصعقة   وصاعقة وارى الجسوم ظهورهـا
أصابت منار الدين فانهد ركنه   وزعزع من أكنافه مستطيرهـا
أدارت على غربيه الدهر أكؤسا   فظاعا بسكر الدهر تقضى خمورها
ودبت أفاعيها إلى كل مؤمـن   وعض بأكباد التقاة عقورهـا
أنادي لها عجم الرجال وعربها   نداء سُراة القفر إذ ضل عِيرهـا
واستنفر الادنى فالادنى فريضة   على زمر الإسلام جلت أجورها
على كل محتاج لفضل دفاعها   فليس يؤدي الفرض إلا نفيرهـا
الا وارجعوا ياآل دين محمـد   إلى الله يغفر ما اجترحتم غفورها
أنيبوا وتوبوا واصبروا وتصدقوا   وردوا ظلامات يبيد نقيرهـا
ومن كل مايردي النفوس تطهروا   فليس يزكي النفس الا طهورها
ألا واستعدوا للجهاد عزائمـا   يلوح على ليل الوغى مستنيرها
بأسد على جرد من الخيل سبق   يدعّ الأعادي سبقها وزئيرهـا
بأنفس صدق موقنات بأنهـا   إلى الله من تحت السيوف مصيرها
تراهم إلى دار السلام عرائسـا   على الله في ذاك النعيم مهورها
وضرب كأن الهام تحت ظلالها   حثالة نور الورد ذر ذرورهـا
وطعن برى الخطي في مهج العدا   كاقلام ذات الخط خطت سطورها
يمين هدى إن تتقوا تنصروا   وتحظوا بآمال يشوق غريرهـا
فلا يخذل الرب المهيمن أمة   تدين بدين الحق وهو نصيرها

وإن أنتم لم تفعلوا فترقبــــوا	بوادر سخط ليس يرجى فتورها
وأيام ذل واهتضام وفرقــــة	يطاول آناء الزمان قصيرهــا
وأهدوا لدين الشرك كل خريدة	خبتها على طول الليالي خدورها
وكل نفيس من نفوس كريمــة	وأعلاق أموال خطير خطيرهــا
وحق العظيم الشان لاعيش بعدها	بلايا يمر الطيبات مرورهــا
فيرفع شكواها لعالم سرهــا	فليس لها في الخبر الاخبيرهــا
نمد أكف الذل في باب عـــزة	بافئدة خوف الفراق يطيرها
فإن لم يُقل رب العباد عثارنـا	فهذا العدو الضخم حتما يبيرهـا
إله الورى ندعوك ياخير مرتجـى	لكالحة هز الصليب سرورهـا
وشقت جيوب المؤمنين وأسخنت	عيونهم والكفر ظل قريرهــا
وليس لها ياكاشف الكرب ملجأ	إذا لم يكن منك التلافي ظهيرها
أغث دعوات المستغيثين إنهم	ببابك موقوفو الحشاشات بورها
وليس لهم إلا الرسول وسيلــة	شفيع الورى يوم التنادي بشيرها
إمام الهدى بحر الندى قامع العدا	وأول رسل الله فضلا أخيرهــا
محمد المختار من آل هاشـــم	سراج السموات العلى ومنيرهــا
دعوناك أملناك جئناك خشعــا	بأنفس استولى عليها قصورهـا
بجاه العظيم الجاه أدرك دماءنا	برحمى يحلى المؤمنين شذورها
وعفو وتأييد ونصر مـــؤزر	وعزة سلطان يروق طريرهــا
ولطف وتسديد وجبر لما مضى	يدال به من كل عاد كبيرهــا
وأرسل على هذا العدو رزيــة	يروح ويغدو بالبوار مبيرهــا
يشتت شمل الكفر تشتيت نقمة	وينظم شمل المؤمنين حصيرها

وصل على خير البرية أحمــــد وأكرم مَن قد أنجبته ظهورهــا
وأصحابه الشهب الهداة وآلـــه صلاة مع الآناء يزكو عبيرهــا

وقد أثار نشر هذه القصيدة حوارا أدبيا تاريخيا مفيدا على صفحات مجلة الرسالة القاهرية. كان أول من شارك فيه الأستاذ محمد عبد الله عنان (عدد 133 بتاريخ 20 يناير 1936) بالمقال التالي :

نشرت (الرسالة) في الأسبوع الماضي قصيدة رائعة هي رثاء مؤثر للأندلس بقلم شاعر أندلسي مجهول، ومهد لها الأديب المغربي الذي بعث بنصها إلى الرسالة بكلمة ذكر فيها أن هذه القصيدة نشرت بنصها الكامل في الجزائر لأول مرة سنة 1914، وأن صحيفة الزهرة التونسية نشرت منذ أعوام بعض مقاطيعها وطلبت إلى الأدباء أن يدلوا على ناظمها إذا استطاع أحدهم إلى ذلك سبيلا. ولكن أحدا منهم لم يظفر بالجواب. وأنه عرضها على مؤرخ المغرب الكبير السيد الدكالي السلاوي، فذكر أن ناظمها ربما كان أبا جعفر بن خاتمة وهو من أدباء المرية كما يستدل من بعض أبياتها، وأنها ربما كانت من محتويات كتابه المسمى (مزية المرية) الذي توجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة الاسكوريال. ويرجو الأديب المغربي في خاتمة كلمته أن يوفق أحد الأدباء المشتغلين بالأدب الأندلسي إلى معرفة ذلك الشاعر المجهول فيعلن اسمه.

والحق أن القصيدة رائعة مبكية، وليس من ريب في أن ناظمها أديب كبير وشاعر بارع، ومن حق الأدب أن يعرف هذا الشاعر المبدع وأن تحقق سيرته. بيد أننا نترك هذا البحث لمؤرخ الأدب الأندلسي في

عصر السقوط. وفي رأينا أن أهمية القصيدة ليست في قيمتها الأدبية. بل إن أهميتها ترجع بوجه خاص إلى ماتضمنته من الإشارات واللمحات التاريخية لحوادث المأساة الأندلسية. وهي بهذا الإعتبار وثيقة تاريخية لها قيمتها. ولهذا رأينا أن نؤثرها بتحليل عناصرها الواقعية، وإيضاح ما فيها من الإشارات واللمحات التاريخية.

وأول مايجب تحقيقه هو الفترة التي وضعت فيها القصيدة. وفي تعيين هذه الفترة تحقيق للعصر الذي عاش فيه الشاعر، وللظروف والملابسات التي أحاطت به. وهذه الفترة على مايبدو من كثير من مقطوعات القصيدة هي الفترة التي تلت سقوط غرناطة مباشرة. ونحن نعرف أن غرناطة سقطت في أيدي النصارى في صفر سنة 897 هـ (ديسمبر سنة 1491) ودخلتها جنود فرديناند الكاثوليكي في الثاني من ربيع الأول (2 يناير سنة 1492). وكانت قواعد الأندلس قد سقطت قبل ذلك كلها تباعا في أيدي النصارى. فسقطت مالقة في شعبان سنة 892 هـ (1487 م)، ووادي آش والمنكب والمرية في اواخر سنة 894 هـ (1489 م)، وبسطة في المحرم سنة 895 (ديسمبر سنة 1489)، وهي آخر قاعدة أندلسية سقطت قبل غرناطة. أما رندة التي يستهل الشاعر قصيدته بالاشارة إليها فقد سقطت في يد النصارى في سنة (890 هـ)، 1485 ويبدو من أقوال الشاعر المؤسية عن رندة أنه ربما شهد سقوطها، وأن هذا الحادث قد ترك في نفسه أثرا عميقا يتردد بقوة في روعة استهلاله، وهو أبدع مقطوعة في القصيدة :

أحقا خبا من جو رندة نورها ... وقد كسفت بعد الشموس بدورها
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت ... منازلها ذات العلا وقصورهـــا

أحقا خليلي أن رندة أقفـــــرت وأزعج عنها أهلها وعشيرهـــــا
وهدت مبانيها وثلت عروشهـــا ودارت على قطب التفرق دورها

بل يلوح لنا أن الشاعر ربما كان من أهل رندة وقت سقوطها. وأن اشارته فيما بعد إلى المرية بقوله :

منازل آبائي الكرام ومنشئـــي وأول أوطان غذاني خيرهـــــا
لايذهب إلى أكثر من أن المرية كانت موطن أسرته ومسقط رأسه، وأنه قضى بها حداثته الأولى، وربما كان ذلك حوالي سنة 860 هـ وأنه وقت سقوط رندة كان رجلا ناضجا يقف على مجرى الحوادث العامة وقوفا تاما.

ولنرجع إلى الفترة التي وضعت فيها القصيدة، فنقول انه من المحقق مبدئيا أنها كتبت بعد سقوط غرناطة، وليس هناك مايدل على أنها كتبت لترسل إلى السلطان بايزيد الثاني العثماني كما يظن الأديب المغربي الذي تولى نشرها. ذلك أن رسائل الاستغاثة التي وجهها زعماء الأندلس إلى السلطان بايزيد الثاني، وإلى الأشرف قايتباي ملك مصر، وجهت منذ بدء الصراع الأخير، أعني منذ حصار مالقة وقبل سقوطها في سنة 892 هـ (1487)، ولكن الاستغاثة لم تغن شيئا. وسقطت قواعد الأندلس تباعا في يد النصارى على النحو الذي فصلنا (1). ولما اشتد النصارى في معاملة المسلمين بعد سقوط غرناطة، وأرغموهم على التنصر، وعصفت بهم محاكم التحقيق (محاكم التفتيش)، كتب بعض كبرائهم إلى

(1) راجع تفاصيل هذه الحوادث والمراسلات المؤثرة في كتاب مصر الاسلامية، ص 134 وما بعدها والمراجع.

بايزيد الثاني في أواخر عهده يستغيث به وذلك حوالي سنة 1505 م. أعني بعد سقوط غرناطة بنحو أربعة عشر عاما وقد استطال عهد يزيد الثاني حتى وفاته في سنة 1512 م. وقد نقل إلينا المقري هذه الرسالة في كتابه «أزهار الرياض (2)» ونقل إلينا معها شعرا مؤثرا يصف به صاحب الرسالة عسف محاكم التحقيق. ويبدو من أسلوب هذه الرسالة والشعر كيف انحدرت اللغة العربية وآدابها في الأندلس في تلك الفترة بسرعة مدهشة. وكيف استطاعت السياسة الإسبانية في مدى قصير أن تخمد جذوة الشعر والأدب.

أما القصيدة التي نحن بشأنها فيبدوأنها كتبت قبل ذلك بحين. والمرجح أنها كتبت في سنة 904 أو 905 هـ (سنة 1500 م). ولنا على ذلك أدلة عديدة. منها قوة القصيدة وروعتها بما يدل على أنها كتبت عقب الفاجعة بأعوام قلائل قبل أن يخف وقعها في النفوس. وقبل أن تحدث السياسة الإسبانية أثرها في قتل اللغة العربية. ومنها الترتيب التاريخي الذي اتبعه الشاعر. فهو يورد الحوادث تباعا بترتيبها التاريخي. إذا استثنينا إشارته إلى غرناطة. وبيان ذلك أنه يبدأ بالاشارة إلى سقوط رندة. وقد كانت أول قاعدة سقطت في أيدي النصارى سنة 890 هـ (1485 م) كما قدمنا. ثم يتبعها بالاشارة إلى سقوط مالقة في قوله :

فمالقة الحسناء ثكلى أسيفـــة	قد استفرغت ذبحا وقتلا جمورها
وجزت نواصيها وشلت يمينهـــا	وبدل بالويل المبين سرورهـــا
وقد كانت الغربية الجنن التـــي	تقيها فأضحى جنة الحرب سورها

(2) ازهار الرياض (طبع تونس) ص 59 ـ 61.

وفي هذا البيت الأخير إشارة فطنة إلى موقع مالقة ومناعتها وكونها كانت حصن الأندلس من الغرب. فلما سقطت قواعدها في يد العدو تباعا. ويشير الشاعر بعد ذلك إلى سقوط بلش مالقة (Veigez Malaga) في قوله :

وبلش قطت رجلها بيمينهـا ... ومن سريان الداء بان قطورهـا
وضحت على تلك الثنيات جحرها ... فأقفر مغناها وطاشت حجورهـا

وكان سقوط بلش وهي حصن مالقة من الشمال الشرقي في جمادى الأولى سنة 892 هـ (أبريل سنة 1487 م) وعلى أثر سقوطها حاصر النصارى مالقة واستولوا عليها في شعبان من هذه السنة (أغسطس سنة 1487).

ولما استولى النصارى على مالقة أخذت ثغور الأندلس وقواعدها الباقية تسقط تباعا في يد النصارى فسقطت المرية والمنكب في أواخر (سنة 894 هـ ـ 1489 م). وسقطت بسطة في المحرم سنة 895 هـ (ديسمبر 1489 م). ثم استولى النصارى على وادي آش قاعدة مولاي عبد الله (الزغل) في صفر من تلك السنة (يناير 1490 م). ويشير الشاعر إلى هذه الوقائع بعد ذلك في قوله :

وبالله إن جئت المنكب فاعتبر ... فقد خف ناديها وجف نضيرهـا
وقد رجفت وادي الاشى فبقاعها ... سكارى ومالستاكت بخمر ثغورها

....

وبسطة ذات البسط ماشعرت بما ... دهاها وأنى يستقيم شعورهـا

....

وما أنس لأنس المرية إنهـا ... قتيلة أوجال أزيل عذارهـا

ولم يبق بعد سقوط هذه القواعد في يد المسلمين سوى غرناطة، وقد سقطت في يد العدو في صفر سنة 897 هـ (ديسمبر سنة 1491 م)، وإلى ذلك يشير الشاعر خلال ماتقدم :

ألا ولتقف ركب الأسى بمعالم ... قد ارتج باديها وضج حضورها
بدار العلى حيث الصفات كأنها ... من الخلدوالمأوى غدت تستطيرها
محل قرار الملك غرناطة التي ... هي الحضرة العليا زهتها زهورها
ترىفي الأسىأعلامها وهي خشع ... ومنبرها مستعبر وسريرها
ومأمومها ساهي الحجى وإمامها ... وزائرها في مأتم ومزورها

فهذا الترتيب التاريخي الدقيق الذي اتبعه الشاعر في قصيدته، وروعة نظمه، ومايبدو خلال قصيدته من عميق تأثره بالحوادث التي يصفها، مما يدلي بحداثة عهده بالمأساة حين وضع رثاءه المفجع. بيد أن هنالك أيضا في قصيدته مايكاد يعين هذا العهد في نظرنا وهو قوله :

وجاءت إلى استئصال شأفةديننا ... جيوش كموج البحر هبت دبورها
علامات أخذ مالنا قبل بها ... جنايات أخذ قدجناها مثيرها
فلاتمتحي إلا بمحو أصولها ... ولاتنجلي حتى تخط أصورها
معاشر أهل الدين هبوا لصعقة ... وصاعقة وارى الجسوم ظهورها
أصابت منار الدين فانهد ركنه ... وزعزع من أكنافه مستطيرها

فهذه الإشارات تنصرف في نظرنا إلى أول محاولة قام بها الإسبان لتنصير المسلمين، ونقض عهودهم التي قطعوها لهم عند تسليم غرناطة باحترام دينهم وشرائعهم، وتأمين أشخاصهم وأعراضهم وأموالهم وحرياتهم،

وكان ذلك سنة 904 هـ (1499 م) حينما قرر مجلس الدولة أن يفرض التنصير على المسلمين. وذلك لاعوام قلائل فقط من سقوط غرناطة. بل يلوح لنا أن الشاعر يشير بقوله :

ألا واستمدوا للجهاد عزائمـــا يلوح على ليل الوغى مستنيرها
بأسد على جرد من الخيل سبق يدع الأعادي سبقها وزئيرهـــا
بأنفس صدق موقنات بأنهـــا إلى الله من تحت السيوف مصيرها

إلى الثورة التي حاولت بعض المناطق الإسلامية أن تقوم بها مقاومة لقرار التنصير. ويلاحظ هنا أن الشاعر يقف عند ▬ الواقعة في الإشارة إلى الحوادث التاريخية مما يدل على أنها آخر حادث أدركه وقت نظم مرثيته، فإذا صح الاستنتاج الذي سقناه على النحو المتقدم، فانا نستطيع أن نقول إن الشاعر وضع مرثيته كما قدمنا حوالي سنة 904 أو 905 هـ (نحو سنة 1500 م).

هذا ومما يلاحظ أيضا أن الشاعر قد تأثر في مواطن كثيرة من قصيدته بالقصيدة الطائرة الصيت التي نظمها سلفه ومواطنه أبو البقاء الرندي في رثاء الأندلس، وأنه استمد منه بعض الوحي والمعنى، فقوله مثلا :

فواحسرتاكم من مساجد حولـت وكانت إلى البيت الحرام شطورها
ووا أسفاكم من صوامع أوحشـت وقد كان معتاد الآذان يزورهـا
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى وآياتها تشكو الفراق وسورهـا

مستمد من قول أبي البقاء في مرثيته :

حيث المساجد قد صارت كنائس ما … فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة … حتى المنابر ترثي وهي عيدان

وقوله :

وكم طفلة حسناء فيها مصونة … إذا أسفرت يسبي العقول سفورها
تميل كغصن البان مالت به الصبا … وقد زانها ديباجها وحريرها
فأضحت بأيدي الكافرين رهينة … وقد هتكت بالرغم منها ستورها

مستمد من قول أبي البقاء :

وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت … كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة … والعين باكية والقلب حيران

وهكذا في مواطن أخرى بيد أن الشاعر يفيض في نظمه وفي تصويره قوة وطراقة. وليس من ريب أن مرثيته المفجعة من أبلغ وأروع مارثيت به دولة الإسلام في الأندلس.

ثم عقب على ذلك الأديب المغربي المأسوف على شبابه محمد حصار السلوي في مجلة الرسالة أيضا (عدد 144 مارس 1936) بمقال يحمل عنوان :

حول راثي الاندلس المجهول

يرجع الفضل في العودة إلى إثارة البحث عن صاحب القصيدة التي نشرها، للمرة الأولى، الدكتور صوالح محمد بالجزائر سنة 1919، إلى

صديقي السيد عبد الرحمان حجي، مدرس اللغة العربية بمدرسة أبناء الأعيان بسلا، واتخذ ميدانه (الرسالة) (عدد 131 ـ 6 / 1 / 36) وطلب من المشتغلين بالأدب الأندلسي أن يعلنوا عن صاحبها إذا عرفوه، فلم يجبه أحد سوى السيد محمد عبد الله عنان الذي حاول في مقالة نشرتها له (الرسالة) أيضا عدد (133 ـ 20 / 1 36) تحقيق فترة الدهر التي يرجع إليها قرض القصيدة تسهيلا في البحث عن صاحبها وعصره، وقال السيد حجي إنه عرض القصيدة على المؤرخ المغربي السيد محمد بن علي الدكالي السلوي فذكر له أن صاحبها كما يفهم من القصيدة من المرية ولعله أبو جعفر بن خاتمة، وقد تكون مذكورة في كتابه (مزية المرية) الذي في دير الاسكوريال نسخة منه، وقال السيد حجي أيضا إن الدكتور صوالح قال في كتابه إن القصيدة من جملة القصائد التي بعثها مسلمو الأندلس يستغيثون بها السلطان العثماني بايزيد الثاني، ولم نعثر نحن على هذا القول في الكتاب المذكور.

أما نسبتها إلى أبي جعفر أحمد بن خاتمة فهو غلط تاريخي، لأن ممات هذا في اليوم السابع من شهر شعبان سنة 770 (فهرس أبي عبد الحضرمي السبتي، التي ألفها له الخطيب ابن مرزوق (النفح، ج 3، ص 244، ط القاهرة).

وابن خاتمة من معاصري لسان الدين بن الخطيب المشهورين، وله معه مكاتبات، وله أيضا في الوزير قصائد (النفح، ج 3، ص 433، ط القاهرة) ومن جهة أخرى، فقد ترجم الوزير في الاحاطة لابن خاتمة وعده من أصدقائه (الإحاطة، ج 1، ص 174، القاهرة 1319).

فليست القصيدة إذاً لابن خاتمة الذي مات، على الأقل، بنحو 80 سنة قبل الفترة التاريخية التي قيلت فيها والمستنتجة منها. ولا يمكن أن يجيء في كتابه (مزية المرية).

وجاء البيت 77 من القصيدة هكذا :

ترى في الأسس أعلامها وهي خشع ومنبرها مستعبر وسريرهـــا

سقطت (في) من صدره في الأصل وفي (الرسالة). إلا أن ناشر الأصل نبه عن ذلك في آخر الكتاب في جدول التصحيح. ولعل صديقي حجي أغفل النظر إلى الجدول.

وكان آخر تعليق كتبه المرحوم عبد الرحمان حجي في الموضوع الكلمة التالية :

ازالة لبس وايضاح مبهم
حول مرثية الاندلس

وقفت في العدد 144 من مجلة الرسالة الغراء الحافلة على ماسطره صديقي السيد محمد حصار من الكشف والبيان حول توقع نسبة قصيدة رثاء الأندلس المجهول صاحبها إلى ابن خاتمة وأنه لا يمكن صحة ذلك التوقع لأن ابن خاتمة توفي قبل إنشاء القصيدة بنحو 80 سنة على الأقل هذا هو الصواب. غير أن إثبات غلط ذلك التوقع وإطلاقه على عواهنه ربما يفهم منه أنه صادر من المؤرخ الكبير العلامة السيد محمد بن علي الدكالي. والصواب أن الغلط واقع مني لسوء فهم حصل لي من المذاكرة

التي جرت مشافهة فقط بيني وبين المؤرخ المذكور. وذلك أني بعدما عرضت عليه القصيدة أعلمني أنه لم يعثر عليها من قبل، وأن صاحبها ربما كان من المرية على مايفهم من كلامه. هذا كلام المؤرخ. ثم سألته عن شخصية بارزة من أعلام الأدب في المرية فأجابني بأن منهم ابن خاتمة مؤلف كتاب مزية المرية الموجود نسخة منه في مكتبة الاسكوريال. فحملت كلامه فحصل لي غلط في توقعي. ولما وقف عليها مطبوعة في العدد 131 من الرسالة بعث إلي بملاحظة ينبهني على أصل المذاكرة وكيفية وقوعها. وأثبت لي تورطي في الغلط المذكور الذي ربما يفهم المطلعون أنه صادر منه وهو عنه بعيد.

الرباط　　　　　　　　　　عبد الرحمن حجي

الإعلام الثقافي

اللقاء الثاني للسينما الافريقية

تحت اشراف وزارة الشؤون الثقافية وبتعاون مع «وكالة التعاون الافريقي» بباريس، نظمت «الجامعة الوطنية للاندية السينمائية» بالمغرب، اللقاء الثاني للسينما الافريقية من 3 الى 10 شتمبر 1983 بمدينة خريبكة، وقد اشتمل برنامج اللقاء على عرض عدة افلام افريقية وندوات ومحاضرات، كما تم اللقاء بحضور اعمدة السينما الافريقية : د. بولان فييرا، والاستاذ الطاهر شريعة، وكاسطون كابوري، والناقد سمير فريد، وبولين سومان فييرا، وسواهم من السينمائيين المغاربة، سواء منهم اعضاء النوادي الذين فاق عددهم 100، او السينمائيين المنتجين الذين اسهموا بعروضهم السينمائية كسهيل ابن بركة، الذي عرض له فيلم «اموك» بالاضافة الى المناقشات المثمرة التي كانت تعقب عروض الافلام والمحاضرات.

وبهذه المناسبة ألقى السيد وزير الشؤون الثقافية الدكتور سعيد ابن البشير الخطاب الآتي في حفل رسمي :

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرات السادة :

إن في حياة كل بلد وكل مجتمع وكل إنسان لحظات ابتهاج واعتزاز وشعور بالمسؤولية يتمنى أن تسعفه الذاكرة فيتمكن من تسجيلها، لا كلحظات متميزة فقط، ولكن لما لها من دلالات إيجابية تعبر عنها

في صورها ومضامينها. ولقاؤنا اليوم على أرض مدينة خريبكة. وعلى المستوى الإفريقي، وحول موضوع السينما. هو بحق لحظة من بين هذه اللحظات.

لذلك أستسمحكم وأنا أحاول أن أترجم حالة الابتهاج والاعتزاز والمسؤولية هذه، إلى كلمات.

حضرات السادة :

لعلكم خير من يدرك أهمية موضوع اللقاء، أي السينما، كلغة عالمية، وكجسر من جسور التواصل، والفعل والتفاعل، والتأثير والتأثر، في عصرنا هذا، عصر الحوار، وعصر التجاوزات الحضارية المعتمدة على التقنيات الحديثة، حيث أصبحت معه السينما في مقدمة وسائل التعبير التي يمكن للإنسان من موقعه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، ومن موقعه كإنسان يتميز بمجموعة من العناصر القارية والدينية واللغوية والعادات والتقاليد العامة التي تكوّن حضارته، أن يوظفها في صيانة الاستقلال الحضاري كشرط أساسي في الحوار الثقافي الذي تطمح إليه الشعوب والدول.

ولقد حبا الله سبحانه وتعالى الأرض الإفريقية والإنسان الإفريقي بخصائص ومميزات عديدة شكلت عبر التاريخ الإنساني حضارة تختلف في مظاهرها وجوهرها عن بقية الحضارات الإنسانية الأخرى. ومهمتنا كأفارقة أن نحفظ للحضارة الإفريقية أصالتها لضمان بقائها، ونطورها وفق النسب والأسس التي لا تتعارض مع جانب الأصالة فيها وتمكنها من مسايرة ركب الحضارة الإنسانية.

لذلك، يسعدني أن أؤكد لكم ـ أيها الإخوة الأفارقة ـ أن التزام المغرب بالوحدة الإفريقية، هو التزام حضاري تأخذ فيه الثقافة بمفهومها ـ الفكر المسؤول، والمسؤولية الفكرية ـ عمقها وامتدادها، كمطمح أساسي يحكم سياسة المغرب عبر مراحل التاريخ، ويحدد انتماءه كبلد يعي كل الوعي أهمية وخطورة موقعه الجغرافي باعتباره بوابة نحو أوروبا. ومن هنا، فإن علاقات المغرب، ومصالح المغرب الاقتصادية والسياسية كلها تنطلق من الحرص على تعميق هذا الالتزام الحضاري، وتأخذ بعين الاعتبار مصلحة إفريقيا قبل كل شيء. ومن هنا كذلك، فإن سياستنا الثقافية مستحضرة لهذه الحقيقة، وتهدف إلى تقوية الاعتزاز بالانتماء للحضارة الإفريقية، وإن نظرتنا للسينما كمجال للفكر والإبداع قبل النظر إليها كصناعة أو مجال للتجارة أو كقناة للإعلام، أي السينما كأداة من أهم أدوات الثقافة، تحتم علينا في مناسبة كهذه ـ تضم أهم الأطر المؤسسة والمكونة للسينما الإفريقية ـ أن نطرح مرة أخرى مثل هذه الأفكار والأهداف لتجديد الوعي بالذات وبالمكونات الحضارية لها، وأن نشير كذلك إلى أن رغبتنا في الانفتاح على بقية الثقافات الأخرى، وحرصنا على الاستفادة من كل الاجتهادات والابتكارات الإنسانية التي تحتم استعارة التجهيزات والخبرة التقنية أحيانا، وإن اضطرارنا إلى اللجوء للمعاهد الأجنبية قصد إعداد أطر السينما، كل هذا يجب أن لا يكون على حساب إتلاف أو تشويه البعد الحضاري للإنسان الإفريقي المبدع، داخل وخارج بيئته ومحيطه، وبالتالي لنؤكد أن استعارة التقنية ووسائل التعبير الحديثة لا تعني تلبس شخصية الغير كحتمية تصبح لها متجليات في أساليب التفكير والسلوك عندنا.

حضرات السادة :

سنخطئ كثيرا إذا نحن تصورنا أن لقاءنا هذا، هو لقاء على مستوى الحوار السينمائي فقط، أي أنه مجرد الاطلاع على تجارب السينمائيين الأفارقة، وتلمس القواعد النظرية التي تحكم عملهم. لأننا ـ أيها السادة ـ بحاجة إلى ضبط النظرية العامة التي تخدم التجربة السينمائية الإفريقية كليا، وتمكننا من تجاوز الانشغال بالعطاء الفردي، إلى فكرة التجربة الجماعية، وإلى جوهر السينما الإفريقية التي يجب أن نتحكم فيها بدل أن تحكمنا، بعد أن توفرت لدينا تجارب سينمائية إفريقية واعية بمسؤوليتها، وبعد أن اصبح للسينما الإفريقية كتاب سيناريو، ومخرجون يعرفون كيف يسيرون الفكرة وآلات التصوير بدل أن تسيرهم.

نحن هنا إذن، وفي هذا اللقاء، نعكس مظهرا من مظاهر التلاحم الإفريقي، وفي نفس الوقت، من أجل تحديد صيغة سياسة السينما الإفريقية في علاقتها بالإنسان الإفريقي أولا كإنسان له مشاكله وظروفه السياسية والاقتصادية، ثم في علاقتها بالسياسات التي توجه بقية السينمات العالمية الأخرى، الأمر الذي جعل السينمات العالمية غير بريئة بالنظر إليها كمضامين حضارية قائمة على فكرة الغزو والهيمنة. لذلك سنكون مضطرين ونحن نتدارس وضعية السينما الإفريقية ومشاكلها الداخلية وما تعانيه من نقص في التجهيزات والأطر ومشكل التوزيع محليا وخارجيا، ومشكل تعدد اللهجات، وغيرها للتأكيد على أن المقوم الأساسي للسينما الإفريقية هو عنصر التحدي، ضد كل الصعوبات المحلية، وضد كل العراقيل التي تواجهها من الخارج، لأن السينما الإفريقية هي الإنسان السينمائي، وليس الآلة السينمائية، وقيمة الفيلم الإفريقي هي

جوهر الفيلم في تطابقه وانسجامه مع القيمة الفنية والتقنية التي يظهر عليها. ومن ثم يجد السينمائي الإفريقي نفسه مطوقا بقضاياه كإنسان ينتمي إلى محيط ينقصه الكثير. ولا يزال يعاني بعض رواسب الاستعمار في كثير من مناطق القارة الإفريقية. وكنتيجة طبيعية فإن تفكيره لا بد أن ينعكس - مع ما يحمله من أحاسيس - على ما ينتجه من أفلام. ولا بد أن يجد نفسه مضطرا للنداء بصوت الحق من أجل الغاء مخلفات الاستعمار الذي يستهدف الفكر قبل الأرض. وبذلك سترقى السينما الإفريقية من مجرد صور مترابطة تعكس سطح الحياة الإفريقية ومن منظور سياحي. أي سينما اللقطة المغرية التي تستعرض الشمس والجبال ومظاهر الحضارة الإفريقية السطحية - التي تعود إلى العصور القديمة. والتي يحاول البعض أن يجعلها مدخلا للتعرف على إفريقيا اليوم. كنوع آخر من أنواع الاستغلال الذي تعرضت له القارة عبر تاريخها - إلى سينما العمق الحضاري. وإلى ما يحمله الإنسان الإفريقي من قيم تعكس استقلال الفكر ونبذ التبعية. التي يفقد الإنسان بها شخصيته وكرامته. ولعل فكرنا وهو يعبر عن هذا الاهتمام من خلال السينما. يشير إلى الإنسان الإفريقي في كل مستويات عمره وفي كل حيثياته الاجتماعية. ولكنه يشير - بصفة خاصة - إلى الطفل الذي سيكون مجتمع الغد. والذي يعاني اليوم من الاعتداء الثقافي بما يمكن أن يؤدي إلى إضعاف شخصيته الإفريقية إن لم نقل إلى قتلها. فالمجلات والأفلام والمسلسلات التلفزيونية والقصص. كل ذلك يدخل الطفل في فكر اجتماعي غريب عن بيئته. ويعطيه شخصية اصطناعية لا تنسجم مع أسرته الحضارية. إننا بهذا لا نعبر عن وطنية ضيقة نحن نرفضها. ولكننا

نسلط الضوء على أثمن وأخصب ما في الإنسان، وهو امتيازه الثقافي والحضاري. وإذا كان هذا يقتضي المحافظة على الشخصية والاستقلال الفكري، فإننا نؤمن إيمانا قويا بجدوى التفتح على المجتمعات الأخرى، ففي ذلك إثراء للإنسانية. ولذلك وجب أن تحظى ثقافة الطفل - بصفة عامة، وسينما الطفل بصفة خاصة - باهتمام كبير فهي من أقوى وسائل التعبير الاجتماعي. وهي من أقوى الوسائل الحديثة لتكوين الفكر وتوجيه السلوك الاجتماعي وتركيز الاتجاه الثقافي. فإذا أردنا أن نوجه التوجيه الإفريقي الصحيح طفل اليوم نحو رجل القرن الواحد والعشرين، بمواصفاته الفكرية، فعلينا أن نسلح طفل اليوم بثقافة، وسينما تخدمان هذا الهدف.

حضرات السادة :

إننا نريد أن نتفاءل بمستقبل السينما الإفريقية بالرغم من كل هذه الصعوبات. وهي رغبة مستمدة من ثقتنا في كفاءة وحماس الإنسان الإفريقي وإخلاصه لهويته، خصوصا وأن هذا اللقاء يضم شخصيات لها أهميتها في حقل السينما الإفريقية أمثال :

عميد السينمائيين الأفارقة الدكتور «بولان فييرا» Paulin Vieyra وأحد مؤسسي أيام قرطاج السينمائية الأستاذ «الطاهر شريعة»، وأحد ركائز مهرجان واكادوكو المخرج الشاب «كاسطون كابوري Gaston Kaboré» وغيرهم من ذوي النيات الحسنة، والعزائم القوية، التي ستجعل تفاؤلنا بمستقبل السينما الإفريقية حقيقة ملموسة، رغم طول الطريق. إذا عرفنا كيف نكثر من مثل هذه اللقاءات، وخلقنا تقاليد سينمائية داخل مجتمعاتنا وأقطارنا، وعرفنا كيف نسرب الوعي

بالسينما الجادة في أوساط الجماهير، ثم بالتالي كيف نعطي الأولوية للإنتاج الإفريقي داخل القاعات السينمائية الإفريقية كمرحلة لفرض وجود الفيلم الإفريقي على المستوى الدولي.

حضرات السادة :

أريد في هذه المناسبة، أن اتقدم بالشكر إلى كل الذين مهدوا لهذا اللقاء، وقدموا كافة المساعدات الممكنة وعيا منهم بأهميته، وخصوصا «وكالة التعاون الثقافي والتقني» على ما تبذله من دعم للنهوض بواقع السينما الإفريقية والتعريف بها دوليا. وأحيي كذلك الجمعيات والأندية السينمائية الإفريقية كافة.

كما أنوه بالجهد الخاص الذي تقدمه الجامعة الوطنية للأندية السينمائية ببلادنا، وعلى رأسها الأستاذ نور الدين الصايل. هذه الجامعة التي تتفانى في خدمة الوعي السينمائي ببلادنا، وعلى ما تقوم به من أنشطة، وما تأخذه من مبادرات هادفة.

حضرات السادة :

إن السياسة الثقافية بالمغرب المسترشدة بتوجيهات جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، تهدف فعلا إلى تقوية السينما الوطنية كجزء من السينما الإفريقية بتقديم الدعم الخاص لكل إنتاج وطني، وبتنظيمها المهرجان الأول للفيلم المغربي خلال الشهور القليلة الماضية، وبنائها لمختبر هام سيساعد حتما حركة الإنتاج. ونأمل أن تسهم شركات الإنتاج

والتوزيع وأصحاب القاعات السينمائية ببلادنا في تزكية مكانة الفيلم المغربي بين بقية الأفلام العالمية التي استفادت من التجربة الطويلة وتطور الوسائل ووفرة الأطر واتساع سوق توزيعها في فرض هيمنة على سوق التوزيع السينمائي داخل قارتنا. وهو نداء نوجهه مرة أخرى من أجل أن تتفهم أطراف الموضوع، أن الحس الوطني يجب أن يتغلب على الحس التجاري، إذا كنا نريد فعلا للسينما المغربية والإفريقية أن تنتعش ويتحسن وضعها داخل محيطنا الإفريقي على الأقل.

حضرات السادة :

أرحب بكم مرة أخرى في هذا الركن الغربي من شمال قارتنا الإفريقية، وأتمنى لكم التوفيق في أعمالكم لما فيه مصلحة السينما الإفريقية.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

د. سعيد ابن البشير

الفـهـرس